

الى استاذي الفاضل
الدكتور محمد الفاضل
مع فائق شكر وتقدير

ع

٧/٥/٢٠

الحياة الاجتماعية

في مصر القديمة

تأليف: سير و. م. فلنדרز بيترى

ترجمه وعلق عليه و قدم له

عبد المنعم عبد الرحيم

المعهد العالي للتربية والتعليم



حسن محمد جوه

وكيل وزارة التربية والتعليم السابق

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliothèque Alexandrine

المعهد العالي للتربية والتعليم
الاسكندرية

رقم التسجيل:

رقم التسجيل: ٢٤٠٥



ALEXANDRIA

مكتبة الاسكندرية

١٩٧٥

تقديم

لقد نشر هذا الكتاب أول مرة في عام ١٩٢٣م ، فنفذت طبعته في أقل من سنة ، فأعيد طبعه للمرة الثانية عام ١٩٢٤م ، وصدرت آخر طبعة له عام ١٩٣٢م .

وعلى الرغم مما قام به علماء الآثار المصرية من كشف بعد هذا التاريخ أماطت اللثام عن كثير من نواحي الحياة المصرية ، فإنه مازال من أهم المصادر عن حياة المصريين القدماء وأصدقها .

ولا تعزى أهمية هذا الكتاب الى غزارة مادته وصحتها فحسب، ولكنها تعزى أيضا الى صدق فرائسة مؤلفه ، وصدق حكمه على الأشياء . ولا غرو فالسير فلنדרز بتري يعد بحق في طبعة علماء الآثار الراسخين في العلم ، الذين استطاعوا أن يتحرروا الى حد كبير من ميولهم الشخصية ، ومن عقد البيئة والجنس والدين ، ودونوا الحقائق العلمية مجردة من الغرض ، ومن غير تحريف فيها ،

ولا تشويه لها ؛ فجاءت كتبه صورة صادقة للحقائق التاريخية
الثابتة ؛ فهو مثلا عندما يكتب عما أشاعه المؤرخون المفرضون عن
السخرة فى مصر القديمة ، يردّها الى أسبابها الطبيعية الحكيمة . .

ولقد تعرضت حياة الشعب المصرى فى الأزمان الغابرة لكثير
من المسخ والتشويه على يد المؤرخين الاجانب قديما وحدينا . وأولهم
الرحاله اليونانى هيروdot ، الذى زار مصر فى القرن الخامس قبل
الميلاد ، إبان محنة من أشد المحن التى ابتليت بها ، ألا وهى
الاحتلال الفارسى ، الذى أثر تأثيراً سيئاً فى أخلاق المصريين آنذاك .
شأن كل احتلال أجنبى ، فىخدمته ظواهر الأمور ، فأخذ بها ، وكتب
عنهم ما أزرى بهم ، وخط من شأن حضارتهم ، حتى خيل لمن قرءوا
ما كتبه عنهم أنهم قوم بدائيون يعبدون التماسيح والعجول
والقطط .

وقد ظلت هذه الصورة المشوهة والروايات الكاذبة التى
أذاعها هيروdot وغيره من الجهالة المفرضين يرددها الناس مئات
السنين .

وعلة هذا كله أن اللغة المصرية القديمة ، المرجع الحق لتاريخ
مصر الفرعونية وحضارتها العريقة ، ظلت سرا خفيا حتى جاءت
الحملة الفرنسية مصر فى يولية سنة ١٧٩٨ م (فى محرم سنة
١٢١٣ هـ) وأصدر العلماء الفرنسيون الذين جاءوا معها كتاب
وصف مصر ، ذلك الكتاب الجليل الشامل ، وحل أحدهم ، وهو
العالم الأثرى شمبليون رموزها (١) !

فما ان ذاع هذا الكشف العظيم حتى هرع العلماء الى مصر ،
وانكبوا على دراسة تاريخها الفرعونى ، وحياسة سكانها فى ذلك
العهد المجيد ، مما دونه المصريون أنفسهم ، منقوشاً على معابدهم

(١) الضمير يرجع الى اللغة الهيروغليفية .

وحيطان مقابرهم • وكانت النتيجة اللازمة لهذه الدراسات أن عرف الناس في شتى أنحاء العالم أن حضارة مصر أروع حضارة عرفها الانسان ، وأنها المعين الذي منه نهلت أثينا وعبت روما •

ولكن مما يؤسف له كثيرا أنه جاء في اثر العلماء الأعلام الذين جاءوا مصر من بلادهم ، وانقطعوا لدراسة آثارها ، جاءت فئة نهازه، كان همهم الأول سرقة الآثار وتهريبها الى بلادهم لبيعها لمتاحفها وجمعياتها العلمية ، ولم يصددهم خلق عن انتزاع بعض الأحجار المنقوشة من أماكنها في جدران بعض المعابد أو حيطان بعض المقابر (١) •

وحتى العلماء الأعلام الذين جاءوا مصر ، وكان هدفهم دراسة آثارها دراسة علمية ، لم يكونوا كلهم يسيرون على نظام مرسوم ، ونسق في التنقيب معلوم ، الأمر الذي أدى في كثير من الأحيان الى الاضرار ببعض الآثار •

وهنا يبرز فضل الأستاذ العالم فلنדרز بترى على الآثار المصرية. فقد كان في طليعة العلماء الذين لم يتبعوا في التنقيب عنها الطرق العلمية المنظمة فحسب ، بل كان المعلم الأول لها ، وكان لآرائه فيها الفضل الأكبر في ارساء فن البحث والتنقيب عن الآثار على أسس علمية سليمة •

ومن أجل هذا كله وقع اختيارنا على هذا الكتاب القيم لترجمته الى اللغة العربية • ولقد لقينا في ترجمته نصبا ، لأن في بعض عباراته اختصارا يوشك أن يخل بمعناها ، وفيه إشارات لبعض حقائق تاريخية غير مذكورة فيه ، اعتمادا على أن القارئ ملم بالتاريخ

(١) ولنضرب لذلك مثلا : الصورة المنقوشة التي تمثل زوجة ملك بنت، وكانت في الأصل جزءا من جدران معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحرى ، ولقد نقل بعضهم مقبرة كاملة مثل مقبرة متن التي نقلت الى متحف برلين •

المصرى ، ولهذا بسطنا بعض العبارات المجملة ، وفسرنا كثيرا من الفقرات الغامضة ، واستبدلنا الحقائق التي عرفت بعد تأليف الكتاب بالمعلومات المذكورة فى الكتاب والتي ظهر عدم صحتها ، وأضفنا كثيرا من الحواشى والتذييلات التي توضح غامضا أو تجلى حقيقة ، ولم نشأ أن ننسبها الى أنفسنا لأننا لم نجد داعيا لذلك ، لأن الكتاب خلو منها ، فجميع الحواشى من تأليفنا .

هذا وقد أضفنا نبئا بالترتيب الزمنى للملك مصر العظام ، والذين ورد ذكرهم فى الكتاب بخاصة ، ليستطيع القارئ أن يرجع اليه كلما اقتضى الأمر ذلك ، كما زدنا الترجمة بخرائط ورسوم توضيحية خلا الكتاب منها .

• والله ولى التوفيق .

المترجمان

ثبت بالترتيب الزمني للملوك مصر المشهورين

تمهيد

لقد استقى المؤرخون علمهم عن العصر التاريخي لمصر ، وهو العصر الذي يبدأ بتدوين المصريين لأعمالهم وشتى نواحي حياتهم ، من مصادر عدة ، أهمها ما خلفوه من آثار ، وما على بعضها من نقوش ، سواء أكانت كتابات أو صورا ، وما تركه المؤرخون القدامى من مؤلفات ، وأشهرهم المؤرخ المشهور مانيشون (١) الذي

(١) هومانيشون السمنودي ، كان كاهنا في مدينة هليوبوليس في عهد بطليموس الاول وبتليموس الثاني ، وقد كلفه الملك الأخير بكتابة تاريخ جامع لمصر ، فكتبه في ثلاثة أجزاء .
ومما يؤسف له كثيرا أن هذا الكتاب القيم فقد ، ولم يبق منه إلا ما اقتبس منه المؤرخون ، الذين جاءوا بعده ، ونسبوه إليه .

ألف كتاباً عن تاريخ مصر في جميع العصور ، تحدث فيه عن الأسرات التي حكمت مصر ، وأحساها فبلغت احدى وثلاثين ! وقد أخذ عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده .

ولقد قسم المؤرخون الأسرات أقساما عدة ، يشمل كل قسم منها الأسرات المتواليه ، التي تتسم بطابع خاص ، والتي لها صفات مشتركة ، ولتاريخها صبغة مميزة .

أما عصر ما قبل الأسرات ، ويطلق عليه عصر ما قبل التاريخ ، فقد اعتمد علماء الآثار في تحديد حقبه على الآلات والأدوات والأواني التي خلفها سكان مصر في ذلك العصر الواسع في القدم ، وقسموه وفقا لهذا ثلاث حقب :

(أ) الحقبه الباليوليتية : أى عصر الحجر المنحوت نحتاً ساذجاً .

(ب) الحقبه النيوليتية : أى عصر الحجر المصقول بعد النحت .

(ج) الحقبه الانبوليتية : أى عصر استعمال الحجر والنحاس في صنع الآلات .

ولقد ائدع فلندرز بترى طريقة لترتيب ذلك العصر ، وهي الطريقة التي تعرف بالتوقيت المتتابع (١) ، والتي سهلت على العلماء معرفة المراحل الحضاريه التي مرت بها مصر ابانه .

(١) تعتمد هذه الطريقة على دراسة الأواني المصنوعه من الفخار التي عثر عليها في المقابر المصريه التي ترجع الى ذلك العصر المتيق ، ومقارن نقاده بخاصه ، وترتيبها تبعاً لتطور صناعة مقاضها أو تبعاً لألوانها ودرجات صقلها ، وعلى تطور =

ويبدأ العصر التاريخي بابتداع المصريين للكتابة واستعمالها ،
وهو عهد يتلو بعضها بعضا :

١ - العهد العتيق ، ويشمل الأسرتين الأولى والثانية :

(أ) الأسرة الأولى (٤٧٧٧ ق م - ٤٥١٤ ق م)

• وأعظم ملوكها مينا (نارمر) •

(ب) الأسرة الثانية (٤٥١٤ ق م - ٤٢١٢ ق م) •

• وأشهر ملوكها برايب سن •

وأهم حوادث ذلك العهد توحيد القطرين (الوجهين) البحري

والقبلي ، وبناء مدينة منف واتخاذها عاصمة للبلاد •

٢ - عهد الدولة القديمة :

وفي عهدها أصبحت مصر دولة قوية ، متينة البنيان ، كثيرة
الموارد ، واسعة الثراء استطاع ملوكها بناء الأهرامات الضخمة ،

== الآثار الأخرى كالأواني المصنوعة من الحجر والآلات المتخذة من الطران ، ويد
قام بترى بترتيب ٩٠٠ مقبرة ترتيبا زمنيا ، ثم قسمها فترات ثلاثا ، كل فترة
تمتاز بأرائيها الفخارية بصفات خاصة وترك ١٩ مقبرة من (١ - ١٩) يضاف عليها
ماضى أن يعثر عليه من مقابر أقدم •

واليك هذه الفترات :

- (١) من ٢٠ - ٣٩ وقد أطلق عليها عصر ما قبل الأسرات القديم •
- (٢) من ٤٠ - ٥٩ وقد أطلق عليها عصر ما قبل الأسرات المتوسط •
- (٣) من ٦٠ - ٨٠ وقد أطلق عليها عصر ما قبل الأسرات الحديث •

ويطلق المؤرخون على ذلك العهد المجيد بعهد بناء الأهرام .

ويشمل الأسرات الآتية :

• (أ) الأسرة الثالثة (٤٢١٢ ق م - ٣٩٩٨ ق م)

وأشهر ملوكها زوسر بانى الهرم المدرج ، وأشهر شخصية

• فى عهدا امحتب المهندس ، والطبيب ، مصمم ذلك الهرم .

• (ب) الأسرة الرابعة (٣٩٩٨ ق م - ٣٧٢١ ق م)

وأعظم ملوكها سنفرو وخوفو بانى الهرم الأكبر ، وخفرع

بانى الهرم الثانى ، ومنقرع بانى الهرم الثالث والملكة خنت كاوس

• بانىة الهرم الرابع .

• (ج) الأسرة الخامسة (٣٧٢١ ق م - ٣٥٠٣ ق م)

• وأشهر ملوكها أوسركاف وساحورع .

• (د) الأسرة السادسة (٣٥٠٣ ق م - ٣٣٣٥ ق م)

• وأشهر ملوكها بيبي الأول وبيبي الثانى .

٣ - عصر الاضمحلال الأول أو الفوضى :

• (٣٣٣٥ ق م - ٣٠٠٥ ق م)

ويشمل الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشره ، وفيه قام

المصريون بثورة عارمة ضد الملوك تعد أقدم ثورة اجتماعية فى

التاريخ ، وقد تمزقت في آتائه البلاد وصارت امارات ، وغزا الدلتا
الأسويون من الشرق واللييون من الغرب ، ولهذا أصبح من
الصعب عمل قوائم بأسماء الأسرتين السابعة والثامنة ، أما الأسرتان
التاسعة والعاشره فقد حكم ملوكهما من أهانسيا ، وكان يطلق
على بعضهم اسم خيتي •

٤ - الدولة الوسطى :

بعد عصرها من أزهى العصور المصرية القديمة ، فقد ازدهر فيه
الفن والأدب •

وقد انتشر النظام الاقطاعي في آتائه •

وتشمل الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة •

(أ) الأسرة الحادية عشرة (٣٠٠٥ ق م - ٢٩٦٢ ق م) •

وأشهر ملوكها منتوحتب •

(ب) الأسرة الثانية عشرة (٢٩٦٢ ق م - ٢٥٦٥ ق م) •

وأشهر ملوكها أمنمحات (١) الأول ، وسنوسرت الأول

(١) يكتب هذا الاسم في الكتب التاريخية المختلفة في صور ثلاث : امونمحات ،

أمنمحت ، وأمنمحات •

وامنمحات الثاني ، وسنوسرت الثالث (سينوستريس) وامنمحات
الثالث *

٥ - عصر الاضمحلال الثاني :

ويشمل الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة
(٢٥٦٥ ق م - ١٩٢٨ ق م) وفي أثنائه تمزقت البلاد مرة
أخرى ، وتنازعا الأمراء والملوك الصغار ، وكان ملوك الأسرة
الثالثة عشرة من طيبة ، وملوك الأسرة الرابعة عشرة من الدلتا ،
وقد أدى ذلك الانقسام ؛ وما أصاب البلاد نتيجة له من ضعف
الى تمكين الهكسوس من غزوها *

٦ - عصر الهكسوس :

ويشمل الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة
(١٩٢٨ ق م - ١٧٣٨ ق م) وأشهر ملوكها خيان وأيبى
(أبو فيس) *

أما الأسرة السابعة عشر (١٧٣٨ ق م - ١٥١٧ ق م)
فقد كان ملوكها يحكمون من طيبة ويسيطرون على مصر
العليا على حين كان الهكسوس يحكمون مصر السفلى (الدلتا)
وكان الصراع على أشده بينهما *

وأشهر ملوك مصر العليا آنذاك سكتنرع وكامس *

٧ - عصر الدولة الحديثة (١) :

في أول عهده طرد الهكسوس من مصر ، وأصبحت مصر قوة عظمى ، غزا ملوكها العظام أقطار آسيا الغربية ، وصارت مصر بذلك امبراطورية عظيمة ، مترامية الأطراف (٢) وأقدم امبراطورية في التاريخ +

وتشمل الأسر الآتية :

(أ) الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٧ ق م - ١٣٢٠ ق م)
وأشهر ملوكها :

أحمس الأول وتحوتمس الأول ، والملكة حتشبسوت ،
وتحوتمس الثالث وامنمحتب الثالث وأختاتون ، وتوت عنخ آمون
وحور محب +

(ب) الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ ق م - ١٢٠٠ ق م)
وأشهر ملوكها سيتي الأول ورمسيس الثاني ومنفتاح +

(ج) الأسرة العشرين (١٢٠٠ ق م - ١٠٨٥ ق م)
وأشهر ملوكها رمسيس الثالث +

(١) يرى بعض المؤرخين أن الأسرة السابعة عشرة من أسرات الدولة الحديثة .

(٢) بالغ بعض المؤرخين في اتساعها حتى جعلوها تشمل شمالي أفريقيا ومعظم جنوبي أوروبا وغربي آسيا +

٨ - العصر المتأخر :

وفى أثنائه دب الضعف والوهن فى الامبراطورية المصرية ،
وفقدت مصر أملاكها فى الشام ؛ وعادت الى الانقسام مرة أخرى ،
فحكّم الوجه القبلى كهنة آمون ، وحكم الوجه البحرى ملوك
آخرون !

ويشمل الأسر الآتية :

- (أ) الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٥ ق م - ٩٥٢ ق م)
- (ب) الأسرة الثانية والعشرين (٩٥٢ ق م - ٧٤٩ ق م)
• وملكها لبيون ، وأشهرهم شيشنق الأول
- (ج) الاسرة الثالثة والعشرين ! (٧٤٩ - ٧٢١ ق م) وأشهر
• ملكها بغنخى الأول
- (د) الأسرة الرابعة والعشرين (٧٢١ - ٧١٥ ق م)
• وأشهر ملكها بوكوريس
- (هـ) الأسرة الخامسة والعشرين (٧١٥ ق م - ٦٧٢ ق م)
• وأشهر ملكها سبأكا
- (و) الأسرة السادسة والعشرين (٦٧٢ ق م - ٥٢٥ ق م)

وكان عهدها عهد نهضة شاملة ، ازدهرت فيه الفنون ،
ونشطت التجارة ، ولكن كان ملوكها يعتمدون على المرتزقة

الأجانب ! وأشهرهم اسمياتك الأول وينخاو وابريز وأمازيس
الثاني (أحسس) .

٩ - غزو الفرس للبلاد (٥٢٥ ق م) :

وبذلك بدأ الاحتلال الأجنبي لمصر لأول مرة فى التاريخ .
ويشمل الأسرة السابعة والعشرين (٥٢٥ ق م - ٤٠٤ ق م)
وأشهر ملوكها قميز ودارا .

١٠ - عهد الأسرة الثامنة والعشرين

والثاسعة والعشرين والثلاثين

(٤٠٤ ق م - ٣٤١ ق م) وفيه استقلت مصر بعد
طردها للفراسيين ، وكان ملوكها مصريين وأشهرهم لقطانب .

١١ - العهد الفارسى الثانى :

وفيه غلب الفرس المصريين ، وأعادوا سيطرتهم عليها

(٣٤١ ق م - ٣٣٢ ق م) .

ويشمل الأسرة الحادية والثلاثين

١٢ - الفتح الهندوى لمصر :

وفيه طرد الاسكندر الأكبر الفرس من مصر عام ٣٣٢ ق م .

١٣ - البطالة (٣٢٣ ق م - ٣٠ ق م) :

ازدهرت البلاد في عهدهم ، ولكنها لم تلبث أن تدهورت في
أواخره .

• وأشهر ملوكهم

بطليموس الأول (سوتر) و بطليموس الثاني (فيلادلفوس ،
و بطليموس الثالث (ايوارجيتس) و بطليموس الحادي عشر
(الزمار) و كليوباتره .

١٤ - العصر الروماني (٣٠ ق م - ٦٤٠ م) :

صارت في أثنائه مصر ولاية رومانية ، وقد طال أمده ،
وقاست مصر فيه من الظلم والقسوة والأضطهاد ألوانا .

وأشهر براطرة الرومان في ذلك العصر اكتافيوس وتراجان
وهادريان وماركو أوريليس ودقلديانوس ، وقسطنطين ،
وجستيان وهرقل .

١٥ - العصر الاسلامي :

فتح العرب مصر بقيادة عمر بن العاص سنة ٦٤٠ م .

تعريف بالمؤلف

هو السير وليام فلنדרز بترى ، ولد سنة ١٨٥٣ م ببلدة تشارلتون بانجلترا ، ونشأ فيها وشغف في ربيع حياته بالآثار القديمة ، فعكف على دراسة منطقة ستون هنج الأثرية ، في سهل سلسبرى بانجلترا ، وألف عنها كتاباً نشر في سنة ١٨٨٠ م .

وجاء مصر في السنة نفسها ، وبدأ فيها سلسلة من الأبحاث والحفائر ، استهلها بأهرام الجيزة ، ثم انتقل الى الدلتا ؛ ولم يلبث أن كشف عن معبد تانيس الكبير في سنة ١٨٨٤ م ثم كشف عن مدينة تفرطيس الاغريقية في غربى الدلتا ، وعن مدينة دقنى في جنوب بحيرة المنزله .

وفي عام ١٨٨٨ م انتقل الى القيوم ، وبدأ حفائره فيها ، فكشف مداخل أهرام هواره واللاهون واللثت ، ثم كشف معبد ميدوم سنة ١٨٩١ م .

وذاعت أخبار كشفوفه ، فشرقت شهرته وغربت ، وعين أستاذا لعلم الآثار المصرية بجامعة لندن سنة ١٨٩٣ م . وفي سنة ١٨٩٤ م أسس جمعية الأبحاث المصرية ، التى عنيت بدراسة الآثار المصرية

والكشف عنها ! وكان أهم عمل قامت به الكشف عن آثار مدينة منف *

وفي سنة ١٩٢٣ م أنعم عليه بلقب سير *

وفي سنة ١٩٣٣ م استقال من الجامعة ، وسافر الى فلسطين

حيث عكف على الحفر والتنقيب فيها *

وتوفى في مدينة القدس في سنة ١٩٤٢ م *

ويعد السير فلندرزبترى في طليعة علماء الآثار الراسخين في العلم الذين استطاعوا أن يتحرروا الى حد كبير من عقد اليئسة الجنس والدين عندما يكتبون عن أقوام لا يمتون اليهم بصلة ما ، كما ذكر ذلك في التقديم *

وقد ألف سير فلندرزبترى عشرات الكتب عن المصريين القدماء ، وعن آثارهم كما نشر عنهم مقالات كثيرة في المجلات التاريخية والأثرية وفي الصحف *

واليك أهم مؤلفاته عن مصر وآثارها الخالدة *

- (1) History of Egypt.
- (2) Religion and Conscience in Ancient Egypt (1889).
- (3) Religion of Ancient Egypt.
- (4) Arts and Crafts in Ancient Egypt (1909).
- (5) The Pyramids and Temples of Giza (1898).
- (6) Egyptian Science (1939).
- (7) Egyptian Architecture (1938).
- (8) Pre-historic Egypt (1920).
- (9) Syria and Egypt (1896).

مقدمة المؤلف

يعتبر هذا الكتاب « الحياة الاجتماعية في مصر القديمة » موجزا لسفر أضخم وأشمل انترك في اعداده نخبة من مشاهير العلماء والمؤرخين عنوانه : *Descriptive Sociology of Egypt* ولقد راعت فيه ربط الحقائق الماضية المجردة بأصلة من حياة سكان مصر الحاليين ، الذين لم تتغير حياتهم الاجتماعية كثيرا ، كما اعتمدت على كثير من المصادر اليونانية والرومانية ، لا لأنها تمثل عصر هاما من عصور التاريخ المصرى فحسب ، ولكن للشبه الشديد بين المصريين القدماء وبين المصريين فى عهدهما ! على الرغم من انتشار المسيحية فى العهد الرومانى !

وفىما يختص بالفصول الأخيرة من هذا الكتاب فانتى عاجلت فيها الفنون والصناعات من حيث تأثرها بالعوامل الاجتماعية • أما تاريخهما فسوف أفرد له كتاباً مستقلاً (١) •

(١) توجد قائمة للمراجع اكبر فى كتاب *Descriptive Sociology of Egypt* ملرجم الها من يريد المزيد .

هذا ولم أكتب أسماء المراجع في آخر هذا الكتاب لأنها
مذكورة بالتفصيل في كتاب :

« Descriptive Sociology of Egypt »

وأملى كبير في أن أقوم بإصدار كتاب عن :
« The Religious Life in Ancient Egypt »

• في القريب العاجل

مراجع الكتاب (١)

- (1) Breasted : Ancient Records (B.A.R.).
- (2) Breasted : Book of the Dead (B.D.).
- (3) Breasted : Development of Religion (B.D.R.).
- (4) Beadnell : Egyptian Oasis (B.E.O.).
- (5) Carnarvon and Carter : Five Years (C.C.F.Y.).
- (6) Davis : Tell el Amarna (D.A.).
- (7) Garstang : El Arabah (G.A.).
- (8) Petrie : Abydos (P.A.B.).
- (9) » : Diospolis Parva (P.D.P.).
- (10) » : Gizeh and Rifeh (P.G.R.).
- (11) » : Hawara and Biahmu (P.H.B.).
- (12) » : Hyksos and Israelite Cities (P.H.T.).
- (13) » : Heliopolis and Kafr Amarna (RPHKA).
- (14) » : Labyrinth (P.L.).

Descriptive Sociology

(١) توجد قائمة للمراجع أكبر في كتاب
فليرجع إليها من يريد المزيد .

- (15) Petrie : Medum (P.M.).
(16) Pliny : Natural History (P.N.H.).
(17) Petrie : Sinai (P.S.).
(18) » : Tell el Amarna (P.T.A.).
(19) Ouibell : Hierakonopolis (Q.H.).
(20) » : Tomb of Hesy (Q.T.H.).)

ملاحظة :

حافظنا في المتن على المختصرات الموضوعية بين قوسين ، ولم نترجم حروفها الى العربية .

الفصل الأول

نشأة المجتمع المصري

نشأة المجتمع المصرى وتطوره

إن نظام المجتمع البشرى معقد جد التعقيد ، ومن أجل ذلك فإن دراسته ليست بالأمر السهل الميسور . وانك لتجد فى كل طبقة من طبقات المجتمع فى القطر الواحد وفى الزمن الواحد اختلافات عديدة أو لعل تلك الفوارق الحالية فى طبقة ما تبلغ فى كثرتها الفوارق التى سادت تلك الطبقة خلال الأجيال الماضية . وان تلك الاختلافات تتجاوز حدود التصور والادراك حينما نحاول دراسة المجتمع فى أقطار شتى ، ذات ظروف مناخية متباينة ، تسكنها سلالات بشرية مختلفة تتبع أساليب معيشة مختلفة وتسود فيها مذاهب دينية متعددة . وغاية ما يمكننا عمله هو دراسة العوامل التى تهيب الظروف لنمو الجماعات البشرية وتكاثرها ، ثم محاولة تتبع الاستكشافات والابتكارات ، التى بدونها لايتاح لتلك الجماعات فرصة التكاثر والتقدم . وليس من المبالغة فى شىء اذا قلنا أن

المبتكر لشيء جديد أحد بناة المجتمع البشرى ، وذلك أن كل خطوة في ميدان الابتكار أو الاختراع لها أثر فعال في تقدم المجتمعات البشرية واستمرارها وتوثيق ما بينها من روابط .

ولقد رأينا ذلك في العصر الحاضر حينما حدث ذلك الانقلاب العظيم في حياتنا الاجتماعية نتيجة لذيوع استخدام الآلات في المصانع . وقد أحدث استخدام الكهرباء وانتشار الاحتراق الداخلى لتسيير السيارات تطورا بعيد المدى في الروابط القائمة بين المدن من ناحية ومناطق الريف من ناحية أخرى .

ولهذا فإتينا حين نستعرض الظروف الاجتماعية المتعاقبة في مصر القديمة فسوف نحاول أن تبين التغيرات التي حدثت في مجال الابتكارات والمعرفة مما كان سببا في تكوين مظاهر الحياة الاجتماعية في تلك البلاد .

احوال قبائل الصيادين

ان أولى المراحل التي نعرفها عن حياة المصريين أنهم كانوا قوماً يشتغلون بالصيد . فقد كان النيل يغمر واديه المنخفض بالمياه . وكانت بعض الأمطار تسقط على الهضاب المجاورة وكانت تعيش هناك أنواع من الغزلان والثيران البرية والفيلة وكثير من أنواع الحيوانات الأخرى التي لا توجد اليوم الا في أواسط أفريقيا .

ولم يكن للسكان بد من احتراف الصيد لتعذر احتراف الرعي لأن العشب لم يكن من الوفرة بحيث يسمح بتربية الحيوان بطريقة عملية مجدية ولكن من الجائز أن يكون الانسان حينئذ قد استطاع تربية بعض الأغنام وبذل عناية خاصة في اعداد المراعى لها . وان أول ركن تقوم عليه مهنة الصيد هو احتفاظ القبيلة لنفسها بحقوق خاصة على مساحة معينة من الأرض . بحيث لاتتعدى على تلك الحقوق قبائل أخرى .

ولقد استمرت الحروب بين القبائل للظفر بمواطن الصيد ومناطق جمع الثمار للحصول على اللحوم والفاكهة والحبوب والجذور والعشب .

وكانت كل قبيلة تتخذ نظاما اجتماعيا يهيىء لها أسباب الدفاع عن تلك الحقوق . وانا لنشاهد هذا النظام الاجتماعى ذاته فى دنيا الحيوان . فالماشية والكلاب البرية تدافع عن حدود مواطنها . وقد لوحظ أخيرا أن الطيور تتخذ فى كل موسم مواطن معينة تدفع عنها كل دخيل واغل وعلى الأخص فى فترة التزاوج . وهذه الظاهرة تشاهد فى عالم النبات أيضا فان بعض النبات ينشر أوراقا عريضة تمتد على مساحات واسعة كى يطرد أى نبات طفيلى ينمو على مقربة منه .

وهناك بعض شعوب كالاسكيمو والعرب يعملون على تجنب

هذا اللون من المنافسة والتصارع وذلك بتهيئة ظروفهم للمعيشة في
أوطان قاحلة تدرأ التطفل وتصد الدخلاء . ومثل هؤلاء الأقوام
كمثل بعض أنواع الزهور التي هيأت ظروفها بحيث تزدهر في
موسم الشتاء البارد للفادة من الضوء الساطع والهواء الكافي قبل
أن تورق أشجار الغابة وتلقى بظلالها عليها (١) .

على أن استغلال الأرض استغلالا خالصا للحصول على موارد
القوت يتطلب وجود قبيلة متماسكة العرى للدفاع عنها وحمايتها
من الدخلاء . ومن أجل ذلك كانت الحاجة ماسة الى وجود رئيس
(شيخ) يقبض على زمام تلك القبيلة . وان آخر مخلفات ذلك
التظام يتجلى في بعض المناطق بآسيا الوسطى . وكذلك في مواطن
حفظ الحيوان البري (٢) ولا تزال نجد الى اليوم أقواما يأخذون

(١) في الجهات الشمالية مساحات من الغابات النفضية . وهذه الغابات
ذات أشجار تسقط أوراقها في فصل الشتاء البارد فيتاح وقتئذ لبعض الأزهار
البرية التي تنمو وسط تلك الغابات فرصة الاستفادة من ضوء الشمس
والهواء .

(٢) في بعض جهات العالم مثل كينيا واتحاد جنوبي أفريقيا مناطق معينة
يأوى إليها أنواع من الحيوانات البرية النادرة . وتسكن حكومات تلك البلاد
قوانين تحظر على الناس دخول تلك المناطق الا بتصريح خاص ، ومنع الصيد فيها
الا برخصة معتمدة وتسمى «مناطق حفظ الحيوان البري» والغرض من وجودها
المحافظة على تلك الحيوانات من الانقراض اذا أصبح الصيد فيها بدون قيد .
والمؤلف هنا يعمل على الربط بين منع القبيلة للدخلاء من انتهاك حرمة أراضيها
ومنع بعض الحكومات الصيادين وغيرهم من التسرب الى المناطق المحظور دخولها
بقية المحافظة على ما فيها من الحيوان البري النادر .

بنظام القبيلة البدائي ويعيشون بعقلية سكان العصر الحجري القديم .
وكثيرا ما تقتصر أعمالهم على جمع الثمار البرية أو صيد
الحيوان (١) *

وعندما قل سقوط المطر في شمالي أفريقيا وقلت موارد مياه
النيل انحسر الماء عن مسطحات غرينية تصاح للزراعة وقل عدد
الحيوان فوق الهضاب . وقد أغار على مصر وقتئذ أقوام من الغرب
أدخلوا حرفة الزراعة في البلاد وقضوا على عادة أكل لحوم
البشر (٢) التي كانت متبعة قبل فدمهم * وقد نسب المصريون
هذه التغيرات للاله أوزوريس وأتباعه من الآلهة *

(١) لعل المؤلف يقصد بعض قبائل سكان استراليا الأصليين وجزيرة غيبيا
الحديدة وبعض قبائل حوض الكنجو وقبائل الشومان والهورنتون .

(٢) يشير المؤلف الى رأى ينادى به بعض علماء الآثار بأن الاله أوزوريس لم
يكن مصرى الاصل بل هو اله ليبى من آلهة الزراعة والحصاد انتقلت عبادته الى
مصر في فجر تاريخها مع الليبيين الذين غزوا مصر في ذلك العهد البعيد . أما
عادة أكل لحوم البشر فلم تكن موجودة في مصر منذ بزوغ فجر الحضارة المصرية
ولكن يبدو أنها كانت موجودة بين الأقوام البدائيين الذين سكنوا هضاب وادي
النيل في عصر ما قبل التاريخ بدليل الإشارة إليها في نصوص الأهرام (وهي كتابات
دينية دونت داخل أهرام ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة ولكنها تسجل حوادث
ومقائد وعبادات ترجع الى ما قبل ذلك بألاف السنين) . فقد جاء في الفصل ١٧٣ -
١٧٤ من هذه النصوص مايلي : « أن الملك يأكل الناس ويعيش على الآلهة ...
فالكبار منهم غداؤه في الصباح والمتوسطون حجما وجسته في المساء وصغارهم أكلته
بالليل » ولاشك أن هذه العادة اندثرت من مصر منذ فجر التاريخ ولكن ظل صداها

يتردد في نفوس الناس حتى دونت ضمن نصوص الأهرام
Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt,
pp. 127-129.

هنا وكان المصريون القنماء يعتقدون أن الذي علم أجسادهم المدنية ودرهم
على الزراعة ونهاهم عن اكل لحوم البشر هو الاله أوزوريس .

دور الخنطة فى نشأة المدن

وان الانتاج المنتظم للغذاء عن طريق الزراعة قد أمد الزراعة فى مصر بمقادير وفيرة من الحبوب مكنتهم من اختزان ما زاد عن حاجاتهم منها . وهذا الفائض المدخر من الغلال امدهم برأس مال زودهم بأسباب القوة التى كانت من عوامل التمهيد لظهور « حكومات المدن » . وقد لوحظ أن هناك تشابها عجيبا فى طوع المسافات التى تفصل بين حواضر المقاطعات فى كل من افليم الدنيا وبلاد ما بين النهرين فيبلغ متوسطه فى الأولى واحدا وعشرين ميلا وفى الثانية عشرين ميلا . والظاهر أن هناك عاملا طبيعيا يحتمل أن يكون قد تحكم فى تحديد تلك المسافات من شأنه أن جعل المخازن الرئيسية لمحاصيل المقاطعة مراكز لدوائر لاتزيد أنصاف أقطارها على عشرة أميال وهى أطول مسافة يمكن نقل المحاصيل خلالها من غير أن تتكلف نفقات كثيرة تبهظ أثمانها وبذلك أصبحت مراكز المقاطعات هى مخازن الغلال الرئيسية التى تحفظ بها المحاصيل الفائضة المدخرة والتى بدورها ساعدت على نشأة المدن المستقلة . وكانت وسائل التبادل هى التى تحدد مساحة كل من تلك المقاطعات . وسنرى أن هذا المبدأ يصدق كذلك فى عصور لاحقة . وفى خلال الحقبة التى نحن بصدها نجد أن الغلال المخزونة تمثل رأس المال الأوحيد الذى يمكن استخدامه فى

المعاملات المشتركة • وفى تنفيذ المشروعات التى ليس فى مقدور قرية واحدة النهوض بها •

وفد كان من المستحيل على احدى هذه المدن أن تسيطر على البلاد كلها فى الوقت الذى تشعر فيه أن الخنطة أساسا لمبادلاتها • فلا مصر ولا اليونان ولا ايطاليا استطاعت توحيد مقاطعاتها حتى حان الوقت الذى شاع فيه استعمال المعادن فأمكن جمعها لاستخدامها فى دفع الأجور ونفقات مختلف الخدمات • ولم يكن من اليسور نقل الخنطة من جهة الى أخرى وفاء للضرائب المقررة ثم ارسالها بالتالى عبر المسافات الطويلة لدفع الأجور وغيرها لأن أكداس الخنطة كانت كبيرة الحجم ثقيلة الوزن معرضة للتلف والفساد • ولما توفر لدى مصر قدر كاف من معدن النحاس كما تدل على ذلك الأدوات النحاسية الكبيرة التى كانت مستعملة فى نهاية عصر ما قبل التاريخ صار توحيد الدولة مستطاعا •

تداول العملة المعدنية

بين مختلف البلاد

وكانت السلع وغيرها تدفع أثمانها بالنحاس منذ ذلك العهد حتى عصر البطالة حين استبدلت بها عملة أخرى أخف حملا وأعلى ثمنا •

وهكذا كان الحال فى أقطار أخرى • بيد أن ايطاليا قد

حافظت على ذلك التقليد البالى وهو استخدام النحاس فى عمليات البيع والشراء حتى بعد ذىوع عملة الفضة والذهب بوقت طويل .

ولقد كان استعمال الفضة أساسا للتبادل فى المرحلة الطبيعية الثانية لأنه مورد دائم ولأنه أخف وزنا وأسهل تداولاً فى جمع الضرائب ودفع الأجور والمرتبات فى مساحات واسعة . بيد أن الفضة لم تكن كثيرة الاستعمال فى مصر إذ كان يؤتى بها من أقطار بعيدة (١) ومع ذلك فقد أصبح استعمال مخلوط الفضة والذهب (٢) شائناً فى عصر الأسرة الثامنة عشرة . ومن ثم نرى ذلك التوسع العظيم فى أملاك مصر . فقد أمكن جبي الضرائب معدنا نفيساً أتاح للدولة امداد جيشها بكافة حاجاته بطريقة منتظمة .

أما فى أرض الجزيرة فأتنا نرى نقطة التحول نحو استعمال الفضة قد سجلت على مسلة مانيشتوسو (وهذا التحول يعاصر

(١) لم تكثر الفضة فى مصر الا فى العصور المتأخرة من التاريخ المصرى القديم عندما بدأت جماعات الاغريق تستوطن البلاد . وقد عثر فى عهد الاسرتين ٢٦ و ٢٢ على مقبرة للملك بسوسنس الأول والملك ششنق الثانى بها تابوتان كاملان وكثير من الاوانى مصنوعة من الفضة وهى محفوظة بالمتحف المصرى بالقاهرة ٢ شرقاً بالدور الثانى . وقبل ذلك العهد كان العثور على الفضة فى المقابر شيئاً نادوا وليس أدل على ندرة الفضة من أن قيمتها فى عهد الدولة القديمة كانت تعادل نصف قيمة الذهب .

(٢) كان هذا المخلوط يعرف عند المصريين القدماء باسم «جمع» وهو المعروف باسم Electrum وقد استخدمه ملوك الأسرة (١٨) فى كسوة قمم المسلات حتى اذا ما سقطت عليها أشعة الشمس أرسلت أشعة نير أرجاء المعبد وتبره القادمين لزيارته . انظر Budge, Cleopatra's Needle, p. 37.

الأسرة التاسعة في مصر) عندما قدرت قيمة الأراضي الزراعية بالحنطة والفضة على السواء . ثم أخذت الوحدة المدنية تحل محل وحدة الحنطة شيئاً فشيئاً . ولم يمض بعد ذلك قرن من الزمان حتى تحققت لأرض الجزيرة أول وحدة كبرى على يد الملك « نارام سين » (١) .

وفي بلاد اليونان مكنت الفضة أئينا من توحيد الولايات الأغريقية تحت زعامتها . وكان الرصيد المشترك لتلك الولايات يحفظ في مدينة (ديلوس (٢) وكان ذلك الرصيد كافياً لدفع عجلة الحياة في بلاد اليونان . بيد أن هذه الدولة لم تجرؤ على الاحتكاك بدولة الفرس التي كانت تعتمد على رصيد من الذهب . وعندما بدأ فيليب المقدوني في اصدار عملة ذهبية أصبح لليونان

(١) «نارام سين» هو الابن الثالث للملك سرجون الاول المشهور مؤسس امبراطورية آكاد «التي كانت تشغل الجزء الجنوبي من أرض الجزيرة» . وقد حكم نارام سين من ٢٧١٥ الى ٢٧٣٩ ق.م وقاد حملة ضد حلف مكون من ١٧ ملكا من ملوك الحيثيين وهزمهم جميعا . ثم رد الآريين عن حدود بلاده الشمالية . وقد كشفت أعمال الحفر التي قام بها دي ورجان في مدينة السوس بإيران عن لوحة لهذا الملك تمثله رجلا مفتول العضلات مسلحا بالقرس والسهام يطأ بقدميه أجسام من ظفر بهم من أعدائه الذين يتوسلون اليه ويسترحمونه . وصور بين الأعداء أحد الضحايا وقد أصابه سهم اخترق عنقه فسقط على الأرض يحتصر . ولهذه اللوحة أهمية فنية لأنها تبنى عن وجود فن ناشئ في طريقه نحو الازدهار .

(٢) « ديلوس » جزيرة في بحر أيجه ضمن مجموعة الجزائر التي كانت قديما باسم «الكيكلاذ» وجزيرة ديلوس هي أصغر هذه الجزائر جميعا وفي عصر سيادة الإغريق كان بها معبد مشهور للاله أبولو .

تبعاً لذلك رأس مال جار أمكن استخدامه في مهاجمة فارس • وكانت وحدة مملكة الدولة العظيمة (١) التي تعد أقوى دول العالم حتى ذلك التاريخ والتي امتدت حدودها من البلقان الى لاهور تعتمد على رصيد ضخّم من الذهب بلغ المخزون المركزي منه مائتي طن ويقدر الآن بثمانية وعشرين مليوناً من الجنيهات الأسترلينية ، وهو رأس مال ضخم بالنسبة للعالم القديم • وقد كان رأس المال هذا خمسة أضعاف احتياطي ألمانيا من الذهب في (سنة ١٩٢٣ (٢)) وكان ذلك الرصيد يحفظ في برج يوليوس • وقد شد هذا الرصيد أزر الشعب الأغرقي ومكن له من السيطرة على الممالك التي ظهرت فيما بعد وادماجها في العالم الأغرقي والتي كانت مساحة كل منها على حدة تربو على مساحة اليونان قبل عهد الإسكندر بمائة سنة وكذلك الحال بالنسبة لنمو قوة الدولة الرومانية فقد اتسعت أملاكها عندما اتخذت عملة الفضة ثم الذهب أساساً لمعاملاتها ، وحينما كانت إنجلترا تعتمد على عملة فضية كان في مقدورها الإبقاء على كيانها فحسب • وما أن أخذت العملة الذهبية تؤتي ثمارها هناك حتى أخذت هذه الدولة بعد انتصارها في موقعة سلويس Sluys (٣) تفتح عهداً جديداً من التوسّع

(١) يقصد المؤلف دولة الإسكندر الأكبر .

(٢) ذلك تقدير المؤلف .

(٣) معركة «سلوى» معركة بحرية حدثت قرب ميناء سلوى بالساحل الفرنسي في منتصف صيف سنة ١٣٤٠م بين الإنجليز والفرنسيين . وهي أول نصر بحري للتاريخ الإنجليزي كله وكانت فاتحة حرب المائة عام .

الاستعماري الذي نجده عقب محاولة غزو فرنسا قد اتخذ في النهاية وجهة السيطرة على أقطار فيما وراء البحار . وهانحن أولاء نخطون خطوة أخرى الى الأمام آخر الأمر ذلك أن التجارة العالمية يكاد لا يتيسر نقل أثمانها ذهابا الى جهات العالم المختلفة ؟ وبذلك استخدم الورق في المعاملات على نظام الاصدار وهكذا استطاع الانسان اليوم الاهتداء الى نظام التبادل بالصكوك ، وهو أسهل تبادلا وأحف وزنا في شئون التعامل . واذن فأساس الوحدة السياسية وانتشار التجارة يتوقفان أولا وقبل كل شيء على سهولة نقل القيم المدفوعة ، فالخطة تكفي للتعامل داخل حدود المدينة الواحدة ، والنحاس يفي بحاجات مجموعة صغيرة من المدن ، والفضة لقطر قائم بذاته ، والذهب لامبراطورية تضم أكثر من قطر واحد . أما الورق فمجاله العلاقات المتبادلة بين شتى أقطار العالم .

ان الملك الواسع الذي تنقصه دعائم القوة المرتكزة على رأس المال انما يعتمد في حفظ كانه على السطوة والجبروت فحسب . وهذا النوع من الدول قد يخرج الى حيز الوجود حيناً . ومثال ذلك دولة « الهون (١) » أو دولة « المغول » ولكنه لا يلبث قليلا حتى تتداعي أركانه وتتوارى سلطوته وجبروته . ومهما يكن من الأمر لا يمكن لدولة ثابتة الأركان متماسكة الأجزاء تجبى نوعا من

(١) مجموعة كبيرة من قبائل التتر انصفت بالقسوة والوحشية تدفقت من آسيا في القرن الرابع الميلادي وانتسخت امامها قبائل القوط سكان شرقها اوربا .

العملة وتنفقها أن يمتد نفوذها إلى أبعد من حدود تداول تلك
العملة .

عصر فى عصر استخدام الحنطة

ولنعد الآن الى بحث حالة المجتمع فى مصر فى عصر ما قبل
التاريخ حينما كان التعامل يجرى على قاعدة استخدام الحنطة . لقد
كان حاكم كل مقاطعة وقتئذ يستولى على نصيب من الضرائب من
المخزن المركزى لتلك المقاطعة . غير أنه عندما اتحدت عدة مدن
وأصبحت آفاق حدودها أكثر اتساعا كان على حاكم تلك الولاية
الكبيرة أن يتقل بين ربوعها للحصول على الضرائب المقرضة على
كل مركز من مراكزها . وكان هذا الاجراء يشبه ما كان يمارسه
أى رئيس من رؤساء عشائر « الكلت (١) » اذ كان يحصل على
الأتاوة المطلوبة مواداً غذائية تتناسب مع مساحة كل ضيعة من ضياع
أتباعه وكان يرتحل الى تلك الضياع ويبقى فى كل منها أياما
معدودات وفى انجلترا استمرت تلك الطريقة فى جمع الأتاوات
المحلية الى عصر السكسونيين والنورماندين . وكان ذلك راجعا
الى ندرة المعادن النفيسة حيثئذ . ومن أجل ذلك كان البلاط الملكى
الانجليزى ينتقل من مكان الى آخر وعلى الأخص بين لندن

(١) كانت قبائل الكلت تسكن وسط فرنسا وجنوبيها وكذلك فى بعض المناطق
القريبة من فرنسا والجزر البريطانية وهى سلالات مختلفة تتكلم اللغة الكلتية .

وونستتر وجلوستر خلال العام الواحد حتى لا يأتى على موارد إقليم واحد وحتى يتحاشى ضرورة نقل المؤن المجبأة من الأهلين لمسافات طويلة . ومن الجائز جدا أن تلك الحال كانت فى مصر ؛ وكانت أساس نشأة ذلك التقليد المعروف « بالهباء الملكية » التى كان يقدمها الفرعون (١) لأحياء ذكرى بعض الموتى من النبلاء وأفراد الأسرة المالكة عند وفاتهم . كما كان يفرض قدرا معينا من ايجار أملاكه مقوما بالحنطة والمواد الغذائية لىكون قربانا للراحلين من أسلافه وأجداده (٢) وأنا نقرأ فى احدى العبارات المدونة على مقبرة من أقدم المقابر وهى مقبرة « متن (Meten) (٣) » تنازل الملك عن ملكية احدى الضياع الى « متن » وتنازله عن اثنتى عشرة منحة عقارية لتقديم القرابين الجنائزية الى روح ذلك النبيل . ولم يعثر على أى أثر من آثار العصور التاريخية يشير الى منح هبة من الأرض الى فرد أو أفراد مدى الحياة ثم استرداد الدولة لها بعد ذلك . واذن فلا داعى لأن نفترض وجود ذلك فى عصور ما قبل

(١) كان الاموات يدنون على أبواب مقابرهم صيفا جنازية تبدأ جميعها بكلمة «قربان من الملك» (حتب دى نيسوت) .

(٢) ومثال ذلك ماورد فى قصة الساحر « ددى » من أن الملك «خوفو» وهب لروح الملك « نب كا » قربانا مكونا من ألف رغيف ومائة جرة من الشراب .

(٣) متن (Meten) موطف كبير عاش فى أواخر الأسرة الثالثة وبداية الأسرة الرابعة وكان للكشف عن مقبرته أهمية كبيرة فى معرفة نظام الوراثة فى ذلك العهد وفى معرفة الكثير من الألقاب والوظائف . وقد نقلت مقبرته بأكملها الى متحف برلين أيام الفوضى التى تعرضت لها الآثار المصرية فى القرن الماضى .

التاريخ • على أنه لما كانت الأرض تعتبر في الأصل ملكا للملك جاز لنا أن نفترض أنه في الوقت الذي ساد فيه النظام القبلي في مصر كان شيخ القبيلة يمنح فردا أو أفراداً مساحة من الأرض على أن تعاد الى الأملاك العامة للقبيلة في حالة الوفاة بدون ورثة • والظاهر أنه لم يكن هناك نظام أقطاعي على الأرض يستتبع التزامات خاصة وإنما كان على من يستغل الأرض أن يؤدي مختلف الرسوم والضرائب المقررة الا اذا كانت الأرض معفاة من ذلك بصفة خاصة لوقفها على أحد المعابد •

التغيرات في عصر النحاس :

وعندما أهل عصر الأسرات في مصر - وكان ذلك عقب بدء استعمال النحاس على نطاق واسع - قامت الدولة باعداد جهاز كبير من الموظفين كان يتزايد على مر الأيام ، وكان أولئك الموظفون موزعين في شتى أرجاء البلاد ، يستخدمون معدن النحاس في معاملاتهم وكان كل مصرى يود لو يعمل للحصول على هذا المعدن لصنع الأدوات اللازمة له • وما جاء عصر الأسرة الثالثة حتى ظهر منصب المشرف على الفيضان • وفي عهد الأسرة الرابعة نجد قائمة بأسماء عدد من المقاطعات منقوشة على خاتم أحد الموظفين وكان يشرف على أعمال مختلفة فيها ثم كان بعد ذلك مناصب قادة القلاع ومديرو مصالح الداخلية وغير ذلك من الوظائف • وقد

أعقب ذلك زيادة سريعة في عدد كبار الموظفين • حتى جاء عهد استقرار الدولة العظيم تحت حكم الملك « خوفو » وحينئذ نجد أن ممتلكات الكهنة قد نقصت وشئون الدولة قد نظمت وفق أساليب جديدة استمر العمل على هديها منذ ذلك التاريخ •

وسوف ندرس في هذه المناسبة حالة الطوائف المختلفة التي تألفت منها طبقات المجتمع المتعددة وعلاقة كل منها بالأخرى مرجئين الحديث عن واجباتها في شيء من التفصيل الى فصول لاحقة •

مركز الملك

لقد كان الملك في مصر أكثر من كونه مجرد حاكم شرعي للبلاد فقد كان يعد نفسه السيد لكافة الدويلات التي انضوت فيما مضى تحت لواء حكومة مركزية واحدة تحت امره الملك مينا • لذلك نجد الملك قد اكتسب كافة الألقاب والامتيازات التي كان ينعم بها حكام تلك الدويلات (١) فيما مضى • وعلى هذا فقد كان

(١) كانت مصر مقدسة في فجر التاريخ مقاطعات وكان لكل مقاطعة اله خاص تعبده وشعار يمثلها وكانت هذه المقاطعات مستقلة في بادئ الأمر • وبعد مضى زمن قامت حركة اتحاد في البلاد ، وذلك حينما تجمعت مقاطعات الوجه البحري في مملكتين الأولى في الغرب وعاصمتها « بحدت » بالقرب من دمنهور الحالية • والثانية في الشرق وعاصمتها «بوصير» بالقرب من سمبود الحالية • وبعد فترة من الزمن اندمجت هاتان المملكتان في مملكة واحدة شملت الوجه البحري وأصبحت عاصمتها «بحدت» وكان الهها حور (حورس) . وفي الوقت الذي احدث فيه

الملك يحمل القبايا. رسمية (١) كانت لحكام تملك الولايات + وعدا

الدلتا قامت مملكة أخرى في الوجه القبلى مؤلفة من ايجاد مقاطعاته واتخذت عاصمتها بلدة « نفاذة » الحالية الواقعة بالقرب من « ققط » وكان الهها «ست» .
ثم قامت مملكة الشمال (في الدلتا) بغزو مملكة الجنوب (بالصعيد) وأمكنها توحيد القطرين وأصبح العاصمة في «بوسير» .

== ولكن بعد فترة من الزمن ثار أهالى الوجه القبلى برعامه «نفاذه» وانفصمت عرى الاتحاد . ثم ظهرت قوة «بحدت» عاصمة مملكة «حور» في الشمال من جديد وتمكنت من احضاع مملكة «ست» في الوجه القبلى وتوحيد القطرين واتخذت العاصمة في مدينة هليوبوليس (عين شمس الحالية) حتى تكون في مركز متوسط من القطرين وكان ذلك عام ٤٢٤١ ق.م. وكانت شارة هذه المملكة المتحدة «قرص الشمس الناصر جناحيه» الذى يشاهده الزائر في كثر من الآثار المصرية .

وبعد مضي فترة من الزمن ضعفت مملكة هليوبوليس فانقسمت البلاد مره أخرى مملكتين احدهما في الوجه البحرى وعاصمتها «بوتو» (المعروفة الآن بتل الفراعين في شمال دسوق والأخرى في الوجه القبلى وعاصمتها « نخن » (وهى المعروفة الآن بالكوم الأحمر على شاطئ النيل الغربى فى مواجهة «ادفو») . وقد تم توحيد البلاد للمرة الثالثة والأخيرة على يد الملك «مينبا» ملك الجنوب وأنشأ عاصمة الدولة المتحدة عند رأس الدلتا وسماها «العلعة البيضاء» وهى التى عرفت فيما بعد باسم « منف » أو « منفيس » وتوجد أطلالها الآن على مقربة من «الدرشين» جنوب أهرام الجيزة .

وبالرغم من أن أهالى القطرين اندمجوا تماما بعد ذلك واختفت معالم ذلك الانقسام الا أن ذكر مملكتى الشمال والجنوب ظل يرد على الآثار المصرية حتى آخر عصور التاريخ المصرى . فكان الملك يسمى ملك الوجهين القبلى والبحرى وكان «بيت المال» يسمى «البيت المزدوج» وهكذا ..

(١) الالتاق الرسمية الخمسة للفرعون هى :

(أ) «حور» وكان يطلق على الملك بمجرد اعتلائه العرش ومعناه أنه صورة حية من الاله : «حور» (حورس) تعيش على وجه الأرض . وكان هذا اللقب ينقش داخل مستطيل يمثل واجهة القصر الملكى وعلى قمته صورة الصقر الذى يرمز به لاله حور . =

ذلك فقد خلع الملك على نفسه ألقابا للوظائف الدينية التي كان يتولاها أولئك الحكام .

على أن الوظائف الدينية التي كان يتقلدها ملك مصر لم تسجل تسجيليا وافيًا حتى يمكن تتبع أسسها الأصلية . فقد كان الملك يؤدي صلواته اليومية بوصفه الكاهن الأعظم للبلاد . وكانت كافة الهبات الجنائزية والقرايين تقدم باسمه من الناحية الشكلية . وكان المصريون كما هو الحال عند كثير من الشعوب القديمة يعتبرون أن رخاء البلاد ورفاهيتها تتوقف الى حد كبير على حيوية الملك ونشاطه . ومن هنا فقط يمكننا أن ندرك سر ذلك النظام الصارم الذي قام على أساسه تحديد المواقيت اليومية لكل ما كان يؤديه الملك من أعمال . وقد جعله هذا النظام أشبه بعبد لوظيفته .

== (ب) «نبتي» أى التاجان الأبيض والاحمر وكان يمثل بنسر وصل (نعبان) يرتكز كل منهما على سلة رمزا للملكية . ويمثل هذان الحيوانان رمزين لمعبودى مدينة «نخب» فى الوجه القبلى و «بوتو» فى الوجه البحرى .

(ج) «نسوت بيتي» ومعناه ملك الوجهين القبلى والبحرى ويمثل بنباب «البوص رمز الوجه القبلى» والنحلة «رمز الوجه البحرى . وكان هذا اللقب يطلق على الملك فى اليوم الذى يتوج فيه .

(د) «حورنوب» ومعناه فى الاصل «حورس الذهبى» ثم تطور فيما بعد فاصبح مدلوله فى العصر المتأخر وعصر البطالة «حورنبتى» أى حورس المنتصر . وهو يشير بذلك الى انتصار «حورس» على عدوه «ست» الذى كان يقطن بلدة «نوبت» وهى «البلاص» الحالية بالقرب من «تفت» كما ورد فى قصة «إيزيس وأوزوريس» .

(هـ) واللقب الاخير هو «سا . رع» ومعناه «ابن الشمس» وكان يليه اسم الملك نفسه داخل خرطوش .

وهناك مسألة أخرى كانت مثار دهشة عظيمة للاغريق تلك
هي خضوع الملك التام للقانون .

ويروى المؤرخ ديودورس الصقلي (١) أن ملوك مصر لم
يحكموا البلاد حكما أو توفراطيا مطلقا كثيرهم من الحكام فى الدول
الأخرى ولم يحيوا حياتهم طليقة من كل ضابط أو قيد ، وإنما
كانوا يراعون حرمة القانون فى كافة تصرفاتهم سواء أكان ذلك
خاصا بأمور الحكم أو بشؤونهم الخاصة . وعندما بدأ الملوك الأقوياء
فى توحيد البلاد فى فجر التاريخ المصرى كانت الدويلات المنتشرة
فى أرجاء الوادى تخضع لهم بشروط تعتبر ملزمة للملوك وعليهم
احترامها . ومن هنا جاءت فكرة تقييد سلطة الملك خلال العصر
التاريخى .

ومن هذا نرى أن تقييد سلطات الملك فى مصر جاء نتيجة
تلك التقاليد القديمة التى آلت إليه باستيلائه على مختلف الدويلات
التى كانت قائمة فى مصر من ناحية ولشخصيته المقدسة كرمز لحياة
مصر من ناحية أخرى .

(١) «ديودورس الصقلي» مؤرخ روماني ولد في جزيرة صقلية و زاد مصر
حوالى عام ٥٩ ق.م أيام حكم البطالمة لها . و ألف كتابا من أربعين جزءا فى
تاريخ العالم خصص جزءا منها لمصر . وقد ضاعت أغلب هذه الكتب ولم يبق
منها الا ستة أجزاء .

الوزير

فى عهد الأسرة الأولى كان الوزير (١) وهو رئيس الأداة الادارية يسمى حامل أختام الملك .

وفى عصر الأسرة الثالثة أصبح منصب قاضى القضاة « سبختى (٢) » أكبر مناصب الدولة . ولبث الوزير يحتفظ بلقب قاضى القضاة حتى زوال الملكية فى البلاد . وكان الوزير قطب الرحى فى الشؤون الرسمية ناهضاً بأمور الادارة والقضاء مما ويثقلى التقارير التى ترد من مختلف المقاطعات وستحدث عنه بتفصيل فى الفصل الخاص بالادارة .

وكانت باكورة الأعمال اليومية التى يزاولها الملك الاطلاع على الرسائل الواردة من أنحاء البلاد . ومن الواضح أن ما كان لديه من تبعات دينية وأعمال أخرى متعددة فى حياته اليومية قد

(١) لم تكن وظيفة الوزير بمعناها الصحيح معروفة فى مصر قبل بداية الأسرة الرابعة إذ أن أول وزير معروف يرجع الى عصر الملك «سنفرو» وهو «نفر ماعت» حفيد الملك «سنفرو» كما يقول بعض المؤرخين (أنظر كتاب مصر ، لديربتون ورجمة عباس بيومى ص ١٦٤) . أو «كانغر» ابن «سنفرو» كما يقول البعض الآخر (أنظر سليم حسن ، فى الجزء الثانى ، ص ١٤) . هذا ويعتقد بعض المؤرخين «كادروارد ماير» أن وظيفة الوزير كانت موجودة فى عهد الأسرات الأولى ويعتمدون فى ذلك على الكتابة التى وردت على لوحة الملك «نارمر» (الذى يرجح أنه منسا) فوق رسم شخص يتبع الفرعون ويرتدى ثوبه . وهذه الكتابة تقرأ «نبت» وهو لفظ معناها وزير ولكن ذلك غير مؤكد ولا يمكن الاعتماد عليه بصفة قاطعة .

(٢) «سبختى Sebekhti » أو «ساب سبختى» .

حال بينه وبين التفرغ الكافى لإدارة شئون الدولة • ومن أجل ذلك كانت وظيفة الوزير على أعظم جانب من الأهمية • وعندما وجهت الدولة عناية كبرى الى بلاد النوبة أصبحت الحاجة ماسة الى وجود منصب وزير ثان للجنوب • ولما حكمت الجنوب الكاهنات العظيمات (١) فى مدينة « طيبة » ورث مساعد وهن الكبار بطبيعة الحال منصب وزير الجنوب •

توارث الحرف

وإذا نحن درسنا شئون الطبقات المختلفة للمجتمع فى مصر القديمة نلاحظ وجود نسبة كبيرة من الوظائف والمناصب والمهن انحدرت الى أصحابها عن طريق الوراثة وهو أمر جد طبعى • ونشاهد مثل هذه الظاهرة فى إنجلترا وغيرها من الأقطار وذلك

فى عهد الأسرة الثانية والعشرين الليبية الأصل لجماً الملوك الى حيلة بارعة للسيطرة على الأملاك الواسعة التابعة لمعابد الاله «آمون رع» اله طيبة فميتوا أبناءهم رؤساء لكهنة هذا الاله فى مدينة طيبة .

(١) وقد ابتدع أحد ملوكهم وهو «أوسركن» الثالث بدعة جديدة هى تعيين النساء فى هذه الوظائف . فعين ابنته الكبرى «شبن أوبت» كبيرة لكهنة آمون رع وبالتالي مشرفة على إيرادات معابده . وسار «تاكلوت» الثانى على منوال أبيه . ولما غزا النوبيون مصر وطردهوا الليبيين عين الملك « شباكا » أخته فى هذا المنصب . وقد عرفت تلك الكاهنات فى التاريخ باسم «الكاهنات العظيمات لآمون» ولما كانت سلطتهن تمتد على النوبة والوجه القبلى فقد كان كبار مساعديهن من الكهنة يعتبرون وزراء للجنوب .

على الرغم من أن لكل فرد هناك مطلق الحرية في تغيير مهنته كما
يطلب له .

وعلى النقيض من ذلك نجد أنه إذا ما احترف شخص ما مهنة
معينة استحال عليه احتراف مهنة أخرى غيرها . وان السهولة
الطبيعية التي كان يتعلم بها الابن حرفة والده جعلت كل جيل من
الأبناء يتب على حرف الآباء ثم يعلمها بدوره لأبنائه . وهكذا تنتقل
الحرفة بين أفراد الأسرة على مدى الأجيال ، ومن أجل ذلك فإن
الأثر الذي استقر في نفوس الاغريق عندما اختلطوا بهذا المجتمع
أن بنيانه قام على نظام وراثي .

تقسيم الأراضي طبقا لنظام الطبقات

وقد لحظ الاغريق أن كلا من الطبقات الثلاث المؤلفة من
الكهنة والجنود والمزارعين يمتلك أنصبة متساوية من الأراضي
الزراعية . ويروي المؤرخ « استرابون (١) » أن هذه المساواة لم
تكن مراعاة في مصر كلها بوجه عام فحسب ، ولكنها كانت مراعاة
في كل منطقة على حدة . وان تقسيم أراضي كل مقاطعة الى ثلاثة
أنواع من الملكيات طبقا لما رواه استرابون وغيره من الكتاب الاغريق

(١) استرابون جغرافي ومؤرخ روماني زار مصر حوالي عام ٢٥ ق.م بعد
الفتح الروماني لها . وظل بها خمس سنوات وألف عنها كتابا رائعا وصف فيه
خطتها وأورد بعض الاشارات عن تاريخها . وأهم ما جاء في كتاب استرابون وصفه
الدقيق المفصل لمدينة الاسكندرية .

يشبه ما ذكرته النصوص المصرية القديمة (١) من تقسيم كل مقاطعة
هي مصر ثلاث فئات :

١ - الحقول التي نفع على جوانب القنواب والترع وضفاف
النيل .

٢ - الأراضي العامة أو المتوسطة الموقع .

٣ - الأراضي الممتدة على مفربه من حدود الصحراء وكانت عادة
أكثر انخفاضاً من أراضي القسمين الآخرين ويعيها وجود
بعض المناقع والبرك فيها .

ولتفصيل ما أجمعنا نجد أن الأراضي المتوسطة الموقع هي
التي اختص بها الآلهة . فقد كانت في نصف مجموع مقاطعات
الدلتا مخصصة للآلهة « رع » و « حورس » و « آمون »

(١) أهم هذه النصوص ماورد على جوسق الملك «سوسرت الثالث» في
الأصغر . إذ دونت عليه جميع المقاطعات على هيئة قائمتين احدهما تشمل
مقاطعات الوجه البحري والثانية تحتوي على مقاطعات الوجه العلى . ويذكر
القائمة اسم المقاطعة مستدته من أسوان التي تعتبر في نظر المصريين المقاطعة الأولى
ثم اسم الآله الذي يعبد فيها واسم العاصمة ، ثم مساحة الأراضي المنزرعة التي
تحتويها المقاطعة . هذا وكان عدد مقاطعات الوجه القبلي ٢٢ والوجه البحري
٢٠ مقاطعة .

و « حابى (١) » و « سبك (٢) » و « بنو (٣) » .

وكان يطلق على هذه الأراضى اسم « الحقول المقدسة » ومن الواضح أن الكهنة هم الذين استأثروا بتلك الحقول . على أنه لم يرد فى تلك السجلات القديمة عند الكلام عن القسمين الآخرين من الأراضى الزراعية ما يتبين منه أنهما خصصا لرجال الجيش أو المزارعين . وإذا اعتمدنا على الافتراض والاجتهاد فانه يبدو جائزا أن الجند وقتئذ استحوذوا على الأراضى الزراعية المتاخمة للصحراء . وذلك لصد غارات البدو وأداء التدريبات العسكرية اللازمة والانتقال فى سهولة ويسر عبر الطريق الصحراوية فى أى وقت من السنة ومهما يكن . من الأمر فالظاهر أن تقسيم الأراضى بين طبقات الشعب طبقا للسجلات القديمة يمكن أن يتمشى بوجه عام مع التقسيم الذى ذكره استرابون وغيره من المؤرخين .

ولنفحص الآن مسألة « تملك طبقة ما من المجتمع لمساحة

معينة من الأراضى » .

(١) «حابى» اله النيل وكان يمثل على هيئة عجل .

(٢) «سبك» اله الفيوم فى الاصل وكان رمزه السمحاق وقد انتشرت عبادة فى كثير من جهات القطر .

(٣) « بنو » Benu : أحد آلهة الشمس وكان يمثل فى شكله طائر ويبدو أن كهان مدينة هليوبوليس فى فجر التاريخ المصرى كانوا يشاهدون هذا الطائر يحط كثيرا على شجرة فى معبد الشمس فربطوا بينه وبين عبادة الشمس .

لقد كان عيد الأرض يؤدون كافة الأعمال الزراعية في الأراضي المخصصة للكهنه وكانت معفاة من الضرائب • وكان يعمل فيها عدد من الأفراد مساو لعدد الأفراد الذين يعملون في أراضي القسمين الآخرين • غير أن محصول « الحقول المقدسة » كان يستحوذ عليه ويستأثر به طبقة رجال الدين • وكانت تلك الحقول فريه الشبه بالأراضي الموقوفة على الأديرة في العهد المسيحي والتي كانت تتضمن شروط التنازل عنها بطريق الهبة للمصرف منها على بعض أبواب الخير كنفقات التعليم وتقديم المنح تشجيا للشباب على مواصلة التعليم في الجامعات بالإضافة الى الأنفاق على نواح أخرى متعددة من الخدمات الاجتماعية •

أما فيما يختص بالأراضي التي كانت في حوزة رجال الجيش فقد بلغ عدد الجند في عهد « رمسيس الثاني » ستمائة وخمسين ألفا من الرجال كما رواه « ديودورس » ولعل هذا التقدير في جملته مقبولا • ذلك أن عدد سكان مصر وقتئذ قدر بحوالى اثني عشر مليوناً • وعلى هذا تكون ثلث مساحة أراضي مصر وهي المخصصة للجند بها أربعة ملايين نسمة • فإذا كان نصفهم من الرجال وكانت سن التجنيد بين العشرين والستين • وإذا استبعدنا من هذا العدد من مات قبل أن يبلغ سن التجنيد • كان عدد الجيش المصري الذي صوره « ديودورس » في روايته معناه أن الأراضي المخصصة للجيش لم تكن في حاجة الى استخدام عيد الأرض والأرقاء •

اذ كان ينهض بالعمل فيها فى أثناء الحرب الكهول والنساء والغلمان •
على أنه اذا فرض أن تعداد الجيش بلغ أربعائة ألف جندى كما
كان الشأن فى عهد الأسرة السادسة والعشرين أو اذا كان مكونا
من الأرقاء من كافة أنحاء البلاد فربما تطلب الأمر حينئذ
استخدام عبد أو اثنين فى ضيعة من الضياع الكبيرة من الاراضى
المخصصة لرجال الجيش •

بيد أن واقع الأمر يحتمل أن يكون أمرا وسطا بين الاحتمالين
السابقين •

والظاهر أن رجال الجيش ممن كانوا يملكون أرضا زراعية
لم يكن فى استطاعتهم الحصول الا على قدر محدود من معونة عبيد
الأرض • فكان لذلك لزاما عليهم أن يقوموا هم أنفسهم بخدمة
أراضيهم وزراعتها •

أما الطبقة الثالثة وهى « طبقة الفلاحين » فقد كان لها وضع
من حيث امتلاك الأرض أو استئجارها يختلف عن وضع طائفة
عبيد الأرض (١) الذين كانوا يعملون تحت امرة الطبقتين
الأخريين •

(١) استخدم المؤلف كلمة Serf (عبيد الأرض) التى كانت تطلق على
العمال الزراعيين فى اقطاعات العصور الوسطى فى أوروبا للدلالة على الاجراء
الذين كانوا يعملون فى الاراضى فى مصر • ولكن هذه الكلمة لا تدل تماما على الحالة
الاجتماعية لهؤلاء الاجراء لانهم لم يكونوا عبيدا أو رقيقا ذلك أن الرق فى جميع
عصور التاريخ الفرعونى لم يتناول أى طائفة من أهالى البلاد • وانما اقتصر على
الاسرى الاجانب فقط

• • • • •

= والواقع أن مركز هؤلاء الأجراء كان يتغير على مدى المصور بتغير النظم السياسية والاجتماعية السائدة في البلاد . ففي الدولة القديمة انضى بعض العلماء بأن عبيد الأرض كانوا يعتبرون ضمن الأملاك الخاصة بصاحب الأرض تنتقل ملكيتهم بانتقال ملكية الأرض التي يعملون فيها . واستندوا في ذلك على وثيقتين احدهما وردت في مقبرة أحد كبار موظفي الدولة في عهد الأسرة الرابعة المدعو «متن» جاء فيها أنه خلف لأولاده ضيعة من الأراضي ومعها «الأنفار» والمواشي وجاء فيها أيضا أن والد متن ترك لابننه أمواله التي كانت تتكون من «أنفار» و « مواشى » .

والوثيقة الأخرى سند صادر من أحد أفراد حاشية الملك «حفرع» ورد فيها أن هذا العظيم جعل أمواله من أرض و «أنفار» للمؤسسة (أى الأرض والأشياء الموقوفة على مقبرته) التي ذكرها السند . وأن هذا كله أصبح مما لايجوز التصرف فيه . وهذا معناه أن العمال أو الزراع من الأنفار نطلق عليهم التصرف كما ينطبق على الأشياء سواء بسواء .

ولكن يرد العلماء المعارضون على هذا بقولهم ان هذه النصوص لاتعبد حتما أن العمال أو الزراع يعتبرون من الأرقاء . فالعامل أو الزارع وفقا لهذا الرأي لم تنتقل ملكيته من شخص الى آخر (من «متن» الى اولاده مثلا) . وكل ماها تلك أن العقد الذى يربط العامل أو الزارع بمالك الأرض يعطى حقا شخصيا لهسدا المالك قبل العامل . ولهذا المالك اذا شاء أن ينقل حقه الشخصى هذا الى من يشاء فيكون المالك الجديد قد حل محل المالك الاصلى في هذا الحق . اى أن المسألة هى مجرد انتقال للذمة لا انتقال للملكية . ويؤيد هؤلاء العلماء حججهم بأن جموع الناس في ذلك العصر كانوا احرارا . كما ورد في مرسوم «دهشور» بأن «المهمل الزراعى لايعمل الا ساعات معينة بالنهاى . وكما ورد فى مرسوم آخر للملك «بيبى» الاول بأن العامل كان يعمل بأجر . وهذا كله دليل على أن العامل الزراعى لم يكن مملوكا لصاحب الأرض .

ولكن في أواخر عهد الدولة القديمة وفي الدولة الوسطى ازداد نفوذ الاشراف في الأقاليم وكونوا اقطاعيات كبيرة حتى انتهى الأمر بهم الى أن يصحوا حكاما حقيقيين في اقاليمهم . وتبعاً لذلك فقد الزراع الكثير من حريتهم وأصبح الملاك يتماقدون معهم على البقاء في الأرض هم وأولادهم من بعدهم . وتطور الأمر بأن أصبح ذلك الأمر وراثى ينتقل من الشخص الى ولده ثم الى حفيده بلا قيد ولا شرط . فكان الزراع ملازما للأرض لانتقل منها الى غيرها ولايخرجه المالك =

فقد كانوا مزارعين أحرارا من صميم أفراد الشعب
يكونوا خاضعين الا لأداء الضرائب أو الايجارات المقررة .
أنهم كانوا يمتلكون الأراضي المجاورة لصفاف النبل و-
الترع . وقد أتاح لهم موقع أرضهم الاستفادة بفترة أطول ل
الزراعي وذلك أنه كان في استطاعتهم استغلالها في كل حين
بلغت حالة فيضان النيل من الانخفاض .

أما الطوائف الأخرى التي ورد ذكرها في كتب مؤ
الاغريق فهم رعاة الأغنام ورعاة الخنازير والصيدون واله
المهرة والتجار وربانة السفن . ولم يكن أحد من هؤلاء
أرضا زراعية . وكانت الطوائف الثلاث الأولى وهم رعاة
وزعاة الخنازير والصيدون تقتصر أعمالهم على مجرد التقا
الأراضي القاحلة الحالية من السكان طلبا للكلا سبائمتهم .
وقد استقينا هذه الحقائق عن طبقات الشعب المصري

منها أبدا . فأصبح بذلك تابعا للأرض . ولأدل على شدة ارتباط
بالأرض في ذلك العهد من أن الكلمة الميروغليغية الدالة على الضعة (زد
نفس الكلمة التي تطلق على الزراع . ولكن ليس في هذا كله ما يدل على
الاسترقاق . فلم تكن للمالك ولاية على شخص الأجير أو الزارع . ولم تكن
بينهما علاقة السيد بالسود بل علاقة التابع بالنبوع . وعلى ذلك أصبح
الزراع نصف أحرار .

وفي عهد الدولة الحديثة اضمحل هذا النظام وتحرر العمال الزراعي
نظام النبعية . ولكن عادت الحال في العصر المتأخر الى ما كانت عليه في
الوسطى مع فارق واحد هو أن الاقطاعيين الاسياد أصبحوا من الكهنة وا
المرتزة بدلا من أمراء الأقاليم .

من المؤرخين المتأخرين (١) ولكننا عرنا على نص مصري فى مدينة
أسىوط يرجع الى بداية الأسرة الثانية عشرة يذكر شيئاً عن نظام
هذه الطبقات يختلف عما ذكره هؤلاء المؤرخون . قبدأ النص بذكر
الملك وموظفيه ، ثم يذكر طبقتين فقط . يسمى احدهما « الرجل
الصغير » وفلاحه أو أجراه (العبد) أما الرجل الصغير فيقصد
به طبقة صغار الملاك من المزارعين وهم الذين يمتلكون مساحات
كافية من الأراضى تمكنهم من التبرع بهبات عقارية للمعابد على حين
تمثل طبقة الفلاحين أحط طبقات المجتمع ، ولا يملك أفرادها شيئاً
وهى تعادل الطبقة الثالثة التى يشير إليها المؤرخون . هذا ولم يذكر
هذا النص شيئاً عن طبقة رجال الدين أو الجيش ولعل السبب فى
ذلك أن رجال الجيش فى العصر الذى دون فيه هذا النص
(عصر الأسرة ١٢) لم يكونوا قد أصبحوا طبقة منفصلة ، نظراً لأن
الملوك كانوا يعتمدون فى حروبهم على تعبئة أفراد الشعب (٢) ثم
يسرحونهم بعد انتهاء القتال فيعودون الى حرفهم الأصلية .

(١) المفصود بالكتاب المتأخرين هنا كتاب الاغرى والرومان ويعرفون أيضاً

بالمؤرخين الكلاسيكيين .

(٢) كانت مهنة الجندى من المهن غير المرغوب فيها فى عهد الدولتين القديمة
والوسطى . ردليل ذلك وثيقة من ذلك العهد كتبها أحد الحكماء يوصى أبته
بالانخراط فى وظيفة الكتابة والهد عن مهنة الجندية والسبب فى ذلك يرجع الى
عدم وجود جيش موحد ثابت ولكن فى عهد الدولة الحديثة تغير الحال بعد أن
أصبح لمصر امبراطورية واسعة اذ أصبح لمهنة الجندية المكان الأول بين وظائف
الدولة وأغدق الفراعنة على جنودهم وضباطهم الرتب والنياشين والانطاعيات .
فصار الجيش طبقة منفصلة بين طبقات الشعب .

السيد الكبير فى القرية

ويظهر أن النظام الأساسى للمجتمع فى الدولة فى العصور الغابرة قد استمر كما هو دون تعديل أو تغيير (١) . فكان السيد الكبير فى القرية يمتلك ما بين المائة والألف فدان وكان قصره مركز النشاط الاقتصادى والاجتماعى للقرية . وكان خدمه وحاشيته يؤدون وظائف رجال الشرطة ويقبضون على المستضعفين من المذنبين ويسوقونهم قسرا فى المساء للمثول بين يدي ذلك السيد الأمر التامى . فكان يستمع الى شكايات المعتدى عليهم ودفاع المتهمين ثم يوقع الغرامات المناسبة . وقد يتقدم الحاضرون يلتمسون استعمال الرأفة ويؤكدون عدم قدرة المحكوم عليهم على أداء الغرامات المطلوبة منهم . وهنا قد يعبد السيد الكبير النظر فيها فينقصها ويفسح بعض الوقت أمام المخالفين لتدبير الغرامات المقررة عليهم .

وقد كان قصر السيد الكبير بمثابة منتدى يقصده الأصدقاء والحلان بنشدون فيه الاستجمام والمتعة فى كل وقت من الأوقات . فكنت تراهم ماين متجول فى رحابه الفسيحة أو جالس على أرائكه

(١) يقصد المؤلف بهذا كبار الملاك وكان كثير منهم حتى ما قبل ثورة سنة ١٩٥٢ يشغلون منصب العمدة . ويلاحظ أن كتاب المؤلف يرجع الى عام ١٩٢٢ . قد أعيد طبعه سنة ١٩٣٢ .

الممدودة يتسامرون ويحتسون كؤوس النيذ بين الفينة والفينة ،
ثم يستأنفون حياة اللهو والتسلية ، وسواء أكان سيد القصر غائبا
عنه أم مشغولا بأموره الخاصة فان ذلك لا يغير من الأمر شيئا بالنسبة
لهؤلاء السادة .

وان على السيد الكبير بعض التبعات تجاه السلطات الحاكمة ،
فقد كان يبلغ عن الجنايات الخطيرة ، ويحتفظ بسجل فيه أسماء
المواليد من الذكور لاستدعائهم للتجنيد وقت الحاجة . وكان عليه
أن يتأكد من أن مسجل الأراضى ومسجل الايجارات يؤديان
واجباتهما وأنهما يعملان على حفظ الأمن والنظام عامة وعلى تحقيق
مآربه الشخصية بوجه خاص . ولقد كانت الفرص له مواتية فإذا
كان قضا غليظ القلب أسيراً لحمقه ونزقه أرهق الأهلين بظلمه
وابتزاز أموالهم ، واذا كان حصيفا طيب القلب رقيقا بالناس استفاد
من التذبذب الطبيعي للأسعار طول العام ، اذ يبيع القلاح عادة
محصوله بثمان بخس عقب الحصاد مباشرة ، ويستطيع ذلك الحازم
الحصيف أن يشتري فائض منطقة من المناطق ويخترنها . ومع ذلك
ينظر اليه الناس نظرتهم الى المحسن المنقذ من الكرب والضيق .

ومن أقوال بعضهم :

ولقد قدمت الخبز لكل جائع وكسوت العارى . ولم اغتصب

شيئا من ملك الغير . ولم أنطق الا بالحق ولم أتحدث الا بالخير
ولم أبرو الا صدقا وما خشى اسان على نفسه فى منطقتى ممن هو
أقوى منه حولا أو أعز نفرا (١) . وقد يقول كثير من الأغنياء الآن
فى طول البلاد وعرضها هذه الأقوال وأمثالها كما كان يقول
أضرابهم منذ نحو خمسين قرنا .

وللمحافظة على هذا المستوى الرفيع من العدل والانصاف
فلابد من سيطرة يقظة نشيطة كان يقوم بها حاكم الاقليم فى الماضى
ويقوم بها المدير فى الوقت الحاضر وبدون ذلك يصبح ما ذكر
من بر واحسان استثناء لا قاعدة . فالجيش واغتصاب الأملاك وابتزاز
الأموال كانت الأمور الشائعة فى كل العصور .

ان الاستقامة أصبحت منبوذة والظلم يضرب أطنابه فى
المجلس (Council) (٢) . ان القوم جميعا يسلكون طريق
الخطايا والذنوب . ولم يعد للاحترام المتبادل بين الناس من أثر فى
الحياة ، بل ولم يبق للرجل الفقير من حول يدفع به عن نفسه ظلم
من هم أقوى منه بأسا ، وان من ينتقد قولا يفقد صديقا ويكسب

(١) ردد ذلك القول أمراء الاقطاع فى أواخر الدولة القديمة وفى الدولة
الوسطى من باب المباهاة والتفاخر ووجدت هذه العبارات منقوشة على مقابرهم
فى أسوان وبنى حسن (بالقرب من المنيا) .

(٢) كان فى عاصمة كل مقاطعة مجلس Council يسميه المصريون
(ازادات) موكل اليه الأمور القضائية .

عدوا لأن القلوب أصبحت لا تقبل الصدق (١) (B.D.R.) وهذا ما كان يحدث في مصر حتى عهد قريب (٢) .

ومن العيب أن تحمل كبار الملاك في القرى تبعه ذلك العيب وذلك أنه لو أتيح للفلاح العادي فرصة الاستحواذ على النفوذ والقوة والسيطرة لعامل الناس نفس المعاملة . ولهذا فإن الأمر يستوجب هيمنة قوية من جانب الحكومة على شئون البلاد كي يتحقق الأمن وتزدهر أحوال الشعب وهذا ما حدث في عهود « خوفو » و « أمنحات » و « أمنحتب » .

طائفة الموظفين

وقد تعددت ألقاب الموظفين بدرجة عجيبة في عهد الدولة

(١) ردد هذه التأملات الحزينة الكاهن « خع - خبز - رع - سنپ » الذي كان كاهنا لاله الشمس في مدينة هليوبوليس في عهد الملك سنوسرت الثاني زمن الأسرة الثانية عشرة . وقد ظلت هذه التأملات تردد لمدة أربعمائة عام حين دونها أحد الكتبة في عهد الأسرة الثامنة عشرة على لوح يوجد الآن بالمتحف البريطانى . ولعل هذا الرأى لا يعبر عن الواقع لأن مصر في ذلك العصر كانت في أزهى عصورها . ولعله يعبر عن رأى متزمت .

(٢) لقد تغير كل ذلك الآن بعد ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ فتلاشت طبقة كبار الملاك الاقطاعيين التي يتحدث عنها المؤلف . وأصبح كل مواطن يشعر بمسئوليته وكيانه في المجتمع . وربطت القومية بين جميع المواطنين برباط متين ، ولذلك لم يعد الخوف من السلطة الحاكمة هو الوازع الوحيد بل هناك دوافع أخرى نابعة من النفوس .

القديمة . حتى أنه كان من النادر النور على مذبذبة دون مشاهدة صفوف طويلة من ألقاب صاحبها مدوتة على جدرانها (أ) وقد اتسع نطاق هذه الظاهرة الغربية حتى بلغت ذروتها في عهد الأسرة

(أ) يرجع تعدد ألقاب الموظفين في مصر القديمة الى عدة أسباب منها :

(أ) كان الموظفون شديدي الولع بالألقاب . وكانوا ينشئون لقبا خاصا لكل عمل من أعمالهم القضائية أو الادارية . فاذا لرم مثلا أن يتفلقوا الأوامر الملكية الى منطقتهم لقبوا أنفسهم «المستشار للأوامر الملكية» . وعندما كانت واجباتهم تقتضيهم أن يديروا الاشغال العامة كانوا يسمون أنفسهم ، «المشرفون على اشغال الملك» و «المشرفون على المهام الملكية» فاذا جمعوا خرائط العلال والمائمية في دوائرهم الادارية أو أشرفوا على الجيش الاقليمي حملوا لقب «المشرف على بيوت الصحة والتموين» أو «المشرف على ديوان الاسلحة» .

فاذا كان لهم مكتب يضم الكتبة المتصلين بعملهم حملوا لقب «المشرف على الكتبة» .

(ب) كان هؤلاء الموظفون يكتبون الغايبم الصغيرة الى جانب الألقاب الكبيرة . ولذلك يجد الانسان في قائمة ألقاب الموظف الواحد تمايزا كبيرا بين لقب صغير جدا « كاتب المئونة » وبين الألقاب الكبيرة .

(ج) بمرور الزمن أصبح كثير من الألقاب لحرية ولاندل على ممارسة الموظف فعلا للاختصاص الذي يخوله له اللقب . وكان الموظفون يكتبون هذه الألقاب لمجرد الشرف . ومثال ذلك لقب «المقرب من الملك» و «الساكن بمسد الملك» وهكذا ...

(د) كانت الوظيفة الواحدة معددة الاختصاص وهذا بديهي لانه في ذلك الزمن السعيد لم يكن المجتمع قد بلغ تعقيده الحالي . ولما كان لكل فاحية اختصاص لقب ، فقد تعددت ألقاب الموظف .

(هـ) في أواخر عهد الدولة القديمة ضعف الملوك فصاروا يتفلقون الألقاب على كبار الموظفين وحكام المقاطعات بشرف حساب .

السادسة • فقد دون « ابيى » على مقبرته فى دير الجبراوى (١)
الألقاب الآتية :

فى البروتوكول : « الأمير الورائى » و « الذى يلى الملك فى المكائنة »
وفى البلاط الملكى : « حامل أختام الملك » و « المشرف على
القصر الملكى » و « المكلف بخدمة العرش » و « رئيس
الحجاب » و « المشرف على خزائن الثياب » و « كاتم السر » •
فى القضاء : « رئيس القضاة » و « كاتب سجلات المعابد » •
فى الدين : « رئيس المرتلين للتعاويد والأسرار » و « الكاهن المكلف
بتقديم القرابين » و « مدير الخدمات والطقوس الدينيّة
و « كاهن أحد الأهرام » •

فى الأقاليم : « حاكم المقاطعتين » و « المشرف على صوامع الغلال
ومناقع طيور الصيد وخزائن المال وشئون اقليم الجنوب » وهو
أيضا « حامى حمى عاصمة الجنوب وقلعتها فى الكاب (٢) » •

(١) الأمير «ابىى» حاكم مقاطعة طينة (فى مديرية جرجا) فى الأسرة السادسة
ومقبرته فى دير الجبراوى شرق النيل فى مواجهة منفلوط وكان ابنا للأمير «راو»
صهر الملك «ببى» الأول .

(٢) «الكاب» مدينة «نخب» القديمة وتوجد اطلالها شمال «أدفو» بقليل
شرق النيل . وكانت عاصمة الصعيد قبل توحيد القطرين على يد الملك «ميناء» .
وكان بها قلعة ضخمة . ولعل ذكر «ابىى» لهذا اللقب يشير الى ذكرى العهد
«البعيد» عندما لم تكن حدود الدولة المصرية تتعدى هذه المدينة مما استدعى انشاء
قلعة لصمايتها من هجمات النوبيين . اما وقد امتدت املاك الدولة الى ما وراء
حدود «أسوان» فقد أصبح لقب «حامى عاصمة الجنوب وقلعتها فى الكاب» من
القاب الشرف فقط .

وهذه الألقاب وغيرها تصل الى الأربعين منصبا كان يتقلدها رجل واحد ، وكانت كلها أو بعضها تأتي بايراد طيب له •

لقد كان عدد الخدم الذين يحتفظ بهم كبار الملاك عظيما • وكانت حاشية كل أمير من أمراء « بنى حسن » (١) تنقسم الى أربع فئات : الخدم الخاصون وخدم القصر وخدم الضياع ثم الموظفون • ونذكر فيما يلي عدد رجال الحاشية والخدم لكل من الأمير « امونمحات » والأمير « حنوم حتب » على التوالى :

أولا : الخدم الخاصون :

كتبة ٥ - ٥ وحملة أختام ٢ - ٤ وناقل أخبار - ورئيس خدم وخدام شخصى وخدام لنشر الحصار أمام الأمير ونديم ووصيفة وأتباع ٤ - ١ •

ثانيا : خدم البيت :

مشرفون على الجناح الخاص لصاحب القصر ١ - ٢ ومدير للمستودعات والمخازن وأمناء للقصر ٣ - ٥ وكتبة للتمين والمبادلة ٢ - ١ وكاتب لشئون الأغذية وأمين للمطبخ وأمين لأشياء أخرى ومستوردون لحاجات القصر ١ - ٣ وساقى

(١) « بنى حسن » قرية فى مديرية المنيا بها مقابر صخرية لحكام هذا الأقليم فى عهد الدولة الوسطى أهمهم «أمونمحات» و «حنوم حوتتب» وكان هؤلاء الحكام يمثلون الطبقة الاقطاعية فى البلاد اذ كانوا شبه مستقلين فى أقاليمهم •

وخبازون ٢ ومشرف على المغاسل ومشرفات على شئون
القصر ٧ - ٥ *

ثالثا : مستخدمو الضياع :

مشرفون على محاصيل الضياع ٥ - ٤ ومشرف على قطعان
الماشية ورعاة ٤ - ٤ ومشرف على كل ألف رأس من
الماشية وراعى حمر وراعى غزلان ومشرفون على مصايد
السماك ٣ - ٣ ومشرف على قطعان الماعز ٢ - ٢ ومدير
لمكاتب الضياع ومشرفون على التجارين والنساجين وبستانيون
ومشرفون على الطعام المحفوظ *

رابعا : الموظفون الرسميون المشرفون على الأعمال العامة :

حاكم القلعة وقائد عام لجيش الأمير ومسجلون حكوميون
للاشراف على تحصيل الضرائب المستحقة ٢ - ٢ ومراقبون
للمشئون المنزلية ٣ - ومراقبون للخزانة ٢ - ورئيس
محكمة وقائد للشرطة وقائد للجنود ومحاسبون ٣ ومشرفون
على شئون المقاطعة ٣ ومشرفون على شئون الصحراء ٢
ومشرفون على الترع ومشرف على الصيادين * لأن الأمير
« خنوم حتب » كان صيادا ماهرا وكثيرا ماجاب أطراف
الصحراء طلبا للصيد والقنص بالشباك *

ولعل هذه القائمة تعطينا فكرة عن ذلك الجهاز الضخم من الموظفين والخدم الذين كانوا يساعدون الأمير في الخدمات العامة أو يقومون بخدمته الخاصة . وعلى الرغم من أنه لا يرد ذكر لتلك الوظائف جميعا في المقبرتين فليس ضروريا أن نستنتج من ذلك أنها غير موجودة في أحدهما لعدم ذكرها فيها .

ان كثرة عدد حمله الأختام انما يرجع الى أن الإيرادات والضرائب كانت ترد في مفادير صغيرة وكانت عينية . ولم تكن تدفع نقدا دفعة واحدة . ومن ثم كانت الصكوك المختومة تسلم الى أربابها طوال اليوم في مقابل الغلات الواردة أو المنصرفة .

الحياة في المدن

وإذا انتقلنا لدراسة المناصب الإدارية الأقل درجة (من درجة أمير مقاطعه) فإنه يروى أنه كان في كل مدينة من المدن (مفسر للقانون) . ولم يكن يشغل وظيفة القاضي بمعناها المعروف لنا الآن ولكنه كان حاكما ينظم أمور المدينة طبقا للقانون ويشرف على امداد المدينة بكل ما تحتاج اليه وكان موضع احترام القوم واجلالهم . وكان يرتدى الزي الرسمي القرمزي . ويليه في الأهمية الكاتب أو « مسجل الوثائق الرسمية » ثم « قاضي القضاة » ثم « قائد عسس الليل » . وعلى الرغم من أن استرابون قد ذكر كل هذه الوظائف فإنه يبدو أنها من بقايا نظم قديمة . وكان يحرم تحريما باتا على أهل

المدن من الصناع المهرة تغيير حرفتهم + فقد أخذ القوم بالنظرية. القائلة : ان خير سبيل لبلوغ غاية الكفاية هو التفرغ للمهنة يرثها الانسان أبا عن جد ، بيد أن وراء الأخذ بتلك النظرية كان يكمن دافع آخر بأن هؤلاء الصناع ينبغي ألا يتدخلوا في الشؤون المدنية العامة . وهذه الحقيقة أيضا وان كانت قد عرفت أيام « اسنرابون » فمن الواضح أنها تمثل نظاما كان معمولا به في العصور السابقة بغية ابقاء السلطة السياسية في أيدي الموظفين دون سواهم . وان ذلك يوائم الفكرة القديمة ألا وهي احتقار أهل الريف الأمر الذي اتخذته الفنانون في تلك العصور مادة للسخرية في الرسوم الهزلية التي تتجلى على القبور . والى عهد قريب كانت طبقة الموظفين حتى أصغر كاتب ترمى في الفلاح لقمة سائفة سهلة الازدراء ، وأن لا جناح عليهم أن يوقعوا عليه كل حيف أو أذى « لأنه مجرد فلاح (١) » . ومع أنه كان هناك طائفة كبيرة العدد من المزارعين الأحرار ، الا أن الأعمال التي كانت تتطلب مهارة وحنذا كان قد تخصص فيها صناع مدربون في دوائر النبلاء . ولم يكن في البلاد طبقة متوسطة كبيرة العدد حتى ينشط الطلب والاقبال على السلع والحاجات . وكان النيل وآل بيته يسدون حاجتهم ويحصلون على الأشغال الفنية من مقاطعته . أما الفلاح فلم يك يشتري كما هو الحال اليوم الا الضروري من الحاجات ولم يكن في البلاد طبقة من

(١) أصبح كل ذلك في ذمة التاريخ بعد ان ردت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

للفلاح اعتباره وكرامته .

التجار الأثرياء لأن تجارة البلاد الداخلية كانت في تلك العصور
ضئيلة ، أما التجارة الخارجية فمن المحتمل أنها كانت في أيد
أجنبية ، ولذلك كانت فرص النجاح محدودة في وجه الصانع
الماهر الذي يبغى الاشتغال بالأعمال الحرة . ولم تكن طبقة الموظفين
كبيرة العدد في الأزمنة الأولى الى أن كان عصر الدولة الحديثة حين
قامت حكومة مركزية قوية يسيرها عدد ضخم من الموظفين يكون
طبقة متوسطة ذات قوة شرائية ذات بال . ونلمح هذا في حجم
بيوت مدينة كاهون (١) في الأسرة الثانية عشرة فقد كان فيها
ثلاثمائة وخمسين منزلا للعمال وصفار الموظفين يتراوح عدد غرف
كل منزل منها ٤ و ٧ غرف وكانت تلك المنازل صغيرة المساحة
في صفوف متراسة مزدحمة . والى جوارها نجد اثني عشر دارا
عظيمة يحتوى كل منها على حوالى ستين غرفة فوق ما بها من أبهاء
فسيحة ذات عمد عالية . والحق أنك لاتجد في تلك المدينة شيئا
وسطا بين ثراء عريض وفقير مدقع . ثم يمر الزمن واذا بنا في
عهد الأسرة الثامنة عشرة حيث كان المسكن العادى في مدينة
« العمارنة » يتألف من منزل مستقل مكون من اثني عشرة غرفة
متوسطة الحجم ويحيط بها فناء فسيح . فالفرق بين مساكن
المواطنين العاديين من أفراد الشعب ومساكن الأثرياء المترفين في عهد

(١) «كاهون» كلمة سرفها فلندرز بترى عن لفظه «اللاهون» وهي بقعة نثرية
بالقرب من القيوم أجرى بها بترى عدة حفائر هامة وقد أخذ المؤرخون الاحانب
عنه هذه الكلمة واستخدموها في كتبهم .

كل من الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثامنة عشرة يشبه الى حد كبير الفرق بين المنازل الفقيرة في حي مصر القديمة بالقاهرة والقيلات الجميلة في ضاحية المعادي • ومن هذا يتبين أن طبقه الصناع الفنيين قد أخذ يظهر لها كيان مستقل • وان سار هذا التغير سيرا بطيئاً وجاء في وقت متأخر نوعاً بالنسبة لتطور المجتمع المصرى • على أن هذه الطبقة رغم هذا لم يكن لها نفوذ في الحياة السياسية في البلاد كما كان للموظفين والكتبة • وقد وجد في المجتمع المصرى منذ أقدم العصور طائفة من التجار الأحرار ، غير أن عددهم كان قليلاً وبلغوا من القوة حداً لم يستطعوا معه أن ينعموا بنفوذ يذكر في شئون الدولة •

والظاهر أن الطبقات الدنيا من العمال غير الفنيين كانوا يعملون جماعات • إذ أتت نجد في عدة حالات النظام الذى كان يقضى بأن كل عشرة لهم رئيس من أنفسهم • وكانت تلك النسبة معمولاً بها بين عمال مناجم سيناء •

وقد وجدنا بين تماثيل الميجيات (الأوشابتي (١)) أن كل

(١) كلمة مصرية قديمة معناها «المجيات» أو التى «تجيب على النداء» أطلقها المصريون القدماء على تماثيل صغيرة من الخشب أو القاشانى على هيئة البومياء كانت توضع في حجر الميت . وقد كثرت هذه التماثيل بدرجة عظيمة في الدولة الحديثة حتى بلغت الآلاف في مقبرة واحدة • وهى تدل على مدى الترفه والذعة التي سادت في مصر أيام ذلك العصر ، ذلك أن المصرى كان يتصور الجنة وان كل من يدخل الجنة مهما علت مرتبته فسوف يعمل في الحقول الأخروية • وليس من شك أن هذا التخيل يرجع الى المصور المبكرة من التاريخ الفرعونى عندما كانت جمهرة الشعب من الفلاحين ، ولكن في الدولة =

عشرة تماثيل عادية لها رئيس يلبس منزرا أو عباءة • وكان رؤساء العمال يستطيعون جلب مئات منهم للعمل في المشروعات الكبيرة •

الأشغال العامة

وكانت هذه الطريقة هي السائدة في جمع عمال المعادن وعمال المقابر • وان تسخير العمال في المشروعات العامة وهو ما يسمى « بالسخرة » كان دائما ظاهرة مألوفة لتنفيذ المشروعات • فقد كان الفيضان يغمر الأرض ويحيط بالقرى فلا يجد الفلاحون عمالا يعملونه • وفي الوقت ذاته كان يهدد الجسور الرئيسية بالانهيار وهي الجسور التي كانت تتوقف على سلامتها حياة البلاد • وقد استوجب الصالح العام تسخير العمال للمحافظة على منشآت الري والجسور وزد على ذلك فان هناك فترة في أوائل الصيف بعد جني المحاصيل من الأرض حوالي شهر ابريل • وهذه الفترة التي تصل الى ثلاثة أشهر (مايو ويونيه ويولية) قبل حلول الفيضان لا يجد العمال الزراعيون في أثنائها أى عمل في معظم الحقول الزراعية •

= الحديثة أصبحت الفكرة عن الجنة بهذه الصورة لا تلائم العصر • فالمصريون قد استنكفوا أن يؤدوا هذه الاعمال الشاقة فوضعوا في مقابرهم تماثيل بغاس لتكون بديلا عنهم تقوم بالعمل الذي سيكلفون به • وزودوا كل تمثال بغاس ووثبيل • وكتبوا عليه العبارة الآتية «أيها الأوشابتي» اذا نودي عليك في الآخرة للقيام بعمل في الحقول بدلا مني فلتقل عندئذ هانذا •

وخلال تلك الفترة تجف الترع والقنوات ولذلك يسخر العمال في هذه الفترة أيضا لتطهير الترع وتعميقها • وإذا فقدت كانت الأعمال الرئيسية الخاصة بشئون الري في البلاد تتطلب العمل فيها في وقت لا يقوم خلاله الفلاح بأى عمل • وبذلك أصبح تشغيل الفلاحين في الخدمة الاجبارية أمرا طبيعيا • والعمل في الجسور والسدود يتطلب تنظيما دقيقا • فمثلا اذا تسرع المزارعون المشتركون في أحد الأحواض الى فتح الجسور في غير الأوقات المناسبة وغمر الحوض بالماء دون تنظيم دقيق فربما ترتب على ذلك اغراق بعض القرى المجاورة ، ولهذا فقد كان وضع نظام دقيق أمرا لا بد منه في كل الحالات • ثم ان المخازن التي تودع فيها المواد المستعملة في تقوية الجسور واصلاحها تتطلب عناية خاصة • وقد شاهدت رجلا يجلد على قدميه لأنه سرق بعض الأخشاب والجمال • وبذلك عرض حياة البلاد للخطر في حالة حدوث ثغرة في أحد الجسور • هذا الى أن طوائف الفلاحين كانت تحتاج الى بعض الرعاية حتى لا يساء استعمال نظام السخرة • فقد يجبر مئات العمال على عمل قد لا يتطلب سوى عشرات قليلة منهم • فاذا انعدم الاشراف وساءت الادارة انحلت عزائم العمال ومالوا الى التسكع وربما لا يجدون ما يكفيهم من الغذاء • وكانت السخرة في العصر الروماني تقتصر على خمسة أيام في السنة •

تسخير الرقيق

وكان استخدام الأرقاء ضيق النطاق في العصور الأولى من تاريخ مصر • وهؤلاء الأرقاء غير عبيد الأرض الذين كانوا مرتبطين بالمزارع التي يعملون فيها • ولهم هناك مساكنهم الخاصة ولا يجوز التصرف فيهم بالبيع •

وفي عهد الأسرة الثانية عشرة كان من الممكن تأجير الرقيق وأسرته لأداء بعض الأعمال ، ولكن ليس هناك دليل واحد على التصرف فيهم بالبيع والشراء •

على أن الأمر كان يختلف فيما يتعلق بأسرى الحرب إذ كان تقل ملكيتهم من الأمور المقررة سواء أكان ذلك بأمر الملك أم عن طريق البيع • بيد أننا لم نغز إطلاقاً على أى دليل على وجود أرقاء من الزوج في عهد الأسرة الثانية عشرة • أما في عهد تحتمس الثالث فلم يتعد مجموع عدد الأسرى الذين وقعوا في قبضته خلال عشرين عاماً من حروبه عشرة آلاف أسير • وهو رقم لا يسهم بمقدار يذكر في تعداد سكان مصر • ومع ذلك فقد كان هؤلاء الأسرى من الصناعات المهرة والنساء الممتازات • ولذلك صار لهم قيمة بعد تفوذ واسع على الطبقات الحاكمة في البلاد • ولقد مرت الحقبة الباقية من عصر الأسرة الثامنة عشرة بعد تحتمس الثالث دون قيام حروب كثيرة • ولهذا كان من المحتمل الا يزيد عدد الأرقاء العاملين الا قليلاً • مع العلم أنه من الجائز أن الأرقاء الذين جرى

بهم قبل ذلك الى البلاد من الخارج قد اندمجوا في المصريين خلال بضعة أجيال . هذا ويبدو أن رمسيس الثانى خلال حروبه المتواصلة لم يجلب معه سوى عدد قليل من الأسرى . وقد استهلت الأسرة العشرون عهدها بالحصول على عدد كبير من الأرقاء اسرهم رمسيس الثالث . وهو الذى وهب لخدمة المعابد وحدها ١١٣٤٣٣ أسيرا فى الفترة التى قضاها فى حكم البلاد . ولاشك أن الجانب الأعظم من هؤلاء الأرقاء أسرهم هذا الفرعون عندما قضى على الهجمات المسلحة التى قامت بها الشعوب المهاجرة القادمة من الغرب ومن الشام . ويحتمل أن أعدادا أخرى من هؤلاء الأسرى استخدموا فى المشروعات الحكومية أو وزعوا على رجال الجيش والموظفين . ولذلك لا نكون مبالغين اذا افترضنا أن عدد الأسرى الذين دخلوا مصر فى عهد ذلك الملك قد بلغ ربع مليون أسير . وهو ما كان يعادل ١٠٪ من عدد السكان العاملين فى البلاد بيد أن الجانب الأكبر من هؤلاء الأسرى كانوا يؤدون أعمالا غير منتجة . ولذلك وقع عبء اطعامهم على كاهل بقية سكان البلاد .

ان كافة المواد الغذائية التى كانت تقدم قرابين للمعابد فى شتى أنحاء الدولة ما كانت لتفى بسد حاجات هؤلاء الأسرى لمدة تزيد على سدس المدة التى قضاها رمسيس الثالث فى حكم البلاد . وكان هناك نوع غريب من الاسترقاق فى عهد الأسرة السادسة والعشرين وهو نظام الاسترقاق بمقتضى عقود معترف بها . فقد كان الرجل

يوافق على أن يتعاقد مع آخر على أن يكون كرقيق له مدى الحياة لقاء دين عليه أو لقاء أجر لعلاج من مرض ألم به • وكان هذا الرقيق يتنازل عن كافة ممتلكاته بل عن أطفاله حينذاك ومن سيولد له في المستقبل • وإذا كان هذا النوع من العقود قد عمل به في عهد ازدهار الحياة في مصر فالراجح أنه كان شائعا في عصور الشدة والضييق • وقد حدث في إحدى غزوات الامبراطور أغسطس ضد أثيوبيا (١) أن وقع عدد كبير من الاثيوبيين في الأسر فأحتفظ الامبراطور بألف أسير منهم ليكونوا ملكا ليمينه وبيع الباقي جهارا باعتبارهم من غنائم الحرب •

وخلاصة القول أن تجارة الرقيق في مصر لم تبلغ قط ذلك المبلغ الخطير الشائن الذي بلغته في كل من اليونان وإيطاليا • وذلك لأن نظام العمال الأجراء الذي يبدو أنه كان متبعا في كافة عصور التاريخ في مصر قد جعل أصحاب الضياع الواسعة في غير حاجة الى الأرقاء • ولقد كان نظام تسخير العمال في مصر قد سار في حدود الاعتدال ، وخلا في معظم الأحوال من مظاهر الايذاء والقسوة • ولذلك لم يقف حائلا في سبيل ظهور الكفايات الممتازة بين العمال المسخرين ، ذلك الى أنه جنب البلاد الحراب الذي يجره الرق عادة •

(١) اثيوبيا هي الاسم الذي أطلقه المؤرخون القدماء وخاصة الاغريق على المنطقة الممتدة من وادي حلفا حتى الخرطوم ولا تشمل بلاد الحبشة • وكان المصريون القدماء يطلقون على اثيوبيا هذه «بلاد كوش» (انظر سليم حسن مصر القديمة جزء • (أ ص ٧٧ - ٧٨) •

تنظيم العمل

اننا نجد أوفى بيان للعمل في العصور الأولى في تلك المعلومات والبيانات التي سجلها هيرودوت (١) عن بناء الهرم الأكبر • وعلى الرغم من أنه قد مضى آلاف السنين عليها قبل تدوين هيرودوت لها ، الا أنها تصور ظروف الحياة في تلك العهود الغابرة تصويرا صادقا الى حد يجعلنا نتق في صحة نقلها • انه يذكر أن مائة ألف من العمال كانوا يشتغلون في نقل الأحجار مدة ثلاثة أشهر متتابعة • وهذا يتفق والوضع الطبيعي لامكان الاستفادة من عدد كبير من العمال زمن الفيضان وهو الوقت الذي يظل فيه هؤلاء العمال الزراعيون بلا عمل • هذا الى أن ارتفاع منسوب مياه النيل وقتئذ قد ساعد على نقل الأحجار عبر الوادى بأسره من سفح الهضبة الشرقية الى سطح الهضبة الغربية • ويستطرد هيرودوت فيقول ان هؤلاء العمال قد أمضوا عشر سنوات في انشاء الطريق

(١) هيرودوت مؤرخ يوناني زار مصر حوالي عام ٤٥٠ ق.م وألف عنها كتابا ظل أهم مرجع في تاريخها القديم حتى استطاع علماء الآثار حل رموز اللغة المصرية ومعرفة التاريخ المصرى من كتابات المصريين أنفسهم • وقد وجد أن جزءا كبيرا مما كتبه هيرودوت على جانب من الصواب • ولو أنه نقل كثيرا من المعلومات المشوهة وبالغ فيها لاثارة اهتمام قرائه • وقد سُمى هيرودوت ابا التاريخ لشهرته وذُيوع صيته •

المؤدى الى الموقع الذى أختير لبناء الهرم (١) وفى تمهيد ذلك الموقع وفى حفر المر السفلى والغرفة الملحقة به . ثم كان أن أستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاما . وهذا الزمن الطويل يفيد أن طائفة من ثمانية من العمال (وهو أكبر عدد يمكن استخدامه لنقل كتلة حجر واحدة) كان فى استطاعتها نقل عشر كتل من الأحجار الضخمة من الحجر فى الهضبة الشرقية عبر النيل (٢) ثم على الطرق المرتفعة الممتدة على منحدرات الصحراء الغربية ثم رفعا الى أماكنها فى مبنى الهرم وذلك فى غضون ثلاثة شهور وكان من الممكن أن يتم ذلك متى توفرت أسباب حسن الادارة والتنظيم .

والى اليوم يمكن مشاهدة عدة طرق موازية لذلك الطريق الرئيسى الكبير ممتدة فوق الهضبة . ومن المؤكد أن تلك الطرق الفرعية كانت خلال فترة البناء خاصة بطوائف العمال وقد أخذوا يدفعون أمامهم آلاف الكتل من الصخر كل يوم خلال موسم العمل . ومما لا ريب فيه أن طائفة من البنائين المهرة قد أستخدموا فى بناء الكسوة البديعة المحكمة البناء ، والممرات الداخلية فى ذلك الهرم . ويمكن

(١) هذا الطريق يعرف فى علم الآثار بالطريق الموصل بين المعبدين (Causeway) لأنه بعد اتمام بناء الهرم كان يستخدم للربط بين المعبد الجنازى الملاصق للهرم وبين معبد الوادى القريب من النيل . اذ كان لكل هرم معبدان وطريق . ويمكن مشاهدة بقايا هذا الطريق شرق الهرم الاكبر فى المسافة الممتدة الى قرية نزلة السمان .

(٢) كانت الحجارة تقطع من محاجر طره الواقعة شرق النيل وهذه الحجارة كانت تستخدم فى بناء كسوة الهرم وبعض ممراته الداخلية . أما كتلة الهرم نفسه فقد بنيت من الاحجار المقطوعة من صخر الهضبة القائم عليها الهرم .

مشاهدة التكنات التي خصصت لاقامة هؤلاء البنائين الى اليوم • وهى
تسع لسكنى أربعة آلاف رجل بصفة دائمة • فاذا كان نصف هذا
العدد من البنائين قد تفرغ لانجاز عملية بناء الكسوة الخارجية كان
على كل واحد منهم أن يعد قطعة واحدة من هذه الكسوة اعدادا
دقيقا ويثبتها فى مكانها فى ثلاثة أسابيع أو أن يقوم بذلك العمل
ثلاثة رجال فى مدة أسبوع • وهذا تقدير معقول • ومن الطبيعى
أن تبيت الكتل الحجرية الضخمة فى القاعدة قد أستغرق وقتا أطول
من ذلك بكثير • كما أن تبيت الحجر الواحد فى المداميك الصغيرة
استغرق نصف تلك المدة • ان هذا العمل العظيم وما كان يتطلب
انتجازه من جماعات ضخمة من الرجال كان لا بد له من مهارة فائقة
فى التنظيم • ولولا هذا التنظيم المحكم لوجدنا هؤلاء الرجال قد
تزاحموا فى فوضى واضطراب فى منطقة البناء الضيقة • وقد كتبت
تفاهات كثيرة عن مدى الظلم الفادح الذى وقع على كاهل هؤلاء
العمال وعما أذرفوا من دموع وأطلقوا من أئين • لقد كان الاشراف
على هؤلاء القوم محكما بفضل ذلك التنظيم البديع الذى يدل عليه
ذلك العمل العظيم • ولم تستعمل أية قسوة ولاشدة ولاعنف (١)

(١) هذا رأى أحد علماء الآثار الانجليز الذى تخلص الى حد كبير من
استعماريته وشهد شهادة حق وانصاف بأن الاهرام لم تبني بالام الشعب المصرى
ودموعه • وكان يحلو للمؤرخين المغرضين أن يشوهوا تاريخ مصر ويسفوها احلام
المصريين الاقدمين ويقللوا من قدر حضارتهم حتى يضعفوا فى المصريين الحاليين
روح الاهتزاز بماضيهم ويصرفوهم عن التشبه بأجدادهم فيظلوا الى الابد
خاضعين خانعين •

هى اتمام ذلك العمل فقد كان كل فرد فى البلاد مكلفا بالعمل بنظام السخرة مرتين فقط طول حياته • وكان يعيش فى دعة ويسر كما لو كان فى منزله ، اذ لم يكن فى استطاعته أن يعمل شيئا خلال فترة فيضان النيل (١) •

وغاية ماهو مطلوب من كل عامل أن يجلب معه مازته قنطاران من المواد الغذائية اللازمة لاستهلاكه الشخصى • وهو ماكان يستهلكه حتما لو ظل قابعا فى عقر داره (٢) ولاشك أنه كسب عظيم لهؤلاء القوم أن يتعلموا نظام العمل الجماعى ويتلقوا دروساً عملية فى التدريب المهنى •

(١) كان هذا الاجراء بدل على مبلغ الوصى وبعد النظر الذى تميزت به حكومة البلاد عندئذ ، ففى موسم الفيضان كان الفلاحون يظنون بلا عمل • ولا شك أن هذه البطالة كان نتيجتها ازدياد نسبة الجرائم فى البلاد • فكان جمع الفلاحين وشغل فراغهم فى بناء الاهرام خير حل لتلك المشكلة • وبذلك لم يتسبب بناء الاهرام فى تعطيل مرافق البلاد والناتير على اقتصادها ورفاهيتها كما يقول المفرضون •

(٢) يلاحظ أن وأى المؤلف فى هذا الصدد يخالف آراء كثير من علماء الانار بأن الدولة هى التى كانت تنفق على هؤلاء العمال • فقد ذكر المؤرخون القدامى أمثال « هيرودوت » و « ديودور » أن الفراعنة كانوا يصرفون الطعام والملبس للعمال ، وأن ما صرف لعمال الهرم الأكبر من الفجل والبصل والثوم فقط بلغ ثمنه ١٦٠٠ تالنت من الفضة (التالنت تساوى ٢٤٠ جنيها تقريبا) • ورغم أن هذا لا يمكن الاعتماد عليه كثيرا نظرا لأن هؤلاء المؤرخين استمدوا هذا القول من التراجمة الذين يشك فى معلوماتهم ، فلا ريب ان الفراعنة من بناء الاهرام لم يعتمدوا فى تمويل العمال على ما كان يجلبه هؤلاء العمال معهم فقط كما يقول المؤلف •

وهكذا توارثت الأجيال التالية المهارة التي تتطلبها الأعمال الجماعية • وقد تجلى ذلك في قدرة المصريين فيما بعد على نقل الأثقال الهائلة كما بدا ذلك واضحا في عهد البطالمة اذ تمكن أربعة آلاف مجدف من توقيت تحريك المجاديف بدقة تامة لتسيير السفن العظيمة التي وصفها الكاتب أثنايوس (١) في بعض مؤلفاته •

أعمال المرأة

لقد كان عمل المرأة ولاشك عند السواد الأعظم من الشعب ينحصر في العناية بشئون المنزل واعداد الطعام ، ولكن مما يدعو الى الدهشة أن تلك الواجبات كان ينهض بها خدم من الرجال في القصور ، وفي الأوساط الراقية • فكان الرجال في تلك البيوت الكبيرة ينهضون بأعمال الطهي والخدمة المنزلية وتحرير المكاتبات وعزف الموسيقى • وقل أن تصادف سيدات يقمن بهذه الأعمال • بيد أنهن كن يقمن بغسل الملابس • وكان للمرأة أعمال عديدة تؤديها في الحقول ، فهي التي كانت تنقل محاصيل الحقل فتحملها على رأسها في سلال صغيرة بينما تحمل الدواجن في يدها • وكانت المرأة عدا ذلك تتوجه لشراء الحاجات من الأسواق • وكانت تقوم بتذرية الحبوب عقب الحصاد • وقد وجد في حالة واحدة أن امرأة كانت تقوم بتسيير سفينة كبيرة للبضائع على أن كل ما تقدم ذكره

(١) عالم نحوى أغريقي عاش في مدينة «نقراطيس» في اواخر القرن الثاني

وأوائل الثالث بعد الميلاد •

انما يشير الى عمل المرأة ابتداء من الأسرة الرابعة الى الأسرة السادسة ، فان الرسوم المنقوشة على الآثار والتي يرجع تاريخها الى عصر الأسرة الثانية عشر تين أن النساء كن يقمن بالغزل والنسج والعزف على الآلات الموسيقية . أما فى الأسرة الثامنة عشرة فقد أنفرد الرجل بعملية النسج . فاذا ما كان عصر الاغريق نجد النساء طبقا لبعض الروايات يذهبن الى الأسواق ويتاجرن على حين كان يقبع الرجال فى المنازل ليقوموا بعمليات نسج الثياب (١) .

الاعمال فى الجبانات

وكانت فى مصر طائفة كبيرة العدد من الرجال لا يسهمون فى الانتاج القومى . وهم أولئك الذين يقومون بتلك الأعمال الواسعة النطاق الخاصة باعداد المقابر . وكان حفر المقابر فى الصخر يتطلب جهدا عظيما . وقد بلغ اتساع بعض حفر المقابر فى عهد الأسرة الرابعة ثمانية أقدام مربعة وعمقها ثمانين قدما (٢) . وفى بعض

(١) هذه احدى روايات المؤرخ « هيرودوت » ويجب ان تؤخذ بحرص .

(٢) كانت اغلب المقابر فى عهد الدولة القديمة تتكون من غرفة فوق سطح الأرض داخل بناء يشبه المصطبة . وكانت هذه الغرفة بمثابة « مزار » يجتمع فيه أقارب المتوفى . وفى جانب من المزار بشر عمودى منحوت فى الصخر يؤدى الى حجرة الدفن .

المقابر الأخرى كانت تنحت في وجه حف الهضبة أبهاء عظيمه
يتراوح اتساع أحدها بين ٣٠ و ٤٠ قدما (١) *

وتوجد في طيه مئات من المقابر ترجع الى عهد الأسرة ١٨
قد نحتت في جوف الصخر ثم سويت جدرانها بتغطيتها بطبقة من
الجبص نقشت عليها كثير من الصور والنقوش (٢) *

وكان يعمل بجانب عمال نحت المقابر طائفة كبيرة العدد من
الرسامين والفنانين . ولا يوجد عصر من العصور في أى جزء من
العالم صورت الحياة فيه على جدران المقابر مثلما صور عصر الدولة
القديمة على جدران مقابر سقارة (٣) . وان قبر نبيل من النبلاء
يشتمل عادة على ما يتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ قدم مربع من النقوش
بها ما يتراوح بين مائة أو مائتين من رسوم الأشخاص ، وتتجلى
فيها الحياة والحركة وقد تطلب ذلك استخدام عدد كبير من العمال

(١) هنا الطراز من المقابر ساد في عصر الدولة الوسطى واحسن مثال له
مقابر امراء بنى حسن وكانت المقبرة تتكون من بهو كبير منحوت في الصخر به
مدخل تنصده اعمدة مضلعة تشبه في طرازها الطراز الدورى المعروف في
العمارة الاغريقية . ويؤدى المدخل الى بهو كبير على جدرانه رسوم ونقوش
ملونة . وفي أحد جوانبه بئر يؤدى الى حجرة الدفن . ويشاهد الزائر هذه
المقابر من بعيد وهى تطل على النيل .

(٢) توجد هذه المقابر في «القرنة» بغرب الاقصر لامراء وأشراف الأسرة
الثامنة عشرة . وأهمها مقابر « نخت » و « منا » و « رخميرع » . وتتألف من
مجموعها من مزار صغير منحوت في الصخر محلى بالصور والنقوش به البئر
المؤدى الى حجرة الدفن .

(٣) أشهر هذه المقابر هى مقابر « نى » و « نتاح حنب » .

من مختلف الكفايات ما بين قاطع الأحجار والفنان البارع • ولكن بمرور الزمن لم يعد العمل الفنى ذا أهمية كبيرة اذ غلبت الروح التجارية على المقاولين وخاصة متعهدى الدفن فكانت عمليات التحنيط تؤدي بلا عناية وأجسام الموتى تلف لفاً ينبىء عن عدم اكتراث • وكانت طرق الغش عند المحنطين متعددة • كوضع جمجمة رجل وعظمة من فخذه داخل كفن طفل محنط (حتى يخدع مظهرها أهل الطفل) ولف التماسيح فى القش (بدلا من الكتان) ووضع العظام مع القطط (١) وكان عمال حفر المقابر يكونون مستعمرات فى الجبانات وكانت لهم درجات بعضها فوق بعض فى المرتبة والنفوذ • وكانوا يخرجون متظاهرين اذا ما أهملت جراياتهم ويتعاركون للحصول عليها (٢) •

والى جانب هؤلاء القوم كانت توجد طوائف الكهنة الكبيرة

(١) لجا المصريون التماسا للبركة الى تحنيط الحيوانات المقدسة ووضعها فى منازلهم ، فكان الشخص يسلم الى المحنط جثة قطة أو تمساح ويطلب منه تحنيطه لئى يحتفظ به فى منزله أو مقبرته • وكان يعطى المحنط أجرا على ذلك (١) كان اقارب المتوفى - كما هو الحال اليوم - يذهبون الى المقابر فى المواسم والأعياد (الطلعة عندنا) ومعهم القرابين لتقديمها (رحمة) على أرواح الموتى • ومن العجيب أن كلمة الطلعة هى ترجمة للكلمة المصرية « برت » الى تحمل نفس المعنى • كما أن كلمة رحمة هى الأخرى ترجمة للكلمة المصرية « حتب » • أما كلمة نور فتشير الى العقيدة المصرية القديمة بتمنى خروج أرواح الموتى من القبر المظلم الى ضوء النهار • ولاستدعاء هذه الأرواح كانت تعدم اليها القرابين فتخرج من ظلام القبر الى نور الشمس للتمتع بهذه القرابين • وهكذا مازال الحاضر يقبع فى ثنايا الماضى •

الذين كانوا يقومون بأداء الطقوس الجنائزية • ولم يكن عملهم ينتهى عند دفن الميت بل كان يستمر لأعوام طوال بما يقدمونه من قرايين الى روح الميت وفقا لعقود مبرمة (١) •

كل هذا وذاك تطلب استخدام عدد كبير من السكان فى أعمال غير منتجة • وقد تسببت تلك الأعمال غير المنتجة جميعها فى زيادة أعباء الحياة على بقية أفراد المجتمع • اذ كان عليهم أن يطعموا يعرق جبينهم هذا العدد الكبير من الأفواه التى لانفع منها •

تعداد السكان

ان المصادر الخاصة بعدد السكان فى مصر فى مختلف العصور قليلة ، بل نادرة • ولما كان المصريون شعبا ولودا كثير النسل فقد تضاعف عدده فى مدى الأربعين سنة الأخيرة ، ولهذا كان من المحتمل أن البلاد كانت تزدهم بالسكان بسرعة كبيرة فى العصور التى كان يسود فيها الأمن والرخاء وحسن الادارة كعصر الدولة

(١) من أهم الامثلة على هذه العقود هى العقود العشرة التى أبرمها الأمير « حاب - حفا » حاكم أسيوط فى عهد الأسرة الثانية عشرة مع كهنة أحد المعابد فى أسيوط لتقديم القرابين والبخور فى مقبرته بعد وفاته . وأوقف على هذا العمل ضيعة بمواشيها وحدائقها • وقد نقش « حاب - حفا » هذه العقود على جدران مقبرته المحفورة فى جبل أسيوط. ويعرفها العامة هناك بأسم اسطبل عنتر » •

القديمة ، حين وصل عدد السكان على ما يعتقد الى أقصى مداه في تاريخ مصر القديم . وفي عصر الزعامة استطاعت المناطق المخصصة للجند وكانت مساحتها تبلغ ثلث أرض البلاد أن تمد الجيش المصرى بستمائة وخمسين ألفا من الجنود الذين كانوا فى السن لللائمة للتجنيد . وهذا يشير الى أن عدد السكان فى البلاد قد تراوح بين ١٠ ، ١٢ مليوناً من الأنفس . وفى أيام « دبودورس » بعد اضمحلال نفوذ البطلمة كان عدد السكان بتراوح بين ٧ و ٧ ١/٢ مليون من الأنفس طبقا لتقرير يوسف اليهودى (١) .

وفى القرن الثامن الميلادى بلغ عدد السكان حوالى عشرة ملايين وفقا لقوائم ضريبة الرؤوس التى أدخلها العرب فى مصر . وقد تضاعف عدد السكان أيام حكم الأتراك والمماليك تضاهوا كبيرا . ثم أخذت البلاد عقب ذلك تنعم باستتباب الأمن وتنفيذ كثير من مشروعات الري والصرف واستغلال الموارد الطبيعية . فكان هذا من عوامل زيادة السكان زيادة سريعة مطردة حتى انه يقدر جملتهم عام (١٩٥٩) بحوالى ٢٥ مليوناً (٢) أما جملتهم فى عام

(١) سبق ذكر وصف يوسف اليهودى .

(٢) أضفنا هذا الرقم من عندما الى نص الكتاب الاصلى (الترجمون) .

١٩٧٠ فتقدر بحوالى ٣٧ مليوناً ونستطيع القول أن عدد السكان
فى مصر القديمة كان يتأرجح بسرعة بين ستة ملايين واثنى عشر
مليوناً وفقاً لمدى كفاية السلطة المهيمنة على شئون البلاد . ولاشك
أن الزيادة المطردة الحالية فى عدد السكان سوف تظهر خطورتها
فيما بعد اذا علمنا أن نسبة المواليد فى البلاد ٦٠ فى الألف ونسبة
الوفيات ٤٠ فى الألف . وهذا يعنى زيادة سنوية فى عدد السكان
تقدر بحوالى ٤٥٠٠٠٠٠ نسمة .

الفصل الثاني

إدارة البلاد

الملكية المقيدة

كانت مصر القديمة تخضع دائما لنظام الحكم الملكي وكانت سلطة الملك تضمحل بين حين وآخر فتستقل المقاطعات بإدارة شؤونها الداخلية ، ولكن الحكم فى كل منها كان دائما فى يد رئيس واحد • وان عدم قيام النظام الجمهورى فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى القديم رغم قيامه فى أقطار أخرى بحوض البحر المتوسط مرده على ما يظهر الى أن النظام الملكى فى مصر قد حدد القانون سلطته وحقوقه تحديدا دقيقا ولهذا فان الملك مهما ساءت أخلاقه الشخصية فانه لا يستطيع أن يأتى عملا يكسبه حقد رعيته عليه وكرهيتها له كما كان يفعل الظالمون الفاشمون من حكام الاغريق وأباطرة الرومان الذين لم يكونوا يشعرون بمسئولية ولم يقيدهم شرع أو قانون •

لقد كان الملك فى مصر يعتبر جزءاً لا ينفصم من جهاز حكومى على درجة كبيرة من التنسيق والتنظيم يعرف كل فرد فيه عمل الآخرين كما يعرف اختصاصه الرسمى . وكانت أعمال الملك الرسمية تعد فى نظر القوم جزءاً لا ينفصم من ذلك الجهاز ، بل ان حياة الملك الخاصة لم تكن ملكاً له وحده اذ كان عليه أن يتصرف فى كل لحظة طبقاً لنظام مرسوم دون أن يجد مجالاً للتدخل والعبث كما كان يفعل أمثال « ديونيسوس » أو « كاليجولا » (١) انا نقرأ عن محاكمات رسمية تجرى فى البلاط لمحاكمة بعض أفراد الأسرة المالكة ، وذلك فى عهد كل من الأسرة السادسة والأسرة العشرين (٢) . وكانت تلك المحاكمات تسير بدقة طبقاً للإجراءات القانونية بل وبدون حضور الملك ، فقد كان الفرعون فى مصر ذا سلطة محدودة حتى فى شؤنه الخاصة . ولم تبلغ سلطته على أفراد (آل) بيته ما بلغت سلطة كلوديوس أو هنرى الثامن .

(١) امبراطور رومانى حكم بين عامى ٢٧ - ٤١ م واشتهر بقسوته وظلمه .
(٢) محاكمات الأسرة السادسة والأسرة العشرين : فى عهد كل من هاتين الأسرتين دبر رجال الحاشية بزعامة زوجة الملك مؤامرات لقتل الفرعون الجالس على العرش . وفى عهد الأسرة السادسة دبرت زوجة الملك المدعوة « أمتس » مؤامرة لقتل زوجها « بيبى » الأول ، والظاهر أن المؤامرة فشلت لأن الملك أصدر أمره بشكبل محكمة لمحاكمتها . ولا تعرف السبب فى اقدمائها على هذه الجريمة ، ولكن يبدو السبب غيرتها من زواج الملك بأميرتين غيرها . وفى عهد الأسرة العشرين دبرت إحدى نساء الحريم المدعوة « تى » مؤامرة لقتل الملك ورمسيس الثالث والاستيلاء على السلطة لتمكين ابنها « بنتازوع » من اعتلاء العرش . وقد كشفت المؤامرة وأمر الملك بتشكيل محكمة لمحاكمة زوجته والتآمرين معها .

القيود انحدرت الى الملك بالوراثة

وكان الوضع السياسى للملك يتمثل فى كونه خليفة حكام
الدويلات العديدة التى أزهرت فى عصر ما قبل الأسرات (١)
وكان لكل منها نظمها الخاصة وحقوقها التى كانت شديدة التمسك
بها . وبذلك فإن حقوقه والتزاماته آلت اليه من مختلف النظم التى
كانت سائدة فى تلك الدويلات . فقد كان الملك يعتبر الوارث
لعرش مملكة « هيراكونبوليس » . وكان بهذه الصفة يتخذ
« الصقر » رمزا له . فإذا مات الملك عبر المصريون عن ذلك بقولهم
« لقد طار الصقر الى السماء » .

وكان الملك أيضا يعتبر وريثا لحكومات كل من الكاب «نخب»
التى كانت تقع على الضفة اليمنى للنيل ازاء « نخن » (٢) « وبوتو »
العاصمة الشمالية فى الدلتا . وهذه السيادة المزدوجة كان يرمز
لها فى شعار الملك « بالصل » و « العقاب » كما ضم إقليم

(١) عن هذه الدويلات راجع ص ١٦ (حاشية) .
(٢) كانت « نخن » فى الأصل عاصمة المقاطعة الثالثة فى الوجه القبلى
ثم تمكن أمراؤها من توحيد مقاطعات الوجه القبلى تحت حكمهم . وجعلوا
« الصقر » رمز هذه المدينة وألهاها علما على الوجه القبلى كله . ولذلك سماها
الاغريق « هيراكونبوليس » أى مدينة الصقر الجاثم . وتوجد أطلال هذه المدينة
الآن فى قرية الكوم الأحمر غرب النيل فى مواجهة ادفو . وفى العصور التالية
حلت مدينة « نخب » محل « نخن » كعاصمة للمقاطعة الثالثة . فورثت عن
نخن أهميتها التاريخية كعاصمة للوجه القبلى قبل اتحاد القطرين . وكان
ومزها وألهاها « انثى العقاب » . وتوجد أطلال « نخب » الآن فى قرية « الكاب »
شرق النيل شمال ادفو بقليل .

« سايس » (١) تمثله « النحلة » • وقد قرن ذلك بأقليم الجنوب وتمثله « البوصة » • وليس واضحا ما اذا كانت « البوصة » قد اتخذت في الأصل شعارا لعاصمة معينة • ومن المؤكد على أية حال أنها كانت ترمز دائما لأقليم الجنوب (٢) • ويبدو أن اخضاع قبيلة الاله « ست » التي كانت على جانب كبير من القوة والبأس في عهد الأسرة الثانية (٣) قد تم نهائيا أيام الأسرة الرابعة بدليل تمثيل الملك بهيئة الصقر منتصرا على الاله « ست نبتى » (٤) • وكان يرمز لذلك الحادث برسم العلامة « نوب » (٥) وفوقها يجثم الصقر

(١) كانت « سايس احدى المقاطعات الهامة في الدلتا وهى أقدم من « بوتو » وشعارها « النحلة » • ومكانها الآن « صالحجر » (بالقرب من كفر الزيات) • وقد اتخذ الفراعنة من النحلة (بيتى) رمزا شعارا آخر للوجه البحرى • كما اتخذوا البوصة « نسوت » شعارا للوجه القبلى • وصموا (البوصة والحلحة) في شعار واحد واحد وأصبح رمزا ولقبا للملك بعد التوحيد (ملك الوجهين القبلى والبحرى) •

(٢) هناك رأى ينادى به العالم الفرنسى (لوريه) بأن البوصة كانت في الاصل الشارة التى تدل على اقليم مصر الوسطى من بداية بحر يوسف الى رأس الدلتا • وكانت عاصمة هذا الاقليم مدينة « هيراكليوبوليس » ومكانها الآن بلدة « أهناس » بالقرب من الفيوم •

(٣) ودليل ذلك ما ورد على آثار الملك (بر - ايب - سن Per ib-Sen أحد ملوك الأسرة الثانية من أنه استبدل صورة الاله (حور) بصورة الاله (ست) في اسمه •

(٤) (ست نبتى) أى الاله ست الذى ينتمى الى بلدة (نبت) • ومكانها الآن قريتا (نقادة وكفر البلاص) الواقتان على الضفة الغربية للنيل بالقرب من (قفط) • راجع ص ١٦ (حاشية) •

(٥) « نوب كلمة مصرية قديمة معناها الذهب ومنها اشتقت كلمة النوبة التى تطلق الآن على المنطقة الممتدة جنوب أسوان نظرا لكثرة مناجم الذهب

وآخر كسب للملك كان ما ورثه من حقوق في الأسرة الخامسة من كهان مملكة هليوبوليس العظام ومن بعدها أصبح الملك يلقب « حقا » أو حاكم « هليوبوليس القديمة » (١) . وبذلك أصبح الملك يحمل أيضا لقب حاكم (هليوبوليس) ويمثل في الشعار الملكي بصولجان كان يحفظ في المعبد (٢) . وكان من الألقاب الدينية الرفيعة التي يحملها الفرعون لقب (الكاهن الأعظم لاله

= التي كان المصريون المدماء يستغلونها في هذه المنطقة ولكن كلمة «نوب» هنا لها معنى آخر فهي ترمز الى بلدة (نوبت) مقر عبادة الاله (ست) . فيكون معنى الرمز (حور المنتصر على ست في بلدة نوبت) . ويقول بعض العلماء ان هذا التفسير يرجع لعصر البطالة ، وان المعنى الحقيقي لهذا اللقب الذي يرجع لأقدم عصور التاريخ المصرى هو (حورس الذهبى) .

(١) سبق القول بأن هذه الملكة ظهرت في عصر ما قبل الأسرات (راحع ١٦) حاشية . وكان ملوكها يسمون «شمسوحور» أى أتباع حور . وكانت مركزا لعبادة الشمس . وقد برع كهانها في علوم الفلك والرصد ، فكانوا أول من اخترع التقويم الشمسى المعروف الآن بالسنة القبطية . وكان ذلك حوالى عام ٢٤١ ق.م . وفي العصر التاريخى وخصوصا في أواخر الأسرة الرابعة زاد نفوذ كهنة الشمس بدرجة خطيرة حتى تمكنوا من اعتلاء عرش البلاد وتأسيس الأسرة الخامسة . وبنوا أهرامهم في أبي صير بالقرب من الجيزة . هذا وكلمة (هليوبوليس) يونانية معناها مدينة الشمس . وقد ترجمها العرب الى عبي شمس .

(٢) فسر المؤلف في هذه السطور الألقاب التي كان الملك يحملها على هيئة رموز فكل من « الصل والعقاب وكذا النحلة والبوصة ولقب حور نبتى وحاكم هليوبوليس » وان كانت في ظاهرها تعتبر ألقابا للفرعون الا أنها في حقيقتها ترمز الى الدويلات التي تكونت منها مصر قبل توحيد القطرين ، وتدل علم وراثة الملك لهذه الدويلات بما فيها من نظم وما لها من التزامات .

حورس) (١) • ويشير اليه الحراطوش الذى يحوى الاسم الملكى
ويظهر هذا فى شكل قلادة حول رقبة تمثال الكاهن الأكبر « رع
سمنخ » (المحفوظ فى متحف اللوفر) •

الوظيفة الدينية للملك

ولم تكن الوظيفة الدينية للملك قاصرة على رئاسة كهنة
الالهين « حورس و رع » فحسب بل كان عليه تقديم القرابين
اليومية من أجل رعيته • وكما كان يهب النبلاء وغيرهم من كبار
الحكام المنح المختلفة من الأراضى وهم على قيد الحياة فقد كان
يمنحهم الهبات من الأرض بعد مماتهم لضمان استمرار تقديم
القرابين لأرواحهم كما ورد فى مقبرة الأمير « متن » ولهذا فان
كافة الهبات الجنائزية كانت تعد فى الواقع « قرابين ملكية » وتشير
الى ذلك صيغ الدعاء التى كانت تدون على اللوحات الجنائزية فى
كافة عصور التاريخ الفرعونى ، فكان الفرعون بحكم مركزه
الكهنوتى عائلا لرعيته فى الحياة ، كما كان سندا لهم فى الممات •
وقد لا تكون الهبات الملكية دائما منحا من الأراضى بل ربما اشتملت
على مواد غذائية تمثل قيمة ايجارات عينية لبعض مزارع الملك ،

(١) « حورس » هو أحد آلهة مصر الرئيسيين وكان يعبد فى جهات متعددة
من القطر . وقد اعتبره كهنة هليوبوليس صورة اخرى لالههم « رع » اله
الشمس وكانوا احيانا يوحدون الالهين فى اله واحد أطلقوا عليه « رع حورس » .

أو قيمة ايجارات عينية للملك حق الحصول عليها • ومع ازدياد المعاملات وتعقدتها تبعا لنمو سلطان المملكة صار من المستحيل أن يتصرف الملك شخصيا في كافة شئون الدولة • ولذلك نرى الملك « سننfro » قيل نهياية عصر الأسرة الثالثة (١) يقلد نجله « نفر ماعت » منصبى « حامل الأختام الملكية » و « قاضى القضاة » • ويقلد نجله « رع حتب » منصب « الكاهن الأكبر للاله رع فى هليوبوليس » • وقد فعل الملك « خوفو » ما يشبه ذلك مع ابنه « مرى ايب » •

وظائف الملك السياسية

وإذا أتمقلنا الى الوظائف السياسية للملك نجد أن أول واجب عليه بعد اعتلائه العرش منذ عهد الأسرة الأولى هو التفتيش على الحدود وتأمين سلطته ويطلق على هذه المهمة « الطواف حول الجدار » (٢) احياء لذكرى اتحاد الوجهين القبلى والبحرى • وكان

(١) السائد الآن بين علماء الآثار أن الملك « سننfro » هو أول ملوك الأسرة الرابعة وأن « نفر ماعت » هو حفيد « سننfro » وليس ابنه (راجع مصر القديمة ج ٢ ص ١٤) •

(٢) « الطواف حول الجدار » احتفال كان يقوم به الفرعون يوم توليته العرش • يطوف اثناءه حول مدينة « منف » عاصمة المملكة • والقصد من ذلك احياء ذكرى توحيد الوجهين القبلى والبحرى على يد الملك « مينا » الذى أسس مدينة منف وبنى حولها سورا أو جدارا • وهذا هو احدث تفسير لهذا الاحتفال كما أثبتته الحفائر الحديثة التى أجريت فى منطقة سقارة =

الملك هو القائد الأعلى للجيش واليه شخصيا ينسب الفضل في الانتصارات التي يحرزها جيشه • ولم يكن ذلك ادعاء بل كانت حقيقة لأن الملك كان يقود جيشه بنفسه ويشترك في المعارك اشتراكا فعليا • ولدينا أمل على ذلك منها مساهمة الملك بشخصه في الحرب ضد اثيوبيا (١) في عهد الأسرة البانية عشرة وفي الصراع الميت الذي خاضه الملك « سكرع » (٢) في عهد الأسرة السابعة عشرة • ومن قيادة « تحمس » الثالث و « رمسيس » الثاني من ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بشخصيهما للجيوش المصرية في المعارك الحربية الهامة وليس هناك أى دليل على أن ملوك مصر قد تخلوا عن بعض حقهم في قيادة الجيش • وكان الملك يقوم برحلات كثيرة يفقد خلالها الأشغال العامة

= وميت رهيه • وهذا المسير كما يلاحظ القارىء لا يتفق مع تفسير المؤلف الذى وضع كتابه عام ١٩٢٣ •

(١) المصود « ناثيوبيا » هنا ليست الحبشة وانما يقصد بها في كتب علماء المصولوجيا المنطقه الممتدة من الشلال الثانى الى الشلال السادس على وجه التعريب • وقد قام الملك « سو سن » الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة بحملات شديدة على هذه الجهات فكان يفود الجيش بنفسه حتى استطاع تأمين حدود مصر •

(٢) هو أحد ملوك مدينة طيبة الذين بدأ الصراع بينهم وبين ملوك الهكسوس • وقد حارب « سكرع » واستعان في القتال حتى قتل في إحدى المعارك • وتوجد جمجمة هذا الملك بالقرب من المعابد بها آثار كسور دليلا على استشهاد فداء لحرية البلاد واستقلالها •

والمناجم للوقوف على مدى أمانة الموظفين وللقضاء على المساوىء
والمظالم •

النظام اليومي للملك

وقد انفرد « ديودورس » بوصف نظام حياة الملك اليومي
وربما يكون ما أورده مشابها لنظام الحياة اليومية للملك البطلمة ،
ولكن الأرجح أن يكون وصفه مطابقا لنظام حياة ملوك الأسرة
السادسة والعشرين الذى بدوره قد يرجع فى أصله الى عهود
أقدم • لقد كانت كل ساعة من وقت الملك مخصصة لأداء واجبات
شتى والقيام بأعمال مفروضة لا أن ينغمس فى المتع والملاذات • فاذا
استيقظ فى الصباح بدأ عمله بقراءة الرسائل الواردة من
مختلف الأقاليم وربما تطلب الأمر املاء الردود عليها ، ثم يعقب
ذلك طقوس التطهير فيرتدى الزى الرسمى تزينه الأوسمه
والشارات الملكية ، استعدادا لتقديم الضحية للالهة • ولكن
قبل بدء هذه الطقوس كان يقف الكاهن الأكبر ، والملك والناس
حافين من حوله يتهلل للالهة كى تمنح الملك الصحة والسعادة •
وبعد أن يعدد فضائل الملك يستنزل اللعنات والسخط على جميع
الخطايا والذنوب التى اقترفت عن جهل وارتكبت من غير قصد ،
ملقيا اللوم على الوزراء • وكان معنى ذلك توجيه نقد شديد لأعمال
الحكومة لم يكن يجروء عليه الا رجال الدين • وقد قيل ان ذلك
كان لهدى الملك الى الطريق المستقيم وارشاده اذا ضل ، وكبحه

إذا سلك جنبات الصواب • ولم تدلنا النصوص عما إذا كان الملك يقدم التضحية للآلهة بنفسه أم كان يقوم بذلك الكاهن الأكبر • على أن الثابت أن هذه المهمة كانت تعد من مهام الملك • وكان الفرعون يختبر الأحشاء (١) مثلما كان ملوك آشور يفحصون الكبد • وقد أسار التوراة لذلك : « وللتبوء •• كانوا يفحصون الكبد •• (سفر حزقيال اصحاح ٢١ آية ٢١) • وإذا انتهى من تقديم القرابين من النيذ والزبوت وغيرها من سوائل التطهير المقدسة ، قام الكهنة بتلاوة العظة (الخطبة) وقراءة بعض المراسيم والقوانين والنصوص التاريخية التي تناسب المقام • وكان طعام الملوك بسيطاً محدود الأصناف • وهذا يشير الى أنه كان لهم نظام خاص فى الغذاء محافظة على صحتهم وضماناً لسلامتها التى تتوقف عليها رفاهية البلاد • وهذا الاعتقاد مازال سائداً فى بعض مناطق افريقية ولكن بصورة غاية فى القسوة الوحشية فندما تعتل صحة الملك وتضعف حيويته يقتل كى تتجنب البلاد انتقال ذلك الضعف والاضمحلال اليها • ولم تكن تلك العادة الوحشية بطبيعة الحال

(١) الاصل فى هذا التقليد هو ان الضحايا كانت تقدم للالهة كل صباح • وغالبا ما كانت هذه الضحايا من الثيران السمينة • وبعد ذبح الضحية كان يقطع خير اجزائها وهو الفخذ • وكان الفروض أن يقوم الملك بهذه العملية ليقدمه للالهة • ولكن أصبح هذا العمل يقوم به الكاهن الأكبر أولا ثم يطور الزمن ترك هذا العمل للكهنة المختصين اللذين يقومون بذبح الضحية • وصار عمل الملك ينحصر فى فحص احشاء الضحية •

متبعة في مصر القديمة اطلاقا ، لأن الملكية في مصر قد نشأت فيما يظهر عن نظام كهنوتى يعتمد على الحكمة وليس عن طريق رياسته تستند الى قوة جنسانية قاهرة (١) . وقد ورد وصف وفاة الملك في السجلات الخاصة بالأسرة الثانية عشرة (٢) . « لقد دخل الاله أفه وصعد الملك الى السماء واقترن بقرص الشمس والتقى ظل الاله بخالقه . لقد ساد الصمت أرجاء القصر واكتفه جو كئيب من الحزن والأسى ، وأغلقت أبوابه الكبرى وجثم رجال الحاشية على الأرض في خشوع ، وكان الناس في حزن صامت رهيب » ، وقد قيل بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة (٣) « ان المصريين عامة اذا مات أحد ملوكهم قاموا بنعيه في حزن شامل ، يشقون الجيوب ويوصلدون أبواب دور العبادة ويحرمون تقديم الضحايا للآلهة ، واقامة الولائم

(١) كان الفراعنة في مصر في بداية عهد الأسرات يحتفلون بعيد يسمونه « حب سد » أى عيد الذئب لأن الملك كان يلبس جلد حيوان له ذئب . والغرض من هذا العيد تجديد شباب الملك لأن الاحتفال به كان يتم كل ثلاثين عاما من عمر الملك . وبمرور الزمن أصبح الفراعنة لا يتقنون بشرط مرور ثلاثين عاما ، بل كثيرا ما نجد فراعنة يحتفلون بهذا العيد مرات كثيرة في حياتهم مثل رمسيس الثانى ورمسيس الثالث ولعل هذا العيد تطور انساني متحضر لتلك العادة البدائية التى يشير اليها المؤلف .

(٢) ورد ذلك الوصف عن وفاة الملك « أمنمحات الاول » في قصة سنوحى المشهورة .

(٣) هو وصف المؤرخ « ديودورس » الذى زار مصر سنة ٥٩ ق.م. أى في أواخر عصر البطالة . وهذا معناه انقضاء حوالى ألفى عام بينه وبين الوصف المذكور آنفا الذى يرجع الى عهد الأسرة الثانية عشرة وليس ثلاثة آلاف عام كما ذكر المؤرخ (انظر وهيب كامل : ديودور في مصر ٧٢) .

والحفلات ويلتزمون الخشوع اثنين وسبعون يوما (١) • ويخرج الرجال والنساء وفد حثوا التراب على رؤوسهم (٢) وأتوا فيما يلي الصدر بلباس من التيل الرفيع فى جماعات مؤلفه من مائتين او ثلاثمائة ، ويطوفون بأصحاء المدينة مرتين فى اليوم ، متعنين بمدح الفقيد العظيم ومشيدين بذكروه • وكانوا يمتنعون عن تناول اللحوم أو الأطعمة المطهوه على النار أو المسخنة عليها ، ويحرمون على أنفسهم تناول الأبنزة وكافة الأطعمة الفاخرة • • ويبدو أنه لم يكن هناك أى أثر للفوضى والتحلل والترخص العام عند وفاة الملك كما كان يحدث فى بعض الجهات الأخرى وهذا يتمشى مع الحقيقة النابتة وهى أن الملك خاضع للقانون وليس المصدر الأوحد للقانون والنظام ، وكانت سلطات الملك مقيدة كل التقييد ومن ذلك يستطرد ديودور قائلا « انه لم يكن ليستطيع أن يقوم بأى عمل عام أو يدين شخصا أو يعاقب آخر لمجرد نزعة شخصية ، أو بقصد التشفى والانتقام ، أو لأى دافع آخر لا يتفق وروح العدالة ، ولكنه كن مقيد التصرف فى كل حالة وفق ما تنص عليه القوانين ؛ ومن أجل ذلك رأينا الملوك وقد راعوا المساواة والعدل فى المعاملة بين رعاياهم

(١) السبب فى تحديد مدة الحداد باثنين وسبعين يوما هو الفترة اللازمة لتحنيط الجثة .

(٢) مازالت هذه العادة باقية بمصر بين الطبقات الدنيا اذ يلطخ النساء وجوههن بالنيلة عند حدوث وفاة فى أسرهن كما يخرجن نادبات نائحات ولكن تلك العادات فى طريقها الى الزوال .

فاكتسبوا من محبتهم ما يزيد كثيرا عما يكونونه لأهلهم من حب ،
وعلى الرغم من أن ما ذكر عن هؤلاء الملوك فى تلك المناسبة يرجع
فى تاريخه الى عصر متأخر ، الا أنه يسرى على العصور السابقة
أيضا كما يتبين من محاكمة احدى الملكات فى عهد الأسرة
السادسة (١) . فقد تولى هذه المحاكمة أحد القضاة ثم اشترك معه
فاض تان فى تحرير التقرير وقد تم هذا كله دون ان يشترك الملك
فى الأمر أو يتدخل فى سير القضية وقد يكون قد أصدر الحكم
النهائى فى هذه القضية وفى غيرها من القضايا الخطيرة . ولكن
محاكمات المجرمين وقرارات اتهمهم كانت دائما تسيير وفقا
للإجراءات القانونية .

واذن فقد كانت نظرية الحق الآلهى للملك مقيدة تقييدا كبيرا
بالنسبة للملك مصر . بيد أنه لما كان المصرى لا يعتقد أن آلهته
يحيطون بكل شىء علما وأنهم ليسوا منزهين عن الزلل والخطايا
فلم يكن هناك الا تناقض ضئيل بين هذه العقيدة وقبول فكرة ألوهية
الملك . على أن الملك كان اذا أوتى شخصية قوية وروحا جريئة
مبتكرة استطاع أن يجد لنشاطه وحيويته مجالا فسيحا . ذلك أن
تنظيم أمور الدولة وانجاز المشروعات العامة والهيمنة على شئون
العلاقات الخارجية كل ذلك كان يكفى ليفسح أمام الملك ميادين

(١) يشير المؤلف بذلك الى قصة الملكة « امتس » التى تأمرت على حياة
زوجها « بيبى » الاول . وقد سبق الكلام عليها (راجع ص ٢٩) .

واسعة لعمل كبير • وممن أشيد بذكرهم في هذا المقام « أحمس »
الأول الذى أنشأ نصبا تذكاريا فحما لجده الملكة « تيتى شيرى » (١)
وحشيشسوت التى أقامت مسلاتها الرائعة (٢) • وسيتى الأول
الذى قام بزيارة المناجم وأمر بأقامة معبد وحضر بشر فى وادى
عباد (٣) بعد أن لمس مشقة العمل فى تلك المناطق •

وكان عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية حقا من حقوق الملك
كذلك • بيد أن الصياغة القانونية الدقيقة لمعاهدة مصر مع الحثيين (٤)

(١) يشير المؤلف بذلك الى حيوية الفرعون « أحمس » ونعدد ميادين
نشاطه • وفضلا عن أنه قام بأعظم عمل قومى فى تاريخ مصر وهو طرد الهكسوس
فان نشاطه امتد الى الأعمال السلمية •

(٢) توجد هذه المسلات فى معبد « آمون » الكبير بالكرنك وما زالت احداهما
قائمة ويبلغ ارتفاعها حوالى ٣٠ مترا ووزنها حوالى ٣٠٠ طن •
(٣) طريق صحراوى يبدأ من وادى النيل جنوبى ادفو بعدة أميال ويخترق
الصحراء الشرقية الى جبل الزبارا على ساحل البحر الأحمر حيث مناجم
الذهب •

(٤) هى أقدم معاهدة فى التاريخ أبرمها الملك رمسيس الثانى مع ملك
الحيثيين حفظا للسلام بين الدولتين بعد ان دامت الحرب مدة طويلة • وأهم
بنودها ما يلى:

(أ) عدم اعتداء كل من الطرفين على أراضى الطرف الآخر وارجاع
العلاقات الودية كما كانت •

(ب) مساعدة كل طرف للآخر فى حالة هجوم دولة أجنبية عليه •

(ج) التعاون فى عقاب الخارجين على طاعة الطرفين •

(د) طرد الهاريين السياسيين والمهاجرين التابعين لكل من الطرفين الى
بلادهم •

وهذه المعاهدة مسجلة فى معابد رمسيس الثانى بطيبة • كما عشر عليها =

توحى بأن تلك الصياغة إنما هي من عمل أحد رجال القانون • وكان تعيين كبار الموظفين من سلطة الملك • وهكذا نجد في عهد الأسرة السادسة أن التماسا يقدم الى الملك كى يخلع على « زاو » (١) لقب أمير وقد تقبل الملك الالتماس وأصدر مرسوما ملكيا تحفيقا لذلك •

وكان من أعمال الملك الهامة منح الأراضي فكتيرا ما أعلن الملك منح ضياع للنبلء وهبات للمعابد لصالح الكهنة ، ولقد كان فى الامكان فى العصور المبكرة أن تمنح تلك الهبات من الأراضي البور بعد اصلاحها بشق قنوات الري والصرف فيها غير أن ذلك المورد كان مآله الى النفاذ فمن أين كانت تمنح الهبات الملكية ؟ فاذا لم يكن للتاج قدر كبير من الأراضي الزراعية فى البلاد تعذر على الملك أن يواصل مثل تلك الهبات من أملاكه • وقد أتخذت الهبات التى كان يمنحها الملك لأفراد أسرة ما صورة من صورتين : فهى اما تنازل عن ملكية تلك الأراضي للأفراد فى حياتهم بوثيقة ملكية •

= منقوشة بالخط المسماى على قالب من الطوب اللبن فى « بوغازى كوى » عاصمة الحيثيين القديمة بآسيا الصغرى • وتوكيدا لهذه المعاهدة زار ملك الحيثيين مصر وزوج ابنته للملك رمسيس الثانى •

(١) كان « زاو » موظفا كبيرا فى عهد الأسرة السادسة وكان يحمل القابا كثيرة منها « الحاكم العام للعاصمة وكبير القضاة والوزير ورئيس الملابس الملكية وحامل أختام فرعون » • والسبب فى تمتعه بهذه المراكز أنه كان صبورا للملك « بيبى » الأول الذى تزوج من شقيقتى « زاو » •

أو تنازل عن الأرض كهبات جنازية بعد مماتهم •

وكلاهما يشير الى منح الأراضي منحا نهائيا وامتلاكها مدى الحياة • وقد لانشير المنح الملكية الى التنازل عن ملكية الأرض نفسها وانما سير الى اعفائها من الضرائب المستحقة للتاج كما كان الحال بالنسبة للأراضي التابعة للمعابد • وذلك أن فرض الضرائب كان ناشئا من أن للملك حقوقا على ملكية تلك الأراضي باعتباره السيد المطلق على البلاد • واذن فاعفاء الأرض من الضرائب كان يعتبر عن الناحية العملية أنه منحة ملكية دون أن يترتب على ذلك نقل ملكيتها من التاج •

وظيفة الوزير

كانت أعمال الوزير على أعظم جانب من الأهمية باعتباره الأداة المنفذة لكافة الشؤون الادارية التي تدخل ضمن اختصاصات الملك باستثناء الناحية الدينية • ولدينا من حسن الحظ بيان شامل لمهام الوزير وواجباته يرجع الى عهد الأسرة الثانية عشرة دون على جدران مقبرة الوزير « رخميرع » (١) ورغم أن جانبا كبيرا

(١) « رخميرع » وزير مشهور عاصر الملك « تحتمس الثالث » « وأمنتب الثاني » . وتولى بنفسه تتويج الملك الأخير . وقد ذاعت شهرته بسبب أهمية مقبرته الموجودة بالبر الغربي بالاقصر ، إذ أن نقوشها ونصوصها ألقت ضوءا على كثير من النظم السياسية والادارية والقضائية في مصر القديمة وعلى مهام الوزير وأعماله . انظر : Newberry, The Tomb of Rekhmare.

من هذه المهام يصعب تفسيرها الا أنها تعطينا فكرة عن تلك الواجبات
التي يمكن اجمالها فيما يلي :

١ - الادارة العامة *

٢ - تعيين أربعة مفررين ومقشسين لموافاة الوزير ثلاث
مرات فى السنة بأحوال المقاطعات الواقعة ضمن اختصاص كل
مهم ، مع تقديم الوثائق والتمشيش على القائمين بمراجعته الحسابات
وضبطها *

٣ - تسلم التقارير الواردة من مقشئى الأقالم وكذلك فوائهم
الاحصاءات النى فى حوزتهم *

٤ - النظر فى الشئون الخاصه بحدود المقاطعات وضحيد
الأراضى ، والفيضان والترع ، واصدار التعليمات الخاصة بالمحصول
التالى ، وقطع الأشجار وتنظيم تحصيل المتأخرات من الضرائب ،
والنظر فى مظالم الحكام المحليين وحوادث السطو والسرقه فى
الأقالم والمنازعات المختلفه *

والى جانب هذا كله كان على الوزير أن بنوب عن ملكه فى
اذاعه الرسائل الملكيه الى شتى المقاطعات وارسال البلاغات والأوامر
الملكيه الى الجهات المختلفه * واصدار الأوامر لرسول الضياع
الملكه . وتعيين المشرف على الرسائل فى ساحة القصر الملكى ،
والاشراف على رجال الحرس الملكى ، وعلى تنظيم البعثات الملكيه *

وفى القضاء كان من سلطات الوزير ترقية القضاة وتعيين حارس المحكمة . وفى المعابد كان ينظر فى أسباب نقص إيرادات الهيئات . (فقد تكون بسبب الاختلاسات من جانب الكهنة) كما كان ينظر فى توزيع الجزية السنوية (١) عليها وكان عليه أن يفتش وفى معيته حامل الأختام على هذه الجزية وعلى الأرصدة ، وكان من واجباته أيضا تنظيم الملاحه فى نهر النيل والاشراف على سير سفن البضائع ومراقبة أعمال مرشدى السفن وموجهيها . ثم يلى ذلك وظائف أخرى عديدة . غير أن بعضها قد ضاع وبعضها الآخر يتعذر فهمه ، من ذلك السجل المنوه عنه فيما سبق . على أن هذا كله يدل على مدى اتساع اختصاص الوزير فى النواحي الادارية . وعلى عظم اعتماد رضاء الدولة ورفاهيتها على حسن ادارته وتزاهته . لأن الوزير منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها كان هو الحاكم العام للعاصمة والقائد (« مرنوت » و « وثانى ») وقد أصبح من الضرورى نتيجة لهذا العبء الثقيل من الأعمال على كاهل الوزير تعيين وزير ثان للجنوب ابتداء من مستهل عهد الأسرة الثامنة عشرة واتخذ مقره مدينة طيبة . على حين أختص وزير الشمال بشئون الدلتا ومصر الوسطى . . زد على ذلك أنه تقرر تعيين حاكم له

(١) كانت هذه الجزية تجبى من الأملاك المصرية فى آسيا . وكان يخص كل معبد من المعابد الكبيرة نصيب معلوم كل عام .

سلطات مماثلة على إقليم النوبة وأثيوبيا (١) وكان يطلق عليه الابن الملكي في كوش (٢) .

موظفو البلاط

ولا بد أن رئيس البلاط الملكي كان يتمتع بسلطان عظيم وكان يطلق عليه « حامل المروحة على يمين الملك » وكان دائما كريم المحتد عريفا في الحسب ويختار لمهاتبه وشدة بأسه وفوة مراسه وكفايته الممتازة في التوجيه والقيادة لضمان استتباب الأمن والنظام . ونظرا لما كان يتمتع به هذا الموظف الخطير الشأن من حق الاطلاع على كافة الشؤون الخاصة بشخص الملك واصفاء الملك الى مشوراته والسلطة الكبيرة المخولة له في اقضاء من يشاء من المتول بين يدي الملك . كل هذا قد جعله المتحكم غير المنازع في مصائر الأفراد بل في مصائر الدولة بأسرها .

ومن موظفي الخاصة الملكية الذين كان لهم حق الاتصال

(١) راجع ما ذكر عن دلالة لفظ أثيوبيا ص ٢٢ حاشية .

(٢) كوش : Kush كلمة مصرية قديمة كانت تطلق على إقليم التوبة العليا الممتد بين وادي حلفا حتى قرب الشلال السادس . وكانت عاصمته هي بلدة « نباتا » الواقعة شمال شرق « كورتى » على النيل النوبى وكان يحكمه نائب من قبل الفرعون يحمل لقب « ابن الملك في كوش » ولم يكن هذا اللقب يعنى بنوة ذلك الحاكم لملك مصر ولكن كان يدل على متانة الصلة والروابط التى تربط مصر بالسودان .

المباشر بالملك « عيون الملك وآذانه » وكانوا يختصون بالخبايرات السرية • ومنهم « المبعوث الخاص الذى يطوف بأرجاء البلاد ويوافي الملك بالأخبار التى تدخل على قلبه السرور والغبطة » ثم « المعلم الذى يصل بعلمه بالملك الى حد الكمال » ثم « الكاتب الخاص لحورس الثور القوي » (١) ثم « كبير أمناء القصر الملكى » ثم « الأمناء » ثم « رئيس الحرس الملكى » ثم « الأتباع » وهم الذين يرافقون الملك فى الصيد • ثم « الدليل الذى كان يرافق الملك فى كافة رحلاته » •

وكان ضمن رجال الحاشية من ذوى المكانة « رئيس حملة أختام الملك » و « الرسول الخاص » و « كاتب المائدة الملكية » و « رئيس رسل جلالاته » وكان يقوم بتنظيم بروتوكول الأسبقية وترتيبات المقابلات ثم « رئيس المسجلين الملكيين » و « المشرف على شئون الديوان » • والديوان هو الأجنحة الخاصة والغرف الداخلية بالقصر • و « ملاحظ الحقائق » وهو لقب حتى سمنوت كان

(١) كان لقب « الثور الموى » يطلق على الفرعون منذ بداية عهد الأسرات • وكان الفرعون فى عصر الأسرة الأولى يمثل نفسه بثور ينطح قلاع أعدائه ويحطمها • ومثال ذلك الرسم المثل على لوحة الملك مينا - نارمر - المشهورة والمحفوطة بالمتحف المصرى فى القاهرة • وقد حافظ عليه قرائنة مصر على مر العصور لأنهم اعتبروه تراثا مقدسا ورثوه عن آباؤهم الأولين •

يحملة • ثم رئيس المهندسين المعماريين « وهو الذى كان يوكل إليه عمل (١) تصميمات بناء الأهرام والمعابد والانراف على تنفيذها والموظفون الذين يتصلون أتصلا شخصيا بالملك هم : السكرتير الأول : (الذى فوق الأسرار) وذلك فى الدولة القديمة فقط • ثم « مسجل الأختام وحارس الأختام وكتب التقارير وكتب الرسائل فى القصر » ثم المادحون والعارفون على الجلك (آله موسيقية تشبه القيثارة) وهناك « حامل القوس ورئيس الأنباع والسائق الأول للعربة الملكية ورئيس المشرفين على العربات الحربية وربان يخت الملك وكتب رسائل الملكة وأمين قصرها » •

أما هيئة موظفى القصر عدا هؤلاء فكانت تتألف من كتبة المائدة الملكية والمؤن والشون والحسابات « رئيس الحسابات الحاذق » أو رئيس الحسابات اليومية وكتب القصر وبيت المال وكتبة حسابات الفضة والذهب وكتبة حسابات المفتشين الملكيين لبيت المال • وكذلك مسجلى المكاتبات المقدسة الخاصة بالملك • ثم المترجم الأول للملك والصانع • وصانع التحف البديعة ، ورئيس الاسطبل والمتولى

(١) كان « سموت » وزيراً للملكة « حتشبسوت » وكبيراً مهندسيها . وقد شيد لها ما تركه من روائع المعابد والمسلات فى الدير البحرى والكركن وكان ذا حظوة ومنزلة عند الملكة . وقد اختفت أخباره بعد وفاتها . ويرجع بعض العلماء أنه ذهب ضحية انتقام الملك « تحتمس » الثالث الذى تولى الملك بعدها . وكان فى حياته محبوباً بشخصية هذه الملكة الفذة ويشير المؤلف هنا الى أن سموت هذا رغم مركزه الرفيع كان يحمل هذا اللقب البسيط وهو « ملاحظ الحدائق » (راجع التعليق فى ص ١٧ بخصوص الألقاب) .

شئون الخيل والمشرف على اطعام الكلاب ، وصانع النعال ، وطاهى
قصر الملكة ، ثم رسل القصر الملكي .

وكان فاضى القضاة اهم رجل فى الدولة بعد الوزير عندما
كانت تنفصل الوظيفتان . وكان يحمل لقب فاضى (ساب) محكمه
العدل (زادو) . وليس واضحا ما اذا كان لفظ « ثاتى » Thati
يعنى رئيسا على الاطلاق أم رئيسا فى القضاء فحسب . فقد نزل
« رخميرع » يجلس فى محكمة العدل مع هيئة الروعاء لا لينظر
فى القضايا فحسب بل لينسلم الجزية أيضا . وورد فى انصر
المجاور للرسم لقيين له هما « ساب امرى نخن » و « ثاتى امرى
نخن » فاذا لم يكن اللقب الأخير يحوى لقيين منفصلين فان « ثاتى »
ترادف « ساب » .

القضاة

وكانت محكمة الجنوب تتألف من مجلس السلاطين ويقوم
أعضاؤه باختيار رئيس المحكمة من بينهم . وكانوا يلقبون بالقضاة
العظام (أور) . أما فى الشمال فكان مجلس القضاء يتألف من
ست دوائر تعقد فى « أثيت تاوى » (١) برياسة الوزير . وكانت

(١) مدينة أنشأها الملك « امنحات الاول » مؤسس الاسرة الثانية عشرة
لكى تكون عاصمة للملكه ومعنى اسمها (القابضة على الوجهين) . واطلالها الآن
فى قرية اللشت فى الطريق الى اليوم .

اجراءات المحاكمة تتضمن أن يتقدم المدعى بمذكرة مكتوبة الى المحكمة • ثم يتقدم المدعى عليه بتحرير رد على هذه المذكرة • وكان يصرح لكل من الطرفين بعد ذلك بتقديم رد آخر كتابة على مذكرة الخصم وفي ضوء تلك المذكرات يفصل في القضية • وفي محاكم الجنوب كان يحفظ سجلات تحوى أسماء ملاك المنازل وأسماء أفراد أسرهم ومن يعولونهم • وكان يرأس المحكمة المحلية في كل مدينة أحد القضاة • وذلك في العهود الأخيرة على الأقل وربما كان في العهود الأولى أيضا حيث يرد لقب قاضي (sāh) في مناسبات عديدة بدون اضافة ألقاب أخرى اليه • وكان يوجد عدا ذلك « مفسر القوانين » و « أمين المراسيم الملكية » وغير ذلك من ألقاب وكلها ترجع الى عهد الدولة القديمة وتدل على مدى قدم الوظائف وثباتها خلال عصور التاريخ • ومن الوظائف الصغيرة الثانوية وظيفة « مسجل حسابات المحكمة ومسجل المراجعات الملكية » •

الادارة المحلية

وكان رؤساء الحكومات المحلية يطلق عليهم «حكام المقاطعات» لان اذا ضعف نفوذ الحكومة المركزية قويت شوكة هؤلاء الحكام وكونوا امارات المدن المستقلة • ونجدهم بعد ذلك يسجلون الأحداث الهامة مقرونة بأعوام حكمهم لا بسنى حكم الملك كما هو

العادة • ونظرا لعدم كفاية المعادن النفسية للتداول الواسع النطاق فقد ترك الجانب الأكبر من الأموال الحكومية المقررة في يد السلطات المحلية • ونعني بذلك الضرائب الخفيفة والعوائد الكبيرة • ولم تكن هناك فط مركزية قوية • ولهذا فقد كانت الادارات المحلية مستعدة دائما للقيام بشؤون الادارة غير معتمدة على السلطة المركزية • واذا كان الملك قوى الشكيمة شديد المراس تمسك بحقه في اختيار حكام المقاطعات • وحتى في هذه الحالة كان من المحتمل أن ينحصر الاختيار في نفس أسرة حاكم المقاطعة السابق ولقد حدث مرة أن أحد الحكام مالا أعداء الملك فجرد من منصبه ، وحقت عليه لعنة السماء أبد الآبدين • ولكن يبدو وفقا لما ورد بمرسوم « قفط » أنه لم ينفذ فيه حكم الاعدام • وكان يقيم في كل مقاطعة مندوب ملكي وعدد من المشرفين على أملاك التاج من ضياع وقطعان ماشية •• وكان نسب حكام الأقاليم والمقاطعات ينتمى الى الأم ، ولذلك كان من الممكن لابنة الحاكم أن تتولى شؤون المقاطعة كوصية على ولدها القاصر كما كان الشأن في مثل تلك الحال • وكثيرا ما تشاهد في الرسوم المسجلة على الآثار ملكا قاصرا تصحبه والدته • وكان حاكم المقاطعة يجمع بين هذا المنصب ووظيفة الكاهن الأكبر للمقاطعة في معظم الحالات كما كان الملك كاهن القرابين للبلاد •

وكان الحاكم يرسل مندوبين عنه في كل قسم من أقسام المقاطعة يقومون بما يقوم به الآن مأمورو المراكز • على أن هؤلاء

المأمورين كانوا يقدمون تقاريرهم الى الوزير مباشرة • وفي ذلك بعض الحد من سلطات حاكم المقاطعة •

وكان لكل مدينة محافظ (Prefect) يرعى سسئونها ويعمل لحيرها ورفاهيتها وبلغ الأوامر والتعليمات لكل من يعينهم الأمر • وكان لها أيضا كاتب سجلات يحتفظ بالسجلات الخاصة بالأراضي والمعاملات • ثم قاض أول ورئيس للشرطة (العسس) • ولاشك أن وجود تلك الوظائف يرجع الى عصور قديمة جدا وان كنا لانجدها مسجله بهذا الوصف الا في عهود لاحقة •

الحكم الذاتي في الريف

وكانت ادارة شؤون الأقسام الريفية يعهد بها الى بعض أعيان تلك المناطق ويسمون « سارو » (Saru) أى « الرؤساء » أو السراة (١) وكانوا بهذه الصفة يشبهون أعضاء المجالس القرويه • ولم يكن هؤلاء موظفين حكوميين • وكانوا ينظرون فى دعاوى عقود الايجارات وتقسيم الملكيات والوصايا والمبيعات • وكانوا يصدرن بعض الأوامر والتعليمات بعد التصديق عليها من « مدير الجنوب » ويقوم بتنفيذها الموظفون الحكوميون • وكان هؤلاء الأعيان

(١) اطلق عليهم هذا اللفظ الدكتور سليم حسن لشابه النطق المصرى القديم مع هذا اللفظ . (انظر مصر القديمة ج ٢ ص ٥٦) .

يقومون عدا ذلك بتنفيذ نظام السخرة وجمع الضرائب المحلية .
التي يفرضها عليهم الملك كمجموعات . ومن هذا نرى انه كانت
فى الأقاليم سلطتان متداخلتان :

١ - سلطة محلية وهى سلطة أعيان الريف وهم رؤساء
القرية أو أعضاء المجالس القروية فى الاصطلاح الحديث ومنهم
حاكم المقاطعة .

٢ - وسلطة مركزية وهى سلطة الوزير ومقتشيه فى
المراكز الذين يراقبون أحوال البلاد وينفذون القرارات المحلية .

أما فيما يتعلق بطبقه أولئك الذين كانوا ينهضون بتلك
الواجبات فالمعتقد أن الحكومه كانت تستخدم لذلك موظفين من
الطبقة المتوسطة الدنيا ازداد عددهم عاما بعد آخر حتى أصبحت
وظائفهم وراثية فى عهد الدولة الوسطى . أما فى عصر الدوله
الحديثه فقد كان صغار الموظفين من أسرات الموظفين القديمه الذين
كان يتزايد عددهم يوما فيوما . أما كبار الموظفين فكانوا يؤخذون
من النبلاء . وعلى ذلك نجد ان أفراد طبقة النبلاء من الاقطاعيين
السابقين قد أخذوا يندمجون فى سلك الوظائف الحكوميه . وبذلك
أضمحلت سلطة الحكومه المحليه .

وقد شاهدت كافة عصور التاريخ البشرى ظهور عبافرة
وعظماء من بين الطبقات الدنيا لم يحل دون ظهورهم عرف

أو قانون . وكثير من عظماء المصريين الذين كتبوا تاريخ حياتهم يذهبون الى أن الناس يعتقدون أنهم ينحدرون من أصل وضع لا شيء الا لأن أسماء آبائهم لم ترد في سجل من السجلات ومن هؤلاء سنموت المشهور ، ولعل ذلك كان السبب الأول في قوة بنيان المجتمع المصري . ذلك أنه على الرغم من وجود فوارق كبيرة بين الطبقات فقد كان هناك تسلسل وتدرج يعملان دائما على امتزاج كافة الطبقات . وان مدى اتساع الأقسام الادارية في البلاد كان يختلف باختلاف كثافة السكان ، ففي أقدم عصور ما قبل التاريخ التي يمكننا تتبعها نجد أن عدد المدن التي كانت تصنع من سنبال القمح أشكالا على هيئة أوزير (١) هي أربع في الوجه القبلي وتسع في الدلتا . وفي عصر المملكة الأولى بلغ عدد المدن التي صارت مقدسة لوجود مخلفات من آثار الاله الشهيد أوزيريس (٢) بها ، سبعا في الوجه القبلي وعشرا في الوجه البحري . وفي عصر الدولة القديمة كان عددها ثلاث عشرة بالوجه القبلي واثنى عشرة في الوجه البحري . وفي عصر الدولة الوسطى بلغ عدد المقاطعات اثنتين وعشرين في الوجه

(١) كانت هذه الطريقة يتبعها الرزاع المصريون في الاحتفال بالحصاد وكانوا يصبون الشكال أوزيريس هذه (اله النيل والزراعة) في وسط الحقول ويرفصون حولها ابتهاجا .

(٢) يشير المؤلف بذلك الى قصة «أوزيريس وأوزير» التي ورد فيها ان «ست» الشرير مزق جثة الاله «أوزير» اربا ووزعها على مختلف مقاطعات انقطر المصري وكان المصريون القدماء يحتفظون بأعضاء «أوزيريس» المقدسة في المعبد الرئيسي لكل مقاطعة .

القبلى وتسع عشرة فى الوجه البحرى وفى عصر الدولة الحديثة
قسمت الى اثنتين وأربعين بالوجه القبلى وخمس وعشرين بالوجه
البحرى • وفى العصر الرومانى كان هناك اثنتان وعشرون مقاطعة
بالوجه القبلى وخمس وثلاثون بالوجه البحرى •

أما المديرىات الحالية (المحافظات) فيصلغ عددها سبعا فى الوجه
البحرى وسبعا فى الوجه القبلى وبهذا فقد أصبح حجم المديرىات
كبيرا كما كانت المقاطعات فى عصر المملكة الأولى (١) •

(١) كان ذلك عام ١٩٢٣ وقت تأليف الكتاب أما الآن فأصبح عدد محافظات
الوجه البحرى تسعة (بما فيها مديريةية التحرير) والوجه القبلى ثمانية .

التغيرات الادارية فى العصر الاغريقى الرومانى

ولم يحدث البطالة الا تغييرات قليلة جدا فى التقسيم الادارى للبلاد . واستمر العمل بنظام الوظائف القديمة فى عهدهم ولكنهم أطلقوا عليها أسماء اغريقية . وكان أبرز تغيير فى عهد الرومان اختفاء منصب الملك ، على حين أن الحكام المؤقتين لم يكن يضيهم أمر البلاد أو يهمهم رفاهيتها ولم تتوفر فيهم الكفاية الشخصية التى تمكنهم من الاضطلاع بالمهام الكثيرة التى كان يضطلع بها ملوك مصر فى العهود السابقة . ولم تكن مصر فى نظر الرومان احدى ولايات الامبراطورية وانما كانت تعد ملكا خاصا للامبراطور . فكان يفرض عليها مايشاء من الضرائب ويعامل أهلها وفقا لنزواته الشخصية . وكان الحاكم الرومانى للبلاد يمثل الامبراطور شخصا . وكان خاتمه الذهبى يحمل « الحروطوش » المزودج الخاص

بالامبراطور (١) وعلى ذلك فقد كانت كل وثيقة تمهر بذلك الخاتم تأخذ صفة المرسوم الامبراطورى •• ولا يخفى علينا تلك المساوىء والشورور التى نزلت بسبب غياب الأباطرة عنها • ولم يزرها منهم الا الامبراطور « فسباسيان » والامبراطور « هادريان » • وقد مكث كل منهما فيها بضعة أشهر • أما الامبراطور « أغسطس » فقد حضر اليها فاتحا • وجاء كل من « ماركوس أوريلوس » و « وكراكالا » (السفاح) لاختام الثورات وسفك الدماء •

وكان تدخل الأباطرة « أوريليان ويروبس ودفلد يانوس (٢) فى شئون مصر لمدة قصيرة • وقد اتحصر تفكير امبراطور الرومن فى مدى ما يستطيع الحصول عليه من انتاجها من الغلات للء بطون دهما روما ومدى ما يمكن ابتزازة من أموال المصريين لتحقيق أهوائه الشخصية •

النظيم التى وضعها الرومان حكم مصر

والظاهر أن الحاكم الرومانى كان يقوم بجولة تفتيشيه فى البلاد مرة كل سنة • وكان فى أثناء تلك الزيارات يعمل كأحد

(١) سار أباطرة الرومان على نهج ملوك البطالة فى تشيهم بالعراصة القدمات • وبالنسبة لإباطرة الرومان كانت هذه الأسماء بطبيعة الحال تطلق عليهم فى مصر فقط •

(٢) راجع قائمة التسلسل الزمنى التى أفضاها بهذا الكتاب •

قضاة الاستئناف • وعلى العموم فقد كان في يده من السلطات ما كان للوزير في العهود السابقة • ويمكن القول بأنه قد خلف الوزير فعلا في منصبه • وكان يلي الحاكم في المنصب ثلاثة موظفين من الرومان يطلق عليهم مديرو الأقاليم (Epistrategoi) (١) وكانت اختصاصاتهم تشبه اختصاصات المفتشين (٢) الأربعة (المقررين) الذين كانوا يتجولون في البلاد لموافاة الوزير في العصر الفرعوني بأحوال الأقاليم التي تقع في اختصاص كل منهم • وكان هؤلاء الموظفون الثلاثة في أثناء زيارتهم لأقاليمهم يعملون كقضاة ، ويقدمون للحكومة قوائم الضرائب وكشوف الاحصاء • وقد وكل اليهم اختيار صغار الموظفين من المصريين الذين يعملون تحت اشرافهم • وكان الحاكم المحلي لكل مقاطعة من الرومان أيضا ويشغل نفس وظيفة حاكم المقاطعة المصرية في العصر الفرعوني وكان يطلق عليه (Strategos) غير أن مدة حكمه كانت

(١) كانت مصر في العصر الروماني مقسمة الى ثلاثة اقاليم ادارية هي اقليم طيبة والهيبتانوميا والدلتا أو بعبارة أخرى مصر العليا ومصر الوسطى ومصر السفلى • وكانت كل منهما تخضع لادارة «استراتيجوس» وهذه التسمية ترجع الى عصر البطالة • ولكن في ذلك العصر كان «الابستراتيجوس» قائدا حروبيا أما في العصر الروماني فأصبحت الوظيفة مدنية • ويمكن أن تسمى مدير الاقليم ويبدو أن مديري الاقاليم الثلاثة في العصر الروماني لم يكن لهم مقر دائم كل في اقليمه بل كانوا يديرون أعمالهم من الاسكندرية ولكنهم كانوا يطوفون بأقاليمهم بانتظام .

انظر : Milne, Egypt under the Roman Rule, pp. 125-126.

(٢) راجع ص ٣٦ •

محدودة بثلاث سنوات كى لا يزداد نفوذه ويحاول الاستقلال
بشئون المقاطعة وحتى يمكن لرجال الحكومة المركزية الاثراء عن
طريق بيع مثل هذا المنصب الكبير للراغبين فيه • وكان الحكام
المحلون للمقاطعات يجمعون بينات القضايا أثناء تجولهم فى
المقاطعة ولكن لم يكن يسمح لهم أن يكونوا قضاة ، ولكن يحتمل
أنهم كانوا يقومون بدور الحكم فى كثير من المسائل التى لم تصل
بعد الى دور التقاضى رسميا • وكانوا مسئولين كحكام المقاطعات
قديمًا ومدبرى المديرىات عن تقدير الضرائب وتحصيلها مقابل
تقديم صكوك للممولين عن هذه الضرائب مهما قلت قيمتها ، كما
يتبين من قطع « الأستراكا (١) » التى عثر عليها • وكانوا عدا ذلك
يشرفون على نظم الرى • ولامراء فى انهم تولوا شئون السخرة ••

ان الخوف من اتساع سلطانهم وقوة نفوذهم قد حفز الحكومة
المركزية الى القاء أعباء ثقيلة على كاهل هؤلاء الحكام خلال تلك
السنوات الثلاث من ولايتهم والى التشديد عليهم بتقديم التقارير
عن أعمالهم وفحصها بغاية الدقة • وكان يقيم الى جانب كل من
هؤلاء الحكام من يتجسس على أعماله وتصرفاته فى شخص الكاتب

(١) «الأوستراكا» هى قطعة مصقولة السطح قد تكون من الحجر او الفخار
أو العاج عليها نقوش وكتابات .

أو المسجل الملكي (١) الذى يمثل الحكومة المركزية • وانا نجد منذ عهد الأسرة الثانية عشرة أن هذا المسجل الملكى الرسمى يلازم مسجل المقاطعة ليطمئن على نصيب الملك من الضرائب ، وقد أمتد العمل بهذا النظام فى العصور التالية • وكان الرومان يستخدمون أفراد عائلات حكام المقاطعات القدامى كموظفين لسعه خبرتهم بالشئون المحلية ، وكجباة يبنزون أموال الأهلين فى شكل رسوم وضرائب عقارية وتجارية وغيرها •

وفد أخذت حكومة الرومان بالنظام القديم لتسجيل المعاملات الخاصه وهو النظام الذى كان معمولا به على الأفل منذ عهد الأسرة الثانية عشرة • وربما عمل به قبل ذلك بكثير • فلم يقنصر الأمر على ضرورة تسجيل كافة الوثائق الرسمية بل كان لابد من تسجيل جميع الاتفافات التى برم بين الأشخاص حتى تصير لها الصفه القانونية ونصبح مستندا رسميا • وقد بلغت قيمه التسجيل حوالى أربع بنسات أى ثمن رطل من حديد •

وكان القائمون على شئون القرية أشبه بأعضاء المجالس القرويه ، ويتألفون من نخبة قليلة العدد من رجال القرية البارزين

(١) كانت وظيفة المسجل الملكى ولو أنها مستغلة عن وظيفه حاكم المقاطعه الا أنها أقل منها فى المرتبة وكان المسجل الملكى ينوب عن حاكم المقاطعة فى حاله غيابه ، ويختص بالنواحى المالية فقط ولضمان استقلاله عن حاكم المقاطعة وعدم خضوعه لسلطه فقد أوفقت بعض الضرائب عليه بالاضافة الى مرتبة • ويرجع هذه الوظيفة الى عهد البطالمة •

لرعايه شئون أهل القرية • وكانوا مسئولين عن حفظ الأمن والنظام والتأكد من جمع الضرائب • والظاهر أن مجلسهم الأكبر الذى كان يسمى فى العهود الماضية « سارو Saru » قد أختفى تماما ومن المحتمل جدا أن تلك المجالس قد قضت عليها الأنظمة الصارمة الدقيقة التى أبتكرها محصلو الضرائب ايام البطالة الذين كانوا لا يرغبون فى وجود مجالس بالقرى توازن بين حال قرية وأخرى وكان يختص بالأعمال الرسمية فى القرية كل من كاتب القرية الذى عليه اعداد كشوف الإيرادات للحكومة ومسجل كان يقوم بقيد الناس وكان يزود الكاتب بما يلزمه من أحصاءات ومسجل العقود والمعاملات التجارية •

وكانت قوات الشرطة (البوليس) فى البلاد مستقلة عن الهيئات المحلية كما هو الحال فى الوقت الحاضر • وفى عهد الأسرة الثانية عشرة كان يوجد مدير للشرطة « خوتو » يعاون حاكم المقاطعة وقد زاد العدد فى العصر الرومانى الى اثنين فى كل مقاطعة • ومن ذلك العصر كان رجال الشرطة المخصصون لكل قرية يتولون حفظ الأمن والنظام وتأديب الخارجين على القانون على حين اقتصر عمل الحفراء المحليين على أداء المسائل العادية كالقبض على المتهمين •

الممن الاغريقية التى تمتعت بالاستقلال الذاتى

وقد قام الى جانب هذا الجهاز الادارى العام نظام آخر يتضمن

وجود عدد غير قليل من المدن التي تتمتع بالاستقلال الذاتي وتسكنها جاليات كبيرة العدد من الأجانب ومن المحتمل أن « نقرطيس » (١) كانت أول مدن مصر التي تمتعت بهذا النوع من الاستقلال الداخلي . لقد كانت مدينة أغريقية خالصة ، ولذلك فقد استقلت باختيار حكامها . وكانت الاسكندرية أيضا مدينة مستقلة استقلالاً ذاتياً بطبيعة الحال . فقد كان يستوطنها عدد كبير من اليهود والاعريق منذ نشأتها . وبعد أن قام ملوك البطالمة باسكان عدد كبير من جنود الاعريق في الفيوم أنشأ هؤلاء مدينة سميت «أرسنوى» (Arsinoe) (٢) وكان أغلب القائمين على شئونها من الاعريق . أما مدينة « بطوليميس Ptolemais (٣) الواقعة في الصعيد فكان لها مجلس

(١) أسسها تجار الاعريق في منتصف القرن السابع قبل الميلاد في عهد الملك «إبسماتيك» الأول على فرع النيل الكانوبى ومكانها الحالى «كوم جعيف» بجوار بلدة «نقراش» التي استمدت اسمها منها . وقد بلغ من تمتع «نقرطيس» بالسلطة الذاتية أنها أصدرت عملة محلية خاصة بها في أوائل عصر البطالمة . وكانت نقرطيس الميناء الرئيسى الواقع على الطريق النهري بين الاسكندرية ومنف .

(٢) ذكرها المؤلف Ptolemais ولكن لما كانت هذه المدينة بعيدة عن الفيوم كما سيأتى ذكره . فمن الواضح أنه يقصد «أرسنوى» وهى المدينة التي انشئت في الفيوم .

(٣) بطوليميس « هى ثالث مدينة أغريقية أنشئت في مصر بعد نقرطيس والاسكندرية . وقد شيدت مكان مدينة مصرية قديمة وسميت كذلك تخليداً لذكرى منشئها بطليموس الاول ومكانها الآن قرية النشبية بمديرية جرجا .

محلى وادارة محفوظات • ثم هناك مدينة « أنتينوى Antinoe » (١) وكان لها دستور أغريقى بحت • وبحلول القرن الثالث الميلادى نجد مدنا أخرى عديدة ذات طابع أغريقى قد أتخذت لنفسها مجالس للأعيان تجعلها شبه مستقلة عن النظام الادارى العام فى البلاد مثل « اكسرينكوس Oxyrhynchos (٢) و « هيراكليوبوليس » (٣) •

على أن وظائف مجالس الأعيان لتلك المدن وغيرها يتبين فى جلاء عند دراسة الاختصاصات التى يتمتع بها مجلس هيراكليوبوليس • لقد كان ذلك المجلس يقوم بتعيين كافة الموظفين المحليين للمدينة والاشراف على اعداد الحفلات والبث فى جميع مطالب الحكومة المركزية واقرار كافة المسائل المتعلقة بالتجارة المحلية • وكان يمثل المدينة فى كافة العلاقات القائمة بينها وبين الحكومة المركزية • وأن الأثر العام الذى يتركه هذا الحكم الذاتى فى أذهاننا هو أن كل فرد

(١) مكانها الآن قرية النسيج عباده بمديرية المنيا . اشأها الامبراطور الرومانى هادريان حوالى عام ١٣٢ بعد الميلاد عند زيارته لمصر . وذلك تخليدا لذكرى نديمه «انتينوس» الذى غرق فى النيل فى ذلك المكان • وكان كل سكانها من الاغريق ولذلك كان يغلب عليها الطابع الاغريقى . وقد صممت المدينة طبقا للطراز الاغريقى فى انشاء المدن . ونقل اليها مواطنون اغريق من مدينة بطوليميس وأعطاهها الامبراطور جميع امتيازات المدن الاغريقية لتحقيق استقلالها الذاتى .

(٢) مكانها الآن بلدة «البهنسا» الحالية فى مديرية المنيا .

(٣) مكانها الآن بلدة «أهناسيا المدينة» فى مديرية بنى سويف .

من سكان تلك المدن كان يحاول التملص من الأعمال الشاقة التي تفرضها الحكومة عليهم من غير أن تدفع لهم أجورا عن أدائها • وكانت مناقشات هذه المجالس تطول في غير جدوى وتشعب دون حسم للمسائل المعروضة عليها • وقد تشدد وتخدم فيلجأ الأعضاء الموقرون الى استعمال العنف تارة بالألفاظ وتارة بالأيدي •

نظام الضرائب فى العصور الأولى

ان الضرائب هى قوام الحكومات كلها • وقد تتخذ صورا شتى • فالضريبة على محصول الأرض هى الوسيلة البدائية الأولى التى كان يعتمد عليها كل زعيم • ثم تدرج الأمر الى تقدير الضرائب فى صور شتى • وكانت ضريبة العمل من الضرائب البدائية العادية فكان يقوم الشخص بالعمل عدة أيام للزعيم • ومازال هذا متبعا (فى إنجلترا) بين الطبقات العليا اذ لايزال يكلف القضاة وغيرهم بأعمال مرهقة • وفى النظم الاغريقية والرومانية كان تكليف الأفراد بأعمال لمصلحة المجموع يعتبر من الضرائب الثقيلة • ومن أمثلة ذلك الخدمة فى المعابد الاغريقية وفى الاحتفالات العامة الرومانية • وان وجود مقادير كبيرة من العملة الذهبية أو الفضية فى قطر من الأقطار يؤدى حتما الى أن تكون الضريبة من هذا المعدن أو ذاك • وقد أخذت ضريبة الرأس تتلائم مع حالة الدافع حتى أصبحت معقدة وتحتاج الى طبقة من الموظفين المتخصصين • وكانت الضرائب البدائية

التي تؤدي في صورة محاصيل عينية وخدمات هي السائدة الى عهد الأسرة الثامنة عشرة • ولم تختف تماما حتى في أيام الرومان لأن منح حق استغلال الأرض للأهلين في مجتمع زراعي كمصر انما كان يصدر عادة من الزعيم مقابل تقديم مواد غذائية له أو عوله لمدة أيام معلومة أو مقابل قدر معين من الخنطة أو عدد من الماشية • وكان ذلك النظام سائدا في عصر الدولة القديمة • وكان على جميع عبيد الأرض (Serfs) الذين يعملون في المزارع الملكية أن يؤديوا الضرائب المقررة ، بيد أنه اذا منحت بعض تلك الأراضي الملكية للمعابد أعفيت من الضرائب التي كان يتقاضاها الملك ، وآلت الرسوم الى الكهنة ، وأصبحت دخلا لهم ، ويمكن اعتبار تلك الرسوم ايجارا عاديا كائنا من كان الذي يتسلمها ليفلحها • وكانت الضرائب التي تجبى على المحاصيل الزراعية تسمى « ميزيدو Mezedu أى العصاراة مشبها أياها بالخمير المصور • وقد أخذت صورة مواد غذائية كسلال الحضر والماكولات والأطعمة والخبز وعلف الماشية • وأحيانا في صورة مؤن ومواد مختلفة تقدم لمكتب تسجيل الضرائب ومقادير من كتان وغزل وحبال • وكانت الضرائب تكون أحيانا من المعادن النفيسة وغير النفيسة هي ائمان بيع محاصيل زراعية • وان هذه الضرائب لتدلنا على أننا لانكتب هنا عن مجرد عبيد للأرض ولكن عن مزارعين يملكون ما يزرعون • وقد استمر العمل بهذه الضرائب والايجارات الى عصور متأخرة • ولذلك يمكن القول

بأنه كان معمولا بها في كافة العصور التاريخية وربما كان لها أصول في عصر ما قبل التاريخ •

وان حق استخدام العمال استخداما مباشرا كان لزراعة الأرض الملكية وكذلك لحفر الترعة واقامة الجسور (الترابية) • وكان من حقوق الملك أيضا أن يتمتع القائمون على خدمته وخدمة ممتلكاته بالاعفاء المطلق من رسوم المرور في البحر والبر أى على ظهور الدواب أو السفن • وهو تقليد مألوف في معظم دول العالم ذات النظام الملكي •

الضرائب في عهد الأسرة الثامنة عشرة

ولم يترك لنا التاريخ أى أثر نستدل منه على قيمة إيرادات الدولة المصرية في عهد الأسرة الثامنة عشرة • ولكننا نجد في مقبرة الوزير « رخميرع » من عهد الأسرة الثامنة عشرة قائمة عن الضرائب التي جبيت من اثنتي عشرة مقاطعة من مقاطعات الوجه القبلي « تقدير حسابات ديوان الوزير » وبعض أجزاء هذه القائمة غير واضحة وقد أختفت معالم الأرقام فيها ، بيد أنه يمكن تقدير الأرقام المفقودة في مثل هذه الحالات على أساس متوسط ماورد من أرقام في الأجزاء الأخرى • وبما أن ما تبقى لنا من هذا السجل القيم قد اشتمل على جملة الأتاوات التي أدتها اثنتا عشرة مقاطعة (عدا القدر القليل المفقود) وبما أن عدد المقاطعات في مصر في ذلك العهد قد بلغ حوالي واحداً وأربعين فمن الممكن اذا ضربنا جملة الأتاوات المينة في

السجل في أربعة كان الناتج هو جملة إيرادات الدولة وقتئذ ، وهو ما سنييه فيما بعد . مع العلم بأن نسبة تلك الجملة الى غيرها من أنواع الضرائب الأخرى ليست من المسائل التي يمكن الجزم بمعرفتها .

لقد ورد الجانب الأكبر من الذهب من الجنوب فأسهم اقليم الحدود النوبية بستين « دبناً » (١) وأسهمت المقاطعات الأربع الواقعة جنوبى مدينة طيبة بأربعة وستين « دبناً » بالاضافة الى خمسة وعشرين « دبناً » أخرى « فى شكل خواتم وحببات من الذهب . على حين أسهمت المقاطعات السبع الواقعة شمال طيبة بثمانية وعشرين « دبناً » فقط عدا اثنين أو ثلاثة « دبنات » من حبات الذهب . وقد كان من الواضح أن القدر الكبير الذى ورد من الجنوب قد استخرج من مناجم الذهب هناك . فى حين لم يسهم الذهب المتداول فى المقاطعات الواقعة شمال طيبة بأكثر من أربع « دبنات » عن كل مقاطعة وهذا القدر هو متوسط ما يمكن أن تسهم به كل مقاطعة من الاثنتين والعشرين الموجودة بالدلتا مع اضافة بعض الزيادة تقديراً لثراء منف .

واذن فقد أسهمت كافة أجزاء البلاد فى الدفع الى خزانة الحكومة المركزية بما يقرب من ٣٠٠ « دين » من الذهب (وتقدر

(١) الدين يساوى ٩١ جراما .

فيمته الحالية بحو ٤٠٠٠ جنيه (١) * ويمكننا أن نوازن هذا القدر من الذهب وبقية الغنائم التي أستولى عليها المصريون من الدول المجاورة * لقد جلب تحتمس فى غزوته الأولى للشام ١٧٨٤ دينا من الذهب ومن غزوة الحينين ٣٢٠٠ دين ومن « واوات » (٢) من الذهب ٩٠٠٠ دين تقدر قيمتها بمبلغ ١٢٠٠٠٠ جنيه * وذلك فى مدى خمسين عاما *

واذن فالضرائب من المقاطعات البالغ قيمتها كما رأينا ٤٠٠٠ جنيه فى السنة الواحدة تفوق ما أستولت عليه البلاد عن طريق الغزوات الخارجية * ومن المحتمل أن الجانب الأكبر من الذهب الذى رصدهته الحكومة للتداول كان من الذهب الوارد عن طريق الغزوات * ومهما يكن من أمر فإن جملة هذا الأيراد السنوى للدولة كان طفيفا بحيث لم يكن يفى الا بدفع مرتبات موظفى الحكومة المركزية * وعندما أتسع نطاق استعمال الذهب تضاعفت إيرادات الدولة أضعافا مضاعفة (٣) فى عهدى الاغريق والعرب * وقد قيل أن التقدير الذى ورد فى السجل السابق ذكره انما كان يجيبه الوزير فقط بيد أن ذلك ينطوى على مبالغة كبيرة فهو قدر لا يمكن أن يخصص

(١) لاحظ فى التقدير اختلاف سعر الذهب الآن عما كان عليه عام ١٩٢٣ وقت صدور هذا الكتاب اذ لا شك أن قيمة الذهب قد ازدادت الان أضعافا .
(٢) «واوات» كلمة مصرية قديمة كانت تطلق على النوبة السفلى أى المنطقة الممتدة من أسوان الى وادى حلفا .
(٣) ذكر المؤلف أنها تضاعفت آلاف المرات وهو قول غريب .

لشخص واحد في الدولة ويحتمل أن هذا المبلغ كان يمثل الأيراد
المخصص للإدارة في الحكومة المركزية •

وكانت الفضة في مصر أندر من الذهب وان كانت قيمتها لم
تبلغ شأو قيمة الذهب • وكان مقدار الضرائب التي تجبي فضة
ستين دبناً كما كان مقدار ما جبي منها من غزوات الشام ٣٠٠ دبن •
واذن فقد كانت الفضة قليلة الأثر في الأيرادات العامة وفي
التداول •

أما فيما يتعلق بالماشية طبقاً لما ورد في السجل السابق ذكره
فاننا نجد ٢٠٠ ثورا و ٢٤٠ عجلاً صغيراً و ١٢ بقرة فقط • وهذا
يدل على أن ذلك العدد من الماشية لم يكن المقصود به أن يضاف الى
القطعان الملكية وانما لغرض الذبح • ويرجع السبب في قلة عدد
الأبقار الاناث في القائمة الى تحريم ذبحها • وبما أن هذا العدد
المحدد من الماشية الوارد في البيان آنف الذكر لم يكن يسمح بذبح
أكثر من ثور واحد أو عجولين صغيرين في اليوم الواحد خلال العام
فقد دل ذلك على أن هذا العدد من الماشية كان معداً للاستهلاك
المنزلي ولم يكن القصد منه المشاركة في الأيراد العام للدولة • وقد
ذكر في السجل أيضاً ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ حمامة أي بمعدل ٦ أو ٨
حمامات في اليوم الواحد وهو زيادة ضئيلة في المؤونة • ولم يرد
في السجل أي ذكر لأوز من أي نوع • ولعل ذلك راجع الى أن
هذا الطير لم يكن ينقل من مكان الى آخر وانما كان يربى محلياً •

وكانت الأناوات من الغلال قليلة وقد بلغت ١٤٠٠ رطل من الحنطة و ١٦٠٠ رطل من الشعير لعمل الجمعة و ٣٠٠٠ رطل من الذرة (١) وهى جملة قدرها ٦٠٠٠ رطل • وهذا يدل على متوسط يومى قدره ١٦ رطلا • ويحتمل أن تلك المقادير القليلة لم تكن الا لبعض الموظفين المحليين الذين كانوا يعطون الأهالى الموردين ايصالات بها وتحسب مما عليهم من ضرائب • وقد ورد ذكر مقادير طفيفة من الخبز المصنوع من لب ثمر الدوم • ومن الغريب أنه لم يرد ذكر للبلح ضمن محتويات القائمة المذكورة • غير أننا نلاحظ من الصور أن اقليم الحدود ومنطقة دندره قد أسهما بعدد من (الغرائر) شدت بحبال من الليف على طريقة تعبئة البلح فى الوقت الحاضر ويغلب على الظن أن محتويات تلك الغرائر كانت من البلح • وكانت مقادير البلح على أية حال طفيفة جدا • ولعل انتاج البلح من بساتين النخيل بالمزارع الملكية كان كافيا لسد حاجات البلاد الى حد كبير والظاهر أنه كان هناك عدا ذلك حوالى ٦٠ جرة من عسل النحل • ولما كان العسل المادة السكرية الوحيدة وقشذ لصناعة الحلوى وتحلية النبيذ فان هذا العدد من جرار العسل لم يكن كافيا لمنشأة واحدة •

هذا هو كل ما ذكر عن المواد الغذائية والمعادن بنفسه • ومنه

(١) المقصود بهذا الذرة الرفيعة (العويجة) وكانت معروفة فى مصر والعالم القديم أما الذرة الشائعة الآن فى العالم فهى الذرة الشامية • وهذه لم تعرف الا بعد كشف امريكا •

يتضح أنه لم يكن هناك زيادة عما كانت تتطلبه حاجات الموظفين الإداريين بالحكومة المركزية • بل أن إنتاج المزارع الملكية قد أسهم في سد بعض تلك الحاجات • وليس لدينا دليل على تقديم أتوات كالدوتة بالقائمة للملك خاصة فيما عدا ما كان يحصل عليه من ضرائب عينية معتادة من الماشية والمحاصيل • ولقد كانت أسلاب الغزوات الخارجية هي المورد الذي أمد الدولة بمقادير الذهب والفضة التي استعملت في صنع الزخارف وأدوات الزينة والأواني التي ازدادت بها القصور الملكية والمعابد • ولم يحدث قط أن اعتمدت الحكومة المركزية في نفقاتها كلها على رصيد مركزي • وكان ما يفرض من ضرائب ورسوم يقصد به دفع رواتب موظفي الحكومة المركزية ولا يحمل معنى ما نسميه الآن بالايادات العامة للدولة • وكانت أهم مصروفات الدولة وهي نفقات الجيش تدفع محليا • وكان هذا الجيش يتألف من أربع فرق وهي : فرقة «أمون» من مجندى الوجه القبلى • وفرقة «بتاح» من منف وفرقة «رع» من جنوبى الدلتا وفرقة «سوتخ» من شمالى الدلتا • ولاشك أن عبء تجنيد هذه الفرق وتزويدها بكافة العتاد اللازم كان يقع على كاهل السلطات المحلية •

تقدير الضرائب

ولقد عنت الحكومة في عصر الدولة الحديثة بتحسين مركز البلاد وزيادة ثروتها وبدلنا التوسع في تقسيم المقاطعات أقساما

صغيرة في ذلك العهد على الاتجاه لبذل عناية أكبر للنهوض بالشؤون الادارية في الدولة . لقد كانت الحكومة هم بتقدير قيمه كفيه الأراضي سنويا مع استثناء الأراضي الموقوفة على المعابد . وذلك لتقدير الضرائب المناسبة عليها وهي ضرائب كانت تتفاوت تبعاً لارتفاع فيضان النيل ومقدار المحصول الذي تنتجه الأرض ويرجع هذا النظام في تقدير رسوم الضرائب على الأرض وفقاً لحالة فيضان النيل الى عهد الأسرة الأولى ، وان لم يكن قبل ذلك . لأن ارتفاع ماء الفيضان كان يقاس بدقة عظيمة تصل الى $\frac{1}{4}$ من البوصه . وكان ذلك الارتفاع يسجل في الحوليات (١) الوطنية سنويا . ومن المؤكد أن هذا التسجيل الدقيق لحالة الفيضان لم يكن ليتم الا لغرض هام وخطير (٢) . ولم تقتصر الحكومات المتعاقبة على تسجيل الأراضي

(١) كان المصريون يسجلون الحوادث طبقاً لسي حكم ملوكهم فيكتبون الأحداث التي وقعت في حكم ملك سنة بعد أخرى . وكانت هذه الحوليات بوعين :

(أ) حوليات الملوك وهي التي يسجل فيها الفراعسة حوادث حروبهم واحتفالاتهم . ومن أمثلتها حوليات الملك تحتمس الثالث المسجلة على جدران معبد الكرنك .

(ب) والحوليات الوطنية وهي التي كان يسجل فيها أسماء الملوك الذين تبايعوا على حكم البلاد والحوادث التي وقعت في زمن كل منهم . ومن أمثاله هذه الأخيرة حجر «بلرمو» المشهور الذي سجل فيه أسماء الفراعنة منذ عصر ما قبل الأسرات حتى منتصف الأسرة الخامسة مع بيان الحروب والأمجاد الملكية والمدنية والاحتفالات وتأسيس المعابد والمدن والسائى التي أقامها الملوك . وتسجيل ارتفاع فيضان النيل في كل سنة .

(٢) الغرض من ذلك بطبيعة الحال هو الاستعداد للفيضان من ناحية وتقدير الضرائب من ناحية أخرى .

عامة بل كانت تسجل كذلك مختلف الضياع وعدد الأفراد الذين يقيمون في كل منها . وكانت الضرائب بطبيعة الحال عينية . وكانت تبلغ ١٠ المحصول . وكانت تلك الضرائب كما رأينا لا يبعث بها الى الحكومة المركزيه وانما كانت تصرف في سد نفقات الادارة المحلية والجيش . على أنه كان هناك لون من ضرائب الدخل المهنية ينقضاها الوزير من الموظفين كل بحسب منصبه . وقد رفع « حور محب » (١) تلك الضريبة وكان يهدف من وراء ذلك الى معاضدة الموظفين المدنيين له وازعاف نفوذ الوزير الذي كان يرى فيه رجلا خطرا على مركزه بعد أن أضمحل نفوذ أتباع « آتون » (٢) وسادت صفوفهم الفوضى والارتباك . وقد قدر حور محب أن مثل هذه الضريبة لن يزيد مع مرور الزمن من قوة هؤلاء الموظفين اذ من الممكن خصم قيمتها من رواتبهم . والظاهر أن ما لجأ اليه هذا الملك

(١) ملك مشهور في التاريخ بأصلاحاته . حكم مصر بعد احاطون وخلفائه الضعاف وكانت البلاد قد عانت من الفوضى الداخلية والفساد والرشوه . فقام حور محب بحملة تطهير واسعة في الأداة الحكومية واصدر قانونا يتضمن أنظمة تشريعية واجراءات ادارية منها فرض عقوبات صارمة على الموظفين ورجال الشرطة الذين يضطهدون الفقراء أو يشبه عليهم الرشوة ، وتشجيع الموظفين ذوي السيرة الحميدة ، والاغداق على الموظفين المسؤولين ، بالرواتب والعطابا حتى لا تنسد ايديهم للرشوة . ويعتبر حور محب صاحب الثورة الاصلاحية الأولى في التاريخ القديم .

(٢) هم الذين اتبعوا الملك « اخناتون » في عبادة الهة « آتون » (ومعناه القوة المثلثة في قرص الشمس) وبعد وفاة هذا الملك اضطهدوا وتشتتوا وقضى عليهم .

كان وسيلة ماهرة لنقل هذا الكسب بطريقة بارعة من يد الوزير الى يده .

وكان تقدير الضرائب من اختصاص المفتشين الملكيين الملحقيين بالقصر الملكي ، اذ كانوا يفومون بثمانين الأراضى وغيرها من العقارات ويقررون الضرائب المناسبة عليها . وكان النظام المتبع لضبط عملية تحصيل الضرائب ينضمن اعداد تقارير شهرية يبعث بها جميع الموظفين المحليين المختصين الى الوزير متضمنة كافة صكوك التوريد والنققات ومصحوبة ببيانات عن حالة مياه النيل ، اذ تقرر على ضوءها الضرائب فى السنوات التالية . هذا وقد اتخذت كافة الوسائل والسبل الممكنة لمراعاة الموازنة بين الإيرادات والمنصرف وكان من الممكن تدبير النققات المطلوبة من أقرب مراكز التمويل الحكومية . وقد كان جميع الغزاة الأجانب ينقلون مقر حكمهم الى مصر وهذا كان شأن برابرة الأسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة (١)

(١) يقصد المؤلف بالبرابرة من غير شك الهكسوس الذين غزوا البلاد فى فترة الانحلال الذى أعقبت سقوط الدولة الوسطى . اذ كان المصريون يطلقون على الهكسوس اسماء كريهة كالبرابرة والطاعون والوباء ولكن هناك ناحية غامضة فى عبارة المؤلف وهى انه يقرب حكم البرابرة او الهكسوس بالاسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة . لان المعروف فى التاريخ أن حكام هاتين الاسرتين هم الملوك الوطنيين الذين طردوا الهكسوس من مصر وأسسوا الدولة الحديثة . ولاشك ان المؤلف يقصد الاسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة وهما فقط الاسرتان اللتان تكونتا من ملوك الهكسوس كما ذكر المؤرخ المصرى مانتون .

والبوسطيين (١) الذين أسسوا الأسرة الثانية والعشرين والنوبيين الذين وان كان ملوكهم قد بقوا فى « نباتا » (٢) ، الا أنهم أسسوا فى مصر الأسرة الخامسة والعشرين التى كان يتولى الحكم فى مصر فى أثنائها ولى العهد . ولكن الامبراطورية الفارسية كانت الدولة الأولى التى تغزو مصر وتفرض عليها جزية ترسل سنويا الى فارس (٣) . وقد بلغت تلك الجزية السنوية ٧٠٠ وزنة (٤) من الفضة أى ما قيمته ١٦٠٠٠٠ جنيه . على أن هذا المبلغ كان طفيفا

(١) اليوسطيون هم سلالة الليبيين الذين استوطنوا اقليم اليوم ثم اغتصبوا ملك مصر وأسسوا الاسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ - ٧٤٥ ق.م) وكان ذلك على يد أحد أفراد سلالتهم وهو الملك «ششلق» الأول . وقد أطلق عليهم «البوسطيين» بسبب اتخاذ عاصمة ملكهم «بوسطه» أو تل بسطه بالقرب من الزقازيق الحالية .

(٢) كان أجداد هؤلاء الملوك فى الأصل مصريين من سلالة كهنة آمون الذين فروا من مصر نحو الجنوب هربا من اضطهاد ملوك الليبيين واستقروا حو نباتا حيث تمكن احفادهم من تأسيس مملكة بلغ من قوتها أن أحد ملوكها وهو الملك «بمنخي» تمكن من غزو مصر والقضاء على الملوك الأجانب الذين كانوا يتنازعون على عرشها ، ولكنه لم يستقر فيها على عادة الغزاة الآخرين بل عاد الى نباتا بعد أن عين أخته «أمنديس» أميرة ديبية على طيبة . وظل ملوك النوبة يحكمون من نباتا وبعيئون بين الحين والحين لاستعادة نفوذهم حتى نقل «تاتوت آمون» العاصمة من نباتا الى منف .

(٣) يجدر هنا التنويه بأن الآشوريين سبقوا الفرس فى هذه الناحية اد تعرضت البلاد لغزوات الآشوريين قبل مجيء العرس بحوالى ١٥٠ عاما . وخضعت مصر لسultan « آشور بانيبال » ملك آشور ودفعت له الجزية . وكان فترة سيطرة الآشوريين كانت قصيرة جدا .

(٤) الوزنة أو «الطالنت» اليونانية تساوى حوالى ٢٤٠ جنيها .

بالنسبة لموارد البلاد المصرية • الا أنه مع ذلك كان يزيد عما أعتاد الوزير المصرى أن يجمعه في العهود السابقة • هذا بالإضافة الى أنه كان يصرف خارج مصر • ولذلك لم تنفع منه مصر • على أن قيمة هذه الجزية وهى كما رأينا قيمة معتدلة فيها الدليل على أن الضرائب التى فرضها الفراعنة على البلاد فى العصور السابقة لم تكن باهظة والا لأتخذت حصيلة تلك الضرائب مقياسا لتقدير الجزية التى فرضها الفرس على البلاد •

ثقل الضرائب فى عصر البطالمة

على أن عبء الضرائب كان أثقل كثيرا فى العهد البطلمى والسجل الوحيد الشامل الذى لدينا عن تلك الضرائب يرجع الى أواخر ذلك العصر الذى لم تكن حالة البلاد فيه مزدهرة • فقد بلغت جملة إيرادات الدولة أيام « أوليتس » (١) ١٢٥٠٠ وزنه من الذهب أى ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنيهات (٢) وكانت مصر أيام حكم الرومان طبقا لتقدير « استرابون » أكثر غنى وإيراداتها العامة أعظم قدرا • وكان الحصول على الإيرادات فى عهد البطالمة يتحقق بطريقة تتطلب المبالغة التامة فى التحرى والاستقصاء

(١) « أوليتس » معناها الزمار وهو اسم التهكم الذى أطلقه أهالى الاسكندرية على الملك بطليموس الحادى عشر (٨٠ - ٥٢ ق.م) والد الملكة كليوباترة بسبب هوايته النفخ فى الزمار •
 (٢) طبقا لسعر الذهب عام ١٩٢٣ •

والتفتيش مما أسستدعى وجود جيش عرمرم من الموظفين الدين لانفع فيهم للبلاد للقيام بتلك المهمة ، ونجد فى الوثائق البردية من عصر « فيلادلفوس » (١) عن الايرادات المتصلة بضريبة الزيت فقط كيف كان يتحتم على الأهلين الالمام بطائفة عديدة من التعليمات والتوجيهات لأداء الرسوم المقررة على حاجاتهم المنزلية من الزيت • فكان المفتشون يدخلون المنازل ويقومون بجرد محتويات المطابخ للتأكد مثلا من أن الزيت الذى يستعمله أهل البيت ليس من الزيت الحر التداول وانما ينبغى أن يكون من الزيت الخاضع للضريبة • واذا عرفنا أن كل هذا التدقيق تطلبه الفحص عن رسوم سلعة واحدة أصبح من السهل أن تصور ذلك الجهد الكبير الذى كان ينفق فى التحرى عن كل نوع من أنواع الرسوم والضرائب •

رانب الأراضى

وكانت الضرائب المقررة على الأراضى الزراعية تختلف بطبيعة الحال تبعا لحالة ملكيتها فقد أعفيت أراضى الكهنة من الضرائب بينما بلغت الضريبة على الأراضى التى يملكها المزارعون من المواطنين الأحرار $\frac{1}{6}$ جملة المحصول • وكان مستأجرو الأراضى والضباع الخاصة بالملك يؤدون ايجارا كبيرا • وكان على عبيد الأرض أن

(١) هو بطليموس الثانى وحكم من ٢٨٥ الى ٢٤٧ ق ٢٠ •

يقدموا الجانب الأكبر من المحاصيل التي يقومون بانتاجها الى ملاك الأرض سواء أكانوا من المزارعين الأحرار أم الكهنة أم الملك .

ضرائب الماشية

وكانت الضرائب تفرض على رعوس الماشية منذ العصور الأولى . . وفى عهد الأسرة الثانية اتبع نظام احصاء الماشية مرة كل سنتين . ومن الواضح أن الغرض من هذا الاجراء هو الحصول على نصيب الحكومة كاملا . وفى عهد الأسرة الثانية عشرة كان احصاء الماشية يتم مرة كل سنة وكان « أمير بنى حسن » يحصل على ٣٠٠٠ رأس من الماشية سنويا من مقاطعته كضريبة مستحقة للحكومة . وكانت الضرائب تقرر أيضا على مصائد الأسماك فى البلاد . غير أنه لا يوجد لدينا سجلات فى هذا الصدد الا من عصر الحكم الفارسى . فقد كان ايراد الرسوم على مصائد الأسماك فى بحر يوسف عند مدخله بالقيوم يصل الى « وزنة » من الفضة فى اليوم الواحد . وذلك لمدة ستة أشهر من كل سنة و في ذلك الايراد بقية أيام السنة . وهو ايراد يبلغ فى جملة ٢٤٠ وزنة من الفضة سنويا . وهذا القدر من الايراد يبدو مبالغا فيه ويصعب تصديقه ولا يمكن تحقيقه الا اذا كان الصيد قد منع منا باتا على طول مجرى بحر يوسف حتى يمكن تركيز جمع الرسوم كلها فى مكان واحد .

الضرائب في عصر الرومان

وكانت الغاية الأولى من جمع الضرائب أيام الرومان الحصول على أكبر قدر منها لصالح الامبراطور الروماني الذي كان يقيم بعيدا عن مصر • وقد أدت تلك الوسيلة البشعة في مدى فرنين من الزمان الى افقار البلاد وقيام ثورات منها ثورة بوكوليا (1) Ducolic War وقد استمر هذا الضعف على موارد مصر حتى لنجد أن أحط أنواع العملة المتداولة قد أختفت من الأسواق ورجعت البلاد القهقري الى طريقة المقايضة البدائية • فلا عجب اذن وقد انتحدرت حاله البلاد الى هذا الخضيض أن يرحب المصريون بقدوم الفاتحين العرب بغيه التحرر من قسوة محصلي الضرائب من البيزنطيين • وكان الامبراطور الروماني الغريب عن البلاد هو الذي يقرر عاما بعد آخر جملة ما ينبغي تحصيله من أهل مصر من الضرائب • وكانت أوامر الامبراطور تبلغ الى حاكم مصر فيبلغها فورا الى حكام الأقاليم الثلاثة وهؤلاء يبلغونها بدورهم الى حكام المقاطعات الذين يجيئون الضرائب المطلوبة من القرى •

وكانت أهم أنواع الضرائب ضريبة الخنطة التي لا بد من ارسالها الى روما • وكان على أهل كل قرية أن يقوموا متضامنين

(1) قام بها الفلاحون ورعاة البقر الذين كانوا يستوطنون المستنقعات الواقعة شرق الاسكندرية المعروفة بمنطقة بوكوليا • وذلك عام ١٧٢ م في عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس •

بنقلها من القرية الى مركز التسليم بالاسكندرية • وكانت الأراضي التي لاتزرع حبوبا تؤدي ضريبة نقدية عن انتاجها من الكروم والتين والبلح والزيتون وغير ذلك مما قد تنتجها الأراضي • وكانت السلطات المحلية نفسها تتولى عدا ذلك تحصيل العوائد على المنازل وغيرها من المنشآت • وقد تعرضت مصر عدا ذلك لمزيد من الضغط والعنف من جانب روما ، فقد كان هناك موظف كبير من قبل الامبراطور يسمى « نائب الامبراطور Idiologas همه الأكبر أن يرعى مصالح الامبراطور وأن يطمئن على أن الجهاز الادارى يسير فى البلاد دون أن يعتريه ضعف أو خلل • فقد يكون لدى الحاكم العام من كثرة الأعمال وتنوعها وما قد يتراعى له من مقتضيات الأمن والنظام أو حالة البلاد العامة ما يحمله على التساهل فى تحصيل الضرائب المفروضة • فاذا حدث شيء من هذا من جانبه فهناك نائب الامبراطور الذى كان لتعيينه من قبل الامبراطور مباشرة صفة الاستقلال عن الادارة فى مصر • وقد كان النائب يكرس وقته وجهده فى أمر واحد هو الحصول على المال ولاشياء غير المال ، وذن مراعاة لأية اعتبارات أخرى • وأخيرا نجد أنه عملا بقانون الاصلاح الذى أصدره (دقلديانوس) قد تقرر سحب مهمة تحصيل الضرائب من يد الحاكم العام وعهد بها الى نائب الامبراطور الذى أصبح مستقلا تمام الاستقلال عن الادارة المدنية فى البلاد • وكان نائب الامبراطور هو الذى يشرف على ادارة الأراضي المملوكة للحكومة

أو لشخص الامبراطور أو المرهونة لقاء ديون مستحقة للدولة .
وكذلك على الأراضي التي ليس لها ملاك معروفون . وكان يساعده
في عمله موظف آخر يسمى « الديوكيتس » (٢) (Dioketes)
ويعمل تحت امرته نفر من الموظفين يحمل كل منهم لقب وكيل .
(Epipelropes) وكان من الممكن التصرف في الأراضي التي ليس
ملاك بالبيع في أى وقت من الأوقات كما بيعت أراضى الدائرة
السنية أيام أسرة محمد على .

وكانت المحاجر والمناجم فى البلاد تعتبر من أملاك الامبراطور
الخاصة . وتتولى الحكومة ادارتها وتسخر فى العمل بها المساجين
تحت حراسة مشددة كما يحدث الآن فى محاجر « البازلت » فى
أبى زعبل شمال القاهرة . وقد أدخل تعديل خاص على اعفاء
ممتلكات المعابد من الضرائب . ويحتمل أن تكون الحكومة قد
كشفت عن تهرب بعض ملاك الأراضي من الضرائب بالتواطؤ مع
الكهنة . ولذلك قامت الادارة بفرض الضرائب على أراضى المعابد
أسوة بغيرها من الممتلكات على أن تقدم الحكومة فى مقابل ذلك
بعض المنح للصرف منها على شئون المعابد . وكان من أثر هذا

(٢) كان الديوكيتس فى عصر البطالمة هو وزير المالية . وكان يتمتع بسلطات
واسعة لأنه كان المشرف الأول بالنيابة عن الملك على الشؤون المالية فى الدونه .
ولكن هذا اللقب تطور فى العصر الرومانى فأصبحت وظيفة الديوكيتس أقل فى
المرتبة من وظيفة الحاكم الرومانى لمصر ومعادلة لوظيفة نائب الامبراطور . وصار
من مهامه الاشراف على الاشغال العامة .

الاجراء اخضاع الكهنة لنفوذ الحكومة التي هي مصدر ما يتمتعون به من منح والتي كان يعينها الابقاء عليهم واكتساب وفائهم وتمضيدهم لها *

وقد فرضت ضرائب على حركة المرور في النيل تؤديها السفن المتجهة نحو الجنوب عند نهر « شيديا » (١) (Schedia) والآتية من الجنوب عند « هرموبولس » (٢) (Hermopolis) وكانت تلك الضرائب شبيهة بالرسوم النهرية التي كان خديوى مصر يفرضها عند مرور السفن بكبارى السكك الحديدية وكان الغرض منها تحويل حركة التجارة الى السكك الحديدية *

وكانت المكوس تفرض على السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر ويتم تحصيلها في مدينة فقط بطريق الالتزام * وكانت

(١) شيديا أو سخديا : نهر نهري قديم مكانه الآن قرية النشو البحري الواقعة شمال كفر الدوار . وكانت تقع عند ملتقى ترعة شيديا القديمة التي حفرها البطالة لامداد مدينة الاسكندرية بالماء العذب بفرع النيل الكانوبى الذى جف الآن . هذا ويكاد يتفق مجرى هذه الترعة مع مجرى ترعة المحمودية الحالية في جزئها الغربى . كما كانت ترعة شيديا تصب في الميناء الغربيه مكان مصب المحمودية الحالى .

(٢) هرموبوليس : الاسم الاغريقى لقرية الاشمونين الحالية الواقعة شمال غرب ملوى . وكانت في العصر الاغريقى مدينة زاهرة تمتد حدودها حول مساحة كسرة من الأرض تصل الى النيل . أما اليوم فهى قرية صغيرة تبعد عن النيل * ومعنى اسمها مدينة هرمز وهو اله العلم عند الاغريق الذى يعادل الاله تحوت المصرى معبود هذه المدينة . هذا وكلمة الاشمونين أصلها من الكلمة القبطية «شمون» ومعناها (ثمانية) لأن الاله تحوت كان يعبد مع ثمانية آلهة في هذه المدينة .

فئاتها تعلن للجمهور معنا من ابتزاز أموال الناس • وفي البحر الأحمر كانت ضرائب الرعوس تجبى على البحارة وعلى النساء أيضاً ويبلغ قيمتها عدة شلنات • أما ضرائب النقل فكانت بسيطة • وكانت ضريبة الرعوس تفرض على المصريين بين سن الرابعة عشرة والستين • ويستثنى منها بعض الطبقات التي تتمتع بامتيازات خاصة كالرومان والاسكندريون وسلالة الضباط الاغريق ممن أستوطنوا مصر وبعض كهنة المعابد • ومن حين لآخر كان هناك الى جانب ضريبة الرعوس نوع آخر من الضرائب سمي « تبرعات خيرية » أو « ضريبة التاج » وكانت في الأصل مساهمة مالية من جانب سكان البلاد لشراء اكليل من الذهب يقدم للحاكم الروماني عند ما يتقلد منصبه الجديد في مصر • ولكن هذا النوع من التبرع الاختياري اتخذ بمرور الزمن شكل ضريبة تشبه ضريبة « بشائر الفاكهة » التي كانت تفرض على زوار الكنائس • وكانت الحرف المختلفه تخضع لضريبة الدخل وتقدر على أساس المتحصلات الشهرية • واذن فقد كانت في الواقع ضريبة مهنية بصرف النظر عن الأرباح الناتجة ولعل هذا الاجراء الشاذ قد شجع القوم على أتباع نظام المقايضة في معاملاتهم اذ لم تكن تلك الطريقة في المبادلات خاضعة لأية ضريبة بل انها في الواقع حلت محل العملة التي تدهورت قيمتها وقتئذ •

وكانت هناك ضرائب على بيع الأملاك بنسبة ١٠ من قيمة

العقار • وعلى التركات بنسبة يـ من قيمة التركة • ومنلها عند عتق الأوقاف • ورسم طفيف قدره . على تسجيل الوثائق الرسمية وكانت الغرامات التى توقع فى حالة الاخلال بالعقود المبرمة لاتدفع الى الجانب الذى وقع عليه الضرر وانما تورد الى خزينة الدولة • ولاشك أن هذا الاجراء كثيرا ما شجع طرفى النزاع على حسم الخلافات والوصول الى اتفاق قبل اللتجاء الى المحاكم •

ولقد أدت صعوبة تحصيل تلك الضرائب المتنوعة الى أتباع نظام الالتزام بما فيه من مساوىء ومنها استقلال الأهالى فى الارشاد عن المتهرين من دفع الضرائب • وكان الالتزام معمولا به فى عصر البطالة • ورغم أن هذا النظام كان فى صالح الحكومة الا أنه ادى الى ارتكاب مساوىء مروعة فقد كانت الأطماع والمصالح الشخصية للملتزم الذى كان يستند الى مساعدة السلطات الرسمية تدفعه الى استعمال منتهى الضغط والعنف مع الأهلين لجمع الضرائب •

الفصل الثالث

الحسنات والسيئات

الحسنات والسيئات

ان النصوص التي كان حقا على موني المصريين القدماء تلاونها يوم الحساب ، منكرين فيها ارتكابهم لبعض الخطيئات ، ومبرئين من اقترافهم لبعض السيئات ، لخير بيان عن اعتقادهم فيما كان ينبغي أن يكون سلوك الناس وأخلاقهم . وقد تضمنها الفصل الخامس والعشرون بعد المائة من الكتاب المسمى كتاب الموتى (١) * وقد سميت خطأ الاعتراف الانكارى *

(١) كتاب الموتى هو مجموعة لغائف من أوراق البردي تحوى نصوصا وتعاويد وأدعية وصلوات ، كان الغرض منها طرد الأرواح الشريرة من مقبره المتوفى ، وتسهيل الطريق له الى العالم الآخر . وقد سمي كذلك للعنود على نصوصه في مقابر الموتى منذ عهد الدولة الحديثة . والفصل الخامس والعشرون بعد المائة من هذا الكتاب يوضح طريقة محاكمة المتوفى على ما قدمت يدها فى الحياة الدنيا من خير أو شر ، أمام محكمة العدل الإلهية ، التي يرأسها الاله أوزيرس أمام الموتى ، وتتكون هذه المحكمة من ٤٢ قاضيا ، وللمتوفى ان ينكر اقترافه أية خطئة أمامها ، فتكلف أحد أعضائها أن وزن قلبه =

ولقد تعرض فصل « انكار الخطايا » أو اعلان البراءة لكثير من التغيير والتبديل على يد الناشرين والمؤلفين ، فكاتب يعيد ترتيب فصوله ، طبقاً لأرائه الخاصة ، ويحذف ما يستعصى عليه فهمه فيها ، وآخر يلتزم ترتيبها الأصلي ، ولكنه يحذف ما لا يحلو له .
واليك النص كاملاً من غير حذف أو تغير .

وهي مقسمة مجموعات ، عدد فقرات كل مجموعة منها خمس . وقد يكون علة هذا التنظيم تيسير حفظها بالاستعانة بالعد على أصابع اليد الخمسة (١) .

السلوك العام

- ١ - لم الحق ضرراً ما بأى إنسان .
- ٢ - ولم أعمل على اشقاء حيوان .
- ٣ - ولم استبدل السيئة بالحسنة .
- ٤ - ولم أعرف الشر ، ولم أعمله .
- ٥ - ولم أقدم مصلحتي الخاصة على واجبي .

= بميزان (١) للتأكد من صدقه ، فإذا كان صادقا دخل جنة أوزيريس يستمتع بما فيها مما تشتهي النفس الى الأبد ، أما اذا ثبت كذبه ، فإنه يلقي به الى حيوان مفترس ، يؤتى به لهذا الغرض ، فيلتهمه ، أو يلقي به فى النار .
(١) كان يوزن قلب المتوفى بوضعه فى كفة الميزان ، ويوضع فى الكفة الأخرى ريشة ، فإذا خفت كفة قلبه كان صادقا ، أما اذا ثقلت فيكون من الكاذبين .

العمل الصالح

- ٦ - لم يشكنى أحد لرب الأسرة *
- ٧ - لم ألعن الآلهة *
- ٨ - لم أسع الى اشقاء انسان ، أو أتسبب في فقر أحد *
- ٩ - لم ارتكب ما يفضب الاله *
- ١٠ - لم أحرص خادماً على عصيان سيده *

انكار اقرار السيئة وارتكاب الظلم

- ١١ - لم أتسبب في مرض أحد *
- ١٢ - ولم أتسبب في بكاء أحد *
- ١٣ - ولم أقتل *
- ١٤ - ولم أحرص على قتل أحد *
- ١٥ - ولم أتسبب في حرمان انسان من حق له *

الواجبات الدينية

- ١٦ - لم انقص من قرايين المعابد *
- ١٧ - ولم أسرق الفطائر المقدسة التي تقدم للآلهة *
- ١٨ - ولم أسلب خبز الموتى الأمجاد *
- ١٩ - ولم ارتكب الفاحشة في حرم الآلهة *
- ٢٠ - ولم أدنس نفسي في حرم الاله *

- ٢١ - لم انقص كيل الخنطة *
- ٢٢ - ولم انقص المقياس (راحة اليد) (١) *
- ٢٣ - ولم ارتكب الغش فى الحقول *
- ٢٤ - ولم أطفف فى الميزان *
- ٢٥ - ولم أتسبب فى فقر أحد بالتلاعب فى الميزان *

احترام حقوق الآخرين

- ٢٦ - لم اختطف اللبن من فم الرضيع *
- ٢٧ - ولم أطرده الماشية من مراعيها *
- ٢٨ - ولم أقتص الطيور من رحاب الآلهة *
- ٢٩ - ولم أصد السمك من بحيراتهم *

انكار أعمال التخريب

- ٣٠ - لم أصد الماء فى موسم جريانه ، ولم أقم سدا فى مجراه *
- ٣١ - ولم أطفى شعلة فى وقت الحاجة اليها *
- ٣٢ - ولم أخالف الحدود بتناول اللحوم فى غير الأيام المخصصة لتناولها *

(١) راحة اليد : مقياس كان مستعملا فى مصر القديمة ، يبلغ سبع ذراع
أى حوالى سبعة ونصف سم *

٣٣ - ولم أطارد الماشية وغيرها من الحيوانات المقدسه .

٣٤ - ولم اعترض على ارادة الله .

وان من يفحص عن هذه الوحدات أو الفقرات يتضح له أن بعض المعاني قد تكررت أكثر من مرة ، وان نظام الحماسيات محافظ عليه عدا الفقرة الخامسة في احترام حقوق الآخرين التي أغفلها المترجمون لعدم فهمهم اياها ، وأن الفقرتين رقم ١٩ ورقم ٢٠ تشير الى عادات لم تكن متبعة في مصر القديمة ، ولكنها كانت متبعة في معابد بلاد الشام (١) والتي ظلت متبعة حتى وقت قريب في بيت المقدس .

(١) كانت بعض المعابد في الشام ، وفي بلاد ما بين النهرين تلخر بأعداد كبيرة من النساء يطلق عليهن «عاهرات المعابد» ، وكن يعتبرن سرارى للالهة أو لكهنتهم ، ولم تكن الفتيات أو أهلهن يجدن في ذلك العمل الشائن عارا ، بس كن وكانوا يعدونه نوعا من الواجبات المقدسة ، وكان الأهل لذلك يحتفلون بالحاق بناتهم في المعابد المقدسه ، لضمن بذلك الواجب المقدس .. وثالث عاهرات المعابد كثيرات في غربى آسيا ، فكن موجودات في فريجيا وفينيقية وسوريا ، كما كن موجودات عند بنى اسرائيل . وقد جاء في سفر عاموس من التوراة : أصحاب (٢) آيات ٦ و ٧ مايلي : هكذا قال الرب من أجل ذنوب اسرائيل الثالثة والرابعة لا أرجع عنهم لأنهم باعوا السار بالفضة ، والبائس لأجل فعلنين ، الذين يثرون ثراب الأرض على رهوس المساكين ، ويصدون سبيل البائسين . ويذهب رجل وأبوه الى صبية واحدة حتى يدنسوا اسم قدسى .

... وظلت الدعارة المقدسة متبعة في نابل حتى ألماها الامبراطور قسطنطين سنة ٣٢٥ ميلادية .

هذا ولم يعرف هذاالنظام في مصر ، لانه كان يعتبر رجسا (١) في نظر المصريين القدماء .

ولقد كان القانون المصرى يعد انقاص كيل الخنطة ، كما فى
الفقرة ٢١ أو مقياس الأقمشة كما فى الفقرة ٢٢ ، أو عدم الدقة
فى تحديد الأراضى ، أو تقدير الضرائب ، كما فى الفقرة ٢٣ ،
أو اخسار الميزان كما فى الفقرتين ٢٤ ، ٢٥ ، كان يعد كل أولئك
غشا وتزويرا ، كما أن معنى الفقرة رقم ٢٨ غامض ، ولعل ورودها
فى خماسية احترام الحقوق تشير الى أنها تعنى صيد الطير فى
الأراضى المملوكة للآلهة ، التى كان الملوك يهبونها لمعابدهم .
أما الفقرة رقم ٣٠ ففيها تكرار لمعنى واحد ، لأن صد مياه النهر
اعاقه له عن الجريان ، لا يختلف معناه عن معنى إقامة سد فى مجراه
لحجز المياه أمامه .

وان هذه الحماسيات السبع كانت بمثابة محظورات - بحكم
الدين والقانون - يتجنبها المتقون الذين كانوا يحرصون على أن
يلقوا أوزيريس رب يوم الحساب وصحيفتهم بيضاء من غير سوء !
ولقد كان لحكمائهم حكم ونصائح وأمثال ، لا تتصل بالحقوق
المفروض مراعاتها ، كما هو الحال فى الحماسيات ، قدر اتصالها
بأداب السلوك وسياسة الناس ، وامانة الضغينة والحق فى قلوبهم ،
وتوجيههم الى الطريقة المثلى لمعاملة بعضهم بعضا ، ولا ترقى الى أن

(١) يقول هيرودوت : لقد كان المصريون اول من فرضوا على الرجال أن
يغتسلوا بعد قربهم للنساء . وكان جميع الشعوب عدا المصريين واليونانيين
ياتون الفاحشة ، ويدخلون المعابد دون أن يقتسلوا .

تكون أوامر ونواهي يلتزمها الناس كالحماسيات ، ولكنها مبادئ سامية ، اذا احتذاها الناس رفرت عليهم السعادة والهناء وخلو البال ومن أشهر حكمائهم - أن لم يكن أشهرهم جميعا - بتاح حنب(١)، الذى عاش فى عهد الأسرة الخامسة ، وان حكمه ونصائحه لتبين عن السلوك السوى من وجهة نظر المصريين فى زمانه واليك بعض نصائح بتاح حنب :

- ١ - لا تنغمس فى مظاهر الثراء الذى أنعم الله به عليك . .
- ٢ - اذا أردت أن تكون أعمالك محمودة فتجنب الشرور ، واحذر نزعات الجشع والطمع .
- ٣ - لا يغرك بغزارة علمك الغرور ، وتحدث مع الجاهل والعالم على السواء ، فان العلم بحر لا ساحل له ، ولا يستطيع لذلك أحد أن يبلغ مداه ، وليس هناك أحد يحيط بكل شىء علما ، فيعرف كل ما ينفعه وما يضره .

(١) ان حكم بتاح حنب ونصائحه مكتوبة على ١٨ صفحة من ورق البردى، وتعرف باسم بردية برسى نسبة الى الاثرى Prisse الذى أذاعها سنة ١٨٤٧ م . وقد كتب بتاح حنب هذه الحكم والنصائح وهو وزير الملك أسيسى أحد ملوك الأسرة الخامسة ، ولقد كتبها وله من العمر ١١٠ سنة لتكون هاديا ومرشدا لابنه الذى كان يعده لأن يتولى وظيفته بعد وفاته . . . ولقد كانت هذه الحكم والنصائح تدرس فى ذلك العهد وبعده فى المدارس . . وكان التلاميذ يكتبونها على قطع من الخرف أو على ألواح ملساء من الحجر ، وذلك لفلاء الورق البردى آنذاك . .

وكان للصدق مكانة عظيمة عند قدماء المصريين ، ويتبين ذلك من كثرة عدد كهنة الالهة « معات » الهه الصدق (١) ، اذ كانوا أكثر عددا من كهنة الاله بتاح أقدم آلهة المصريين القدماء وأعظمهم (٢) وان هذا التمجيد لالهة الصدق .. لذل على مدى ما للصدق من أثر عميق فى نفوسهم *

ولقد كان المصريون القدماء يحرصون على نيل رضى الآلهة ، وادخال السرور عليهم باتباع السلوك القويم ، وتمسكهم بالأخلاق

(١) كانت معات الهه الصدق والعدل تمثل على هيئة امرأة على رأسها ريشه . وعند وزن قلب المتوى أمام محكمة أوريريس كانت هذه الريشة توسع فى احدى كفتى الميزان كمعيار للصدق ويوضع القلب فى الكفه الاخرى . فادا تبين أن القلب أثقل من الريشه دل ذلك على صدق المتوى ، فترنه الحكمة من الخطايا ، وادا حدث العكس كان ذلك دليلا على كذبه واقراره للخطايا التى انكرها ، فتحكم بأنه مذنب وأمرت بذعابه الى النار .

(٢) بتاح من أعظم آلهه المصريين ، ومن أعلاهم مقاماً ، ان لم يكن أعظمهم جميعاً ، لانه أقدمهم ، فكان المصريون يلفونه لذلك بالسادة الذى أسبغت منه جرائيم الاشياء ، والذى قدر أرواف الاحياء ، والخالق الذى خلق الانسان من طين .. وانه ناشر الاموات يوم القامة ، ليعبوا الحياة الاخرى الأبدية .

... ويرى الأستاذ المؤرخ الكبير آرثر مى أن المصريين أول من اهتموا الى الهه ، وأول من اشتهروا شريعة تعرفهم اليه ، وأن معتقداتهم الدينية كانت الطلقة الاولى فى اتحاء العقيدة الصحيحة التى تأثر بها من جاءوا بعدهم من عطاءه الشريفة ، ولقد استطاع عقل أولئك المصريين أن يلمهم بأن لهم حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وأنهم محاسبون حساباً دقيقاً ... عن أفعالهم فى حياتهم الاولى ، حينما تتجرد أرواحهم من هياكلها المادية لتخلد هناك فى برازخ الأبدية ، حيث تجزى أرواحهم بالخير خيراً ، وبالشر شراً . ترجمة حامد القصى .

القويمة ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن التمتع بالسعادة والهناء بعد الموت يتوقف على أعمالهم في الحياة الدنيا * ولقد أدت تلك العقيدة بدورها الى الاعتقاد بأنه لا بد من تقدير أعمال الانسان قبل أن يتقرر استحقاقه لصحبة الآلهة ! ومن هنا نبتت فكرة محاسبة المرء على أعماله في الحياة الدنيا أمام الاله أوزيريس ، فاذا ما مثل الميت أمامه ، خاطبه ومن يحفون حوله من آلهة صغار بقوله :

سلام عليكم يا أرباب العدل الجالسين حول أوزيريس ،
والقادرين على غفران الخطايا والذنوب * أعيروني آذانا صاغية :
لقد سمعت اليكم فامحوا جميع خطاياي (كتاب الموتى ١٧ ، ١٤) *

ولم يكن دعاؤه هذا للتدليل على حسن سلوكه وعدم ارتكابه للمعاصي فحسب ، ولكنه كان فوق ذلك رجاء لتطهيره وتبرئته ... وهو اعتراف بأن المرء لا ينبغي له أن يعتمد على أعماله الطيبة فقط ، بل هو في حاجة الى عون الآلهة وغفرانهم ولقد كان المصري يشعر شعورا قويا بقيمة متانة الخلق وضبط النفس في معاملاته للناس ! وكان من تعاليم الآباء للأبناء ، والمعلمين للتلاميذ ، والحكماء لعامة الناس : أن ليس هناك مجال للانحراف أو التردد اذا ما حزم المرء أمره على انتهاج خطة معينة * وكان يرون أن العقل الثابت الرصين غير المتردد منحة سماوية وكان مما يفخرون به قولهم :

« لم أستسلم الى الهم والضنى والقلق الشديد ، ولست من ذوى الحدة أو التردد *

وكانت الحكمة والاتزان والهدوء من السجايا التي كانوا يرون أنه من الواجب أن يتصف بها الناس جميعا • ومن أقوالهم :
 إذا كان خصمك أحمق أخرف كثير الصخب ، فخير ما تفعله أن تلتزم الهدوء ، وتتغاضى عن سخافاتهِ وتفاهاته ! وإذا عاملت أكفاءً وأندادا ، فتجنب الغش والحداع ، وتغاضى عن هفواتهم وذلات ألسنتهم (١) ، واحرص على صداقتهم والتودد اليهم ، وبش في وجوههم حين تلقاهم (٢) ، واطرح البخل والتقتير ظهريا •
 أما لمن هم أعلى مقاما فكانوا ينصحون بالاذعان لهم وطاعتهم ، وبألا ينسوا الزلفى لهم والتقرب اليهم بشتى الطرق ، والتوسل اليهم باتباعهم •

أما من هم أقل منزلة ، فكان يرى معاملتهم بالعدل والاحسان، من غير مس يقتل الحسنات ، أو تذكير بما قدم لهم من عوارف أو نعم • وكان التكبر عليهم ونهب أموالهم ، ونهرهم أو استعمال العنف معهم من الأمور المذمومة •

ومن نصائحهم :

لا تكن ثرثارا ، فان الناس يسمون آذانهم عن الاصفاء لكثير

(١) في الأصل نهى عن طلهم ، وعن عدم السماح بتعذيب أحد • • وهما امران لا يستقيم معناه في معاملة الاكفاء •
 (٢) في الأصل يزعم المؤلف ان المصريين كانوا يرون ان الصداقة فيها منافع جبه ولذلك كانوا يحرصون عليها لمنفعتها لهم ، لا لانها فضلة . ولأجل هذا كان ينقصها الاخلاص •

الكلام والتزم الصمت يرض عنك الناس ، ويحمدوك !
وإذا ما تكلمت فتخبر أفاظك ، لأن هلاك المرء قد يكون في عنرة
من لسانه •

وعلى الرغم من أن المصريين القدماء كانوا يحضون على
المثابرة على العمل والجد فيه ، فإن مطالب الحياة ورغبات النفس لم
تكن عندهم موضع كبت وحرمان • ومن أقوالهم المأثورة في
ذلك :

ان من يعمل النهار كله ، لا ينعم بلحظة ممتعة واحدة ،
كذلك الذى يقضى يومه كله فى اللهو واللعب ، فإنه لا يجد فوت
يومه ! وان الرامى الماهر لا يصيب هدفه الا بشده القوس واطلاقه ،
كما يفعل ربان السفينة بالسكان ليصل الى المكان الذى يريد •
وان من يطيع قلبه بعلو ويسود ، فاستمع الى نداء قلبك ، ولا تعصى
له أمرا ، فان من الموبات عند النفس « الكا » أن يغفل ما تومى
به ! ولا ينبغى أن تسترسل فى العمل بعد حصولك على ما هو
ضرورى لسد حاجات بيتك • وعندما تحصل على ذلك فاتبع نداء
القلب ، لانك اذا كنت متعبا منهوك القوى ، عز عليك أن تستمتع
بما حصلت عليه الاستمتاع كله ، لأن الثروة التى يجمعها الانسان
بجده واجتهاده ، ليست الا وسيلة لاسعاد النفس وهنائها ، وليس

على المرء بعد ذلك الا اكرام الناس ، وحسن ضيافة الطارق الغريب،
والمحرور منهم بخاصة •

ومما يسترعى النظر أنه لم يرد فى النصوص الانكارية حقوق
أفراد الأسرة وواجب المنكر نحوهم ؛ وان الاشارة الوحيدة فيها
عن الزواج هى أنه لا ينبغى أن يخالف فيه أوامر الدين ونواهيه !
أما فى العصور الأخيرة فقد كانت الجرائم الجنسية مستكثرة فى
فائمة الخطايا • ويبدو أنه لم يكن لأفراد الأسرة الواحدة من
الحقوق والواجبات قبل بعضهم بعضا غير ما كان لهم منها نحو أفراد
الأسر الأخرى • وليست هناك أية اشارة فى أى عصر من
العصور الى الفروض الواجبة نحو الاخوة والأخوات وأبناء الأعمام
والأخوال وبناتهم ، وأن وشائج القرى والروابط العائلية لم تكن
أبدا فيما يبدو فويه كما كانت فى الأقطار الشمالية (١) • ومع ذلك
فقد كانت العلاقة بين الآباء والأبناء قوية جدا والحقوق والواجبات
بينهم مراعاة •••

ويبدو أن النصوص الانكارية أقدم عهدا من دستور الزواج،
اذ ليس فيها الا اشارة واحدة الى الرباط الزوجى الدائم الذى ساد
المجتمع المصرى فيما بعد ألا وهو عدم اشتراط الحصول على تصريح
دينى لاتمامه ، ذلك التقليد الذى كان متبعا فى معظم الأقطار

(١) يقصد بالأقطار الشمالية الأقطار الأوربية •

الاسيوية • أما في مصر منذ العصور الأولى حتى عهد الأسرة
التاسعة عشرة ، فقد كان الزوج ينظر اليه كأنه نزيل مقيم في
منزل سيده (١) •

ولا أدل على ذلك من أقوالهم المأثورة التي نحتزى منها
ما يأتي :

لا تكن فظا غليظ القلب لسيدة في منزلها ، ولا تشر الى شيء
ثم تقول لها : ما هذا ؟ ائتى به ، عندما تكون قد وضعت في مكانه ،
وأنت تراه بعيني رأسك فيه ••• انك عندما تلتزم الصمت تكشف
عن سجاياها ، وان من تمام سعادتك أن تعاون يداك يديها •

وتتمثل قوة الرابطة الزوجية في تلك القصة القديمة
للمساح السحري (٢) ، فقد حكم على الزوجة الخائنة التي أهدرت

(١) فد يبدو هذا غريبا لنا ولكنه يعتبر شيئا منطقيا في مجتمع قام على
نظام الأمومة ، فقد كان المصريون القدماء ينتسبون الى أمهاتهم ، وكانت البس
الوارثة المفضلة لأملك والديها ، فكانت ترث المنزل والأثاث والأراضي الزراعية
وما عليها ، ولهذا السبب كان الاخوة يزوجون بأخواتهم حتى يحصروا الميراث
في الأسرة ، ولهذا السبب كان الزوج يعتبر ضيفا دائما في منزل الزوجة •

(٢) مجمل القصة أن زوجة لأحد رؤساء المرتلين لأحد فرامنة الدولة
القديمة أحببت أحد الفتيان فأرسلت اليه خادمتها بهدية فاخرة وتدعوه
ليقابلها في حديقة بيتها ، فلبى دعوتها ، وكان يرافيقها في الحديقة ، ويظلم
يمرحان حتى المنيم ، وكان الفتى يسبح في البحيرة التي في الحديقة ، فرآه
حارسها فأخبر سيده بما يحرى ، ولما علم الزوج بذلك ، وكان ساحرا ماهرا ،
صنع من الشمع ما على هيئة تمساح ، وأعطاه للحارس الامين ، وقال له :
خذ هذا منك الى الحديقة وحين ترى الفتى يسبح في البحيرة ، الى التمساح

كرامتها مع أجنبي في الحديقة بالموت حرقا من غير أن يكون في ذلك العهد الواثق في القدم نص على ذلك العقاب في قانون منع آنداك ، على الرغم من أن الموت حرقا كان عقابا للخيانة الزوجية فيما تلاه من عهود .

ويستخلص من الأقوال المأثورة في عهد الأسرة الخامسة أن العرف كان يجيز أن يتصل رب الأسرة اتصالا غير شرعي بأيه امرأة من نساء الأسرة ، من غير أن يسيء ذلك إلى سمعتها ، ولا يحط من قدرها بين الناس .

على الرغم من أن النص الكهنوتي لقائمة التبرء من الخطايا

في الماء ومره بأن يعرض عليه ويمكث به في قاع البحيرة . وفعل الحارس ما أمر به . وانقلب التمساح الصغير من الشمع تمساحا ضخما قويا عض على فخذه العنق بنواجذه وجره إلى قاع البحيرة .
ودهب الزوج إلى فرعون وقال له : هل أدلك على عجيبة من أعاجيب أيامك السعيدة !

قال الملك : نعم

نصار الزوج شبع الملك في ركب حافل باتباعه حتى وصلوا إلى البحيرة ، ونادى الزوج على التمساح فخرج وبين فكبه الفتى فأمره أن يتركه ، فما كاد يتركه حتى حال التمساح الهائل لعبة صغيرة على هيئة تمساح من الشمع ووقف الفتى كاسف اليال مطرقا من الخجل .

وسأل الملك الزوج عن خطب الفتى ، فقص عليه قصته مع زوجته ! فقضى الملك على الفتى بأن يلتقمه التمساح ، فألقى في الماء وألقى وراءه التمساح ، وكان ذلك آخر عهده بالدنيا ، وقضى على الزوجة الخائنة بأن تحرق حية ، فحرقت جزاء وفاقا لخبايتها زوجها .

الذى يرجع تدوينه الى العصور الأخيرة فيه ذكر لقانون الزواج ،
وتأكيد لحقوق الزوج على زوجته ؛ على الرغم من ذلك فقد كانت
الذرية تنسب الى الأم ، كما سبق أن ذكرنا ، وكان للخال منزلة
هامية فى الأسرة تفوق منزلة العم . كما كانت جميع العقارات
الثابتة ملكا للزوجة ! وكان الزوج اذا ورث منزلاً مثلاً من أخ له
أو اشتراه من ماله الخاص ، يسجله فور ايلولته اليه باسم زوجته ،
على أن يؤول الى أولادها فى الوقت الذى تراه .

على أن النظام الأبوى أى النظام الذى يكون بمقتضاه الأب
رب البيت ، والمهيمن على شئونه والمالك للثروة ، واليه ترجع
أموره ، واليه ينسب البنين والبنات ! ان ذلك النظام أخذ يظهر
ويتشعب ويخضع له الناس ويتبعونه فى عهد الدولة الحديثة ، وفى
عهد الأسرة التاسعة بخاصة ، نتيجة للتأثيرات السامية ! ولكن تملك
المرأة لمعظم ثروة الأسرة استمر متبعاً الى ما بعد ذلك العصر بزمن
طويل ، ولا يزال باقياً فى بعض جهات مصر حتى وقتنا هذا ! ففى
صحراء سيناء لا تزال المرأة هناك تملك الحيمة (١) وقطعان الغنم ،
وتعلق ثروة الأسرة القديفة فى برقعها !

ولقد كانت الهيئة الحاكمة فى مصر القديمة تشعر شعوراً قوياً
بضرورة حماية المحكومين ورعايتهم والسهر على مصالحهم ومعاملتهم

(١) يذكر المؤلف أن الرجال من بدو سيناء ينامون تحت ظلال الصخور .

ولا ينامون فى الخيام أبداً .

بالعدل والاحسان • وكان الوازع لهم فى ذلك مائة أخلاقهم •

وكثيرا ما كان الحكام يدونون فى مقابرهم ما كانوا يقومون به
من أعمال البر والاحسان الى رعاياهم ، راجين من الآلهة تقديرها ،
ومثوبتهم عليها •

ومن أمثال ذلك قول أحدهم •

لقد أعطت الحبز للجائع ، والكساء للعارى ، وأفسحت مكانا
فى زورقى لأولئك الذين لا يستطيعون العبور لأمر من الأمور •
ولقد كنت أبا لكل يتيم ، وزوجاً لكل أرملة ، وحمى من الريح
الصرصر للمقرورين ، وجار اللاجئين ، وأماناً للخائفين ••
وكتت أنكلم بالحير ، •• ولقد جمعت مالى بالطرق المشروعة
العادلة •

ومن أقوال آخر :

عندما ظل النيل منخفضاً خمسة وعشرين عاماً ، ولم تكن
مياهه تفى برى أراضى الأقليم الذى كنت أحكمه ، استوردت لأهله
الحنطة من الجنوب فى أثناء تلك السنين العجاف ، فلم يحل لذلك
بربوعه جوع ولا بؤس ولا شقاء حتى جاءت السنون الحضر فى
اثر فيضانات النيل الغامرة •• ولقد كنت أطعم الأطفال بيدي ،
وأوسى الأرامل ، ولم أترك فى عهدى فقيراً بائساً محروماً • ولقد

عملت جاهدا على كسب محبة الناس بالحق ، ليعلو بينهم ذكرى ،
وينوهون بشأني ، وأجازى على أعمالى الخيرة فى الآخرة ••

وهذا يدل على أن الوازع الدينى لارضاء الآلهة كان السبب
المعترف به •• للقيام بعمل الخير •

ولقد كان الشعور بالعدالة بين الناس فويا عند المصريين
القدماء ، وان كلمة « معات » (١) لم يكن معناها العدالة المعنوية
فحسب ، ولكن كانت تدل على العدالة العملية • ولم يكن يكتفى ••
بمعرفة الحق واتباعه ، ولكن كان ينتظر ممن يعينهم الأمر اظهر
المودة والعطف على من يستحقونهما •

ومن أقوالهم فى ذلك :

إذا كنت قاضيا فرحب بالاستماع الى من يتقدم اليك بظلامه ،
وشججه على أن يفضى اليك بما عنده ، ودعه يفضح لك عما فى
قلبه ، وان بشك فى وجهه واظهار العطف عليه يحملانه على
قول الصدق والاعتراف بالحق ولو كان فى غير مصلحته ! •• وان
من سمو الأخلاق وحسن التربية الأصغاء له فى حلم وسماحة
وعطف •

(١) كانت العلامة الدالة على هذه الكلمة «معات» معناها الصدق ، كما سبق
أن ذكرنا ، وكانت توضع فى مكان بارز فى دور القضاء ، ودور الحكم ، وفى المنازل
وفى المقابر ! وهذا دليل قاطع على تمسك المصريين القدماء بالصدق والعدل .

ولم يكن ثمة أدعى لحسن نية المصريين القدماء في كل العصور ، وطاقاتهم لأولى الأمر منهم ، والعمل بنصائح حكماهم من الحكم بينهم بالعدل والقسطاس ، واعطاء كل ذى حق حقه •

ولقد كان من نصائح ملوك الأسرة الثامنة عشره لوزرائهم حين ما كانوا يتولون مهام مناصبهم التزام العدل المطلق بين الناس جميعاً ! لا فرق بين غنى وفقير ومالك ومملوك ! وألا يمالثوا الأغنياء ، لأن الناس اذا ما اختصموا سواسية وان الميل الى أحد المتخاصمين رجس عند الآلهة •

ولقد كان التفاني في التمسك بالصدق شعار اخناتون العاهل التالى (١) ، الذى أضاف الى القابه ، الجملة الآتية « الذى يحا فى

الصدق وللصدق •

(١) اخناتون هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشره ، حكم مصر وهى فى قمة عزها وأوج مجدها وقد ورث ملكا عربضا مؤثلا ، ولكنه أنصرف عنه الى التفكير فى الكون وموجده ، فاهتدى الى أن هناك الها واحدا يسيطر على هذا الكون ، وأنه خالق كل شيء ! وتمثل قونه أكثر ما تتمثل فى الشمس أقوى الكائنات فى اعتقاده ، لذلك اتخذ قرصها رمزا لاله الواحد القهار وسماه «آتون» . وألقى عبادة جميع الارباب والآلهة التى كان يعبدها المصريون القدماء وغيرهم من الأمم الأخرى ، وعلى رأسهم الاله آمون رع أقوى تلك الموداد ، وبذلك أثار سخط أقوى طوائف الشعب المصرى ، الا وهى طائفة الكهنة ، وأخذوا يكيدون له ، فلما ضاق بهم ذرعا شيد عاصمة جديدة له فى مكان قرية نل العمارنة الحالية ، وانتقل اليها هو ووزراؤه ومحبره والمتحمسون لدينه الجديد ، تاركا طيبة عاصمة الامبراطورية ومقر عبادة آمون رع ! وسما عاصمته الجديدة اخيت آتون أى أفق آتون • وكان دين اخناتون يتمثل فى حقيقتين •

ولقد ظل شعار المحاكم المصرية التمسك بالعدل المطلق بين الناس حتى آخر عصر البطالة . وفي ذلك يقول المؤرخ المعروف ديودورس الصقلي :

لقد كان البطالة يولون المحاكم اهتماماً خاصاً ، ويعنون بها عناية فائقة لاعتقادهم أن اللوائح والأحكام التي تصدرها ذات أثر فعال في أخلاق الأفراد وسلوك الجماعات ، وذات أهمية بالغة للمصالح العام .

ولقد كانوا يعتقدون أن خير وسيلة لتقويم الناس توقيع العقاب في الوقت المناسب على المسيئين والمذنبين ، ورفع الحيف والظلم عن وقع عليهم أحدهما أو كلاهما . . الى أن يقول :

(١) الوجدانية

(٢) الحقيقة

ولقد بلغ من تمسكه بدينه الحديد وإيمانه به ، والتعصب له أنه محا أسماء آلهة المصريين جميعهم وآمون بخاصة ، والمنقوشة على آثار الملوك الذين جاءوا قبله ، من معابد وقصور ! وكان يحجو كلمة آلهة من النصوص لأنه - في اعتقاده وملته - لا يوجد الا اله واحد .

وبعد وفاة اخناتون ماد خليفته وزوج ابنته توت عنخ آتون الى طيبة تحت ضغط كهنة آمون ، والتي عبادة آتون ، واستبدل اسم توت عنخ آمون باسم توت عنخ آتون .

وقد تعقب كهنة آمون اتباع دين اخناتون ، وقضوا عليهم ، فهجرت قل العمارنة أو أخت آتون ، وعفا عليها الزمن .

وهكذا انتهت تلك الفترة القصيرة الالامعة في تاريخ مصر ، وضاعت في غمار التعصب والرجعية أرقى مرحلة في التفكير الديني وأسماها الا وهي الوجدانية

ان البطالة كانوا يرون بنافذ بصيرتهم أنه اذا قدر للأحكام
التي يصدرها القضاة على المخالفين للقانون أن ترفع بالرشوة ، أو
بالحظوة أو المودة فلن يكون هناك سوى الفوضى والاضطراب في
المعاملات وفي النظم البشرية كافة .

ولا يوجد بين أيدينا لسوء الحظ الا نصوص قوانين كانت
مطبقة في مصر القديمة في عهود تاريخها الطويل المتأخرة .

ويشير كلمنت (١) الى ثمانية كتب للقانون لم يعد لها وجود

• الآن

ويتبين من منظر لاحدى محاكم العدل في الأسرة الثامنة
عشرة وجود أربع اخوته وضع علي كل منها عشرة ملفات (٢) .
ويبدو من ذلك أن القانون كان قد نسق ورتب أحسن ترتيب
من قبل .

وتنسب القوانين الخاصة بالملكية الى الفرعون يوكوريس (٣) .

(١) كلمنت مؤرخ اسكندري عاش في اواخر القرن الثاني الميلادي

(٢) قراطيس من البردي .

(٣) يوكوريس هو الاسم اليوناني للفرعون «باك - ان - رن - اف» الذي
حكم حوالي سنة ٧٢٠ ق . م . وهو أحد ملوك الأسرة الرابعة والعشرين . وقد
ذاعت شهرته بسبب القوانين التي سنها ، وفي أثناء حكمه غزا الاثيوبيون مصر
واستولوا على الوجه القبلي ، وقد تصدى لهم يوكوريس ولكنهم هزموه ، وقبضوا
عليه وحكموا عليه بالموت حرقا ، وبوفاته سقطت مصر كلها في أيدي الاثيوبيين .

ومما جاء فيها أن الدائن الذى لا يستطيع أن يبرز سنداً مكتوباً تسقط كافة حقوقه فى المطالبة بدينه ، وأن التسلف بفائدة بعقد مبرم بين الدائن والمدين لا ينبغى أن تربو فيه الفائدة على جملة المبلغ المقرض ، مهما طالت مدته •

وأنة يجوز للدائن أن يستصدر حكماً بالحجز على المدين وفاء لدينه ، ولكن لا يجوز بحال حبس المدين لعدم سداد ما عليه من دين • ولكن كانت عقوبة التأخير فى سداد الدين فى مواعده شديدة ، فقد كان منزل المدين يرهن ضماناً لقرض فدره ست أوقات من الفضة فاذا لم يرد القرض كاملاً بعد حلول الموعد المحدد بشهر على الأكثر كانت تفرض على المدين غرامة تساوى المبلغ كله أو التبقى منه بعد سداد بعضه مرة ونصف المرة •

وفى عهد أخناتون كان يوجد قانون دولى للملكية ! وآية ذلك أن ملك ألأشيا (١) طالب بمصر بأموال وممتلكات أحد رعاياه الذى جاء مصر ومات فيها ، لأسرته فى ألأشيا • وقد اصدر الملك أماريس (٢) قانوناً يحتم على كل شخص أن يقدم اقراراً فى كل سنة ميّناً كسب عمله ووسائله • واذا لم يقم باعداد هذا الاقرار

(١) ألأشيا هى جزيرة قبرص • وهى تسمية آشورية لها •

(٢) أماريس : الاسم اليونانى للفرعون أحمس الثانى احسداً قراعتة الاسرة السادسة والعشرين •

بأمانته عرض نفسه للحكم عليه بالاعدام • وكان ذلك القانون ينص على كافة التزامات الشخص ، ويفصلها بدقة •

وفى عهد الأسرة السادسة والعشرين وهى الأسرة التى ينتمى إليها الملك أمازيس كان الشخص إذا ائقلته الديون نتيجة لما انفقه فى أثناء مرضه أو فى غير ذلك من الأزمات التى يتعرض لها ، - كان عليه أن يبرم عقدا مع الدائن يصبح بمقتضاه هو وأولاده الموجودون آنذاك ، والذين سوف يولدون بعد ذلك ارقاء له يعملون تحت امرته حتى يوفون دينه ، على أنه لم يأت ذكر لزوجته •

وترجع أقدم وصية عرفت فى تاريخ مصر القديمة الى عهد الأسرة الثانية عشرة (١) • ومن الواضح أنها كانت موضوعة تبعاً لنظام مستقر موطن ، يفرض تسجيل كل وصية تسجيلاً رسمياً • وسوف نبحث موضوع الوصايا بالتفصيل فى الفصل الخاص

(١) لم تعد وصية الأسرة الثانية عشرة هى أقدم وصية ، فقد عثر فى الحفائر

الحديثة على عدة وصايا ترجع لعصور أقدم نبيها فيما يلى :

(أ) وصيتان ترجعان الى عهد الأسرة الرابعة : ففى الوصية الأولى يوصى الوزير نيكاورع بأملكه الى أفراد أسرته • وفى الثانية يوصى بنتى بمال قد آل اليه من والدته الى زوجته وأخيه •

(ب) وصيتان ترجعان الى عهد الأسرة الخامسة احداهما صادرة من تكمنخ وفيها يوصى بضيقاته الى زوجته وأولاده • والثانية صادرة من «وب - ام - نفرت» الى ابنه «ايبي» وهذه الأخيرة ذات أهمية بالغة لدقة تسجيلها ووضوحها ، وقد كشفها العلامة الأستاذ سليم حسن فى الجيزة ونشرها فى كتابه :

Excavations of Giza, Vol. II, p. 190.

« بالحياة العائلية » ويلي ذلك فترة طويلة لم نعر فيها على أية وصية حتى العصر الاغريقي ، وفيه نجد وصايا تركها بعض كبار المحاربين الاغريق في عهد بطليموس الثالث : وكانت العادة المتبعة عند تحرير تلك الوصايا أن يعين الملك منفذا لها أو بمعنى آخر محكمة القضاء الملكية .♦ وكانت أوصاف الموصى تذكر بالتفصيل ؛ ففي احداها دون ما يأتي :

انه (أى الموصى) يتمتع بعقل سليم وفهم جيد ، وأنه يبلغ حوالى الثمانين من عمره ، وأنه قصير القامة ، له أنف أفتى وعينان براقتان ، وأنه أصلع الرأس ، وذو أذنين طويلتين ، كما كانت تذكر أوصاف أربعة ممن شهدوا تحرير الوصية واليك نص احدى الوصايا :

لقد أوصى (١) (فلان) بكل ما ملكت يدها الى « اكسيوزيا » ابنة « ديزولوس » وهى سيدة من اقليم تراقيا باليونان . وختم وصيته بقوله :

ولا أترك شيئاً لمخلوق آخر . ولم يذكر فى الوصيه عما اذا كانت زوجته أو قريبة له .

(١) توجد وصية أخرى من عهد الأسرة الثانية والعشرين . وفيها يوصى الكاهن الاكبر « يوريث » لابنه « خا - ان - وابت » . ولابن ابنه من بعده بخمسائة وستة وخمسين أروادا من الأراضى الزراعية وما عليها من ابقار وأنعام أخرى وآبار وأشجار .

وقد وصفت القوانين الخاصة بالأراضي الزراعية في عصر مبكر . وقد دُعا الى ذلك تلك التقاليد التي كان يتمسك بها المزارعون البدائيون لضرورتها لهم . فكان رئيس القبيلة (ولعله يقصد شيخ القرية) هو مالك الأرض . وكان عليه أن يمنح الأرض لمن يعمل فيها ، على أن تعود الى حوزته في حالة وفاة الشخص بدون وريثة ، ولا يوجد ما يشير الى استرجاع الأرض بطريق القهر أو الاجبار .

ويذكر متس (Meten) وكان موظفاً عظيم الشأن في الأسرة الثالثة - ثمانية أنواع للملكية الأرض الزراعية ، حصل عليها بوسائل مختلفة نذكرها فيما يلي :

١ - هبة ملكية - وكان للملك الحق في استردادها !

٢ - منحة من الأب الى ابنه .

٣ - التملك بمقتضى وثيقة رسمية ، ويبدو أن التملك في هذه الحالة كان وراثياً وكانت الأرض قابلة للانتقال من يد الى أخرى .

٤ - عطاء ملكي ، شأنها شأن رقم ١ .

٥ - تملك حق استغلال الأرض بشروط ملزمة .

٦ - منحة من الأم .

٧ - حجة وقف من الأم للأبناء .

٨ - منحة من الأب الى أبنائه .

وهذه كلها يمكن ارجاعها الى أربعة أنواع من التملك .

وكان من الضروري كى يمتلك شخص أرضاً بطريق الهبة أو الوراثة أو الشراء أن يتقدم لاثبات شخصيته فى مكتب تسجيل الأراضى ، ثم يدفع رسوم نقل الملكية اليه ، وهذا الأجراء هو الدليل القانونى للملك ، وبغيره لا تثبت ملكيته للأرض . على أن هبة ابريز (١) الى بتاح (٢) جميع الأراضى الساحلية المطلة على النيل عند منف تير التساؤل ، الذى كثيراً ما رددته الناس فى الأزمان الخالية عن المعنى المقصود من تلك الهبة ! اذ لا يعقل ، كما هو المعروف ، أن كل شخص كان يعيش على تلك الرقعة الواسعة من الأرض الممنوحة لبتاح قد أصبح رقيقاً تابعاً للأرض تنتقل ملكيته بانتقالها من مالك الى مالك آخر ! الأمر الذى يحملنا على الظن أن تلك الهبة لم تكن الا تنازلاً من الملك عن ايجار تلك الرقعة ، أو الضريبة عليها لسدنة الاله بتاح ! وكانت كلتاهما من حق الملك !

(١) ابريز هو الاسم اليونانى للفرعون «جع - ايب - رع» (٨٨٨ ق.م - ٥٦٦ ق.م) وهو أحد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين .

(٢) بتاح اله منف ، وقد سبق الكلام عنه فى الفصل الاول .

وقد ذكر بما لا يدع مجالاً للشك في نصوص الهبات أن السكان لن يبعدوا عن الأرض الموهوبة * * وعلى ذلك فإن المستأجرين لها والمقيمين عليها لن يضاروا *

وتوجد عقود للإيجار مدونة على ورق البردي يرجع تاريخها إلى العهد الروماني ، ومنها يتبين أن هناك نوعين من الإيجار :

الأول مقابل قيمة محددة *

الثاني بطريقة المشاركة في غلة الأرض *

ولقد كانت قيمة الإيجار المحددة تتراوح بين بوشل (١) واحد وسبعة بشلات ونصف البوشل للفدان ، وتبلغ في المتوسط ٣٨ بوشل *

أما الإيجار بطريقة المشاركة فكان يتراوح بين نصف المحصول وأربعة أخماسه ، ويبلغ في المتوسط ثلثي المحصول * وبما أن الفدان في إنجلترا يغل في المتوسط ٣٠ بوشلا فلا يجوز أن نفرض أن الفدان في مصر مع جودة أرضها يقل عن هذا المقدار ، لذلك يكون متوسط الإيجار المحدد لم يبلغ سوى ثمن ما يحصل عليه مالك الأرض بطريقة الإيجار بالمشاركة *

(١) البوشل مكيال انجليزي يقدر بنحو ٣٦,٤٥ من اللتر ، والأردب يساوي

حوالي * بوشل *

وفى بعض الجهات كان يوجد نظام المزارع الجماعية بين أهل القرية الواحدة ، وكان الايجار الذى كانوا يؤدونه بالمشاركة عن الأرض التى يستغلونها يكفى لتسديد كافة الضرائب والالتزامات الأخرى المربوطة عليها ، سواء أكانت ضرائب عامة أميرية أم التزامات خاصة بمالك الأرض .

وكانت نظم الجهاز الرسمى للبلاد تلتزم أصولاً معلومة مرعية من الرسميات ومن أمثلة ذلك ما ورد فى قصة سنوحى (١) من أن جوقة من الأميرات قامت باشهاد قصيدة فى مدح الملك سنوسرت الأول ، وتمجد شعوره الطيب لعفوه عن سنوحى الهارب .

ولقد كانت للقصر تقاليد تراعى بدقة عندما يسمح لرجال الحاشية بدخول القصر للمثول بين يدى الملك ! .. وكان الحرص على التزام هذه التقاليد يزداد كثيراً عندما كان يؤذن لعامة الشعب

(١) سنوحى ، وصحتها سنوحى ، كان أميراً من أمراء الاسرة المالكة فى عهد الملك امنمحاتم الاول (حوالى ٢٠٠٠ ق.م) أول ملوك الاسرة الثانية عشرة . وعندما توفي هذا الملك كان سنوحى يقود حملة ضد الليبيين ، فلما بلغه خبر وفاة الملك توقع الثبر من الملك الجديرم سنوسرت الاول ، لخلافه كان قد سجنه بينها فى اثناء ولاية الملك الراحل ، ففر الى الشام حيث تزوج ابنة احد رؤساء القبائل هناك ، وعاش فى تلك البلاد ، ثم عاوده الحنين الى وطنه العزيز مصر ، فأرسل يستعطف الملك سنوسرت الاول فرد عليه يستدعيه الى مصر ، فحضر سنوحى ومثل بين يديه فغفا عنه ، وضرب صقحا عما بذر منه فى حقه ، وأمضى سنوحى بقية عمره فى مصر .

والأجانب بالدخول للمثول بين يديه .. وكان مما يفخر به كبير
أمناء القصر الفرعونى قدرته الفائقة على ترتيب الأمراء كل وفق
منزله . على أن أختاتون العظيم ، وكان كما نعلم يحمل لقب
« الذى يجي فى الصدق » قضى على كثير من تلك الرسميات ، فلم
يكن على الناس ، على اختلاف طبقاتهم ، حرج عنده أن يسعوا اليه ،
ويجتمعوا فى ساحة قصره فيهللون ويرقصون ، فيطل عليهم - هو
وزوجه وبناته - من شرفة القصر ، ويثر عليهم الزهور تحية لهم .

وظلت التقاليد مرعية حتى جاء الرومان !

وفى عهدهم أخذ الموظفون الرومانيون سلطات لم تكن لأمتالهم
من قبل ، وابتدعوا لأنفسهم اختصاصات جديدة . ففى عام ٤٧ م
أذاع حاكم مصر العام (كاييتو) قرارا شديد اللهجة يندد بذلك !
فقد بلغه أن الموظفين الرومان فى ليبيا قد اغتصبوا أملاك الناس تحت
ستار الضرورة الضاغطة والمنفعة العامة ، ولم يكن مثل هذا الاجراء
مصرحاً به مهما كانت الظروف الداعية له ، ولذلك فقد أصدر أمره
لجميع الموظفين على اختلاف درجاتهم بالامتناع عن أخذ شىء من
الأهالى الا بتصريح خاص منه ، وأن ليس لهم الا حق المبيت فى
دورهم عندما يزورون قراهم لأعمال رسمية ! وأن الموظف الذى
يفرض أى مبلغ من المال على أحد الأهالى مقابل خدمة عامة يؤديها
له ، فانه (أى الحاكم العام) سيوقع عليه غرامة قدرها عشرة أمثال

ذلك المبلغ ، ويمنح المجنى عليه الذى يتقدم النسا بالبلاغ عن هذا الأمر الفاضح مكافأة تعادل أربعة أمثال المبلغ المذكور .

وكان المسجلون المليون يقومون بتسجيل كافة مصروفات المقاطعة وايراداتها ، وكل عجز فيها يعاقب الموظف المتسبب فيه بأن يدفع ما يساويه ستين ضعفاً .

أما العقوبات الأخرى التى كانت نوبع فى مصر القديمه على الأهلين لذنوب خيوها أو مخالفت ارتكبوها فقد كانت تسمم بالاعتدال ، اذا ما قرنت بالعقوبات التى كانت نوبع على سكان الأقطار الأخرى . على أن عقونة بعض الذنوب فى بعض العصور كانت نهاية فى الشدة والقسوة ، فقد حكم على زانسة فى عهد الأسرة الحامسه بالحرق أمام بعض النسوة ، والقباء الرماد المتخلف من حرقها فى النيل ! غير أننا لم نعر فى العصور التالية على مثال واحد من هذا النوع الصارم من العقاب حتى العصر الرومانى ، عندما كثر عقوبة الحرق بسبب الاختلاف فى المذاهب المسيحية . وقد حفظت لنا من حسن الحظ قصة عزل أحد حكام المقاطعات فى عهد الدولة الوسطى : وكانت جريمته أنه تستر على بعض أعداء الملك بانخفاتهم فى المعبد . ويبدو أنهم كانوا عملاء أسرة منافسة للأسرة الحاكمة . وكانت العقوبة التى وقعت عليه حرمانه من الهبات الملكية التى وهبت له ، وحرق جمع الوثائق والمستندات الخاصة

بأمالكه .. وعزله من منصبه من غير أن يوقع عليه عقوبات
بدنية .

وفي الأسرة الثامنة عشرة نرى المنحطب بن حابي (١) يعلن
أولئك الذين ينتهكون حرمة القانون ؛ وينزل بهم عقاباً صارماً
جزاءً وفاقاً ؛ على أنه يبدو من قوله أنها عقوبات أدبية وليست
بدنية .

وفي عهد الأسرة العشرين دبرت إحدى زوجات (٢) أحد
فراعتها مؤامرة لاغتياله ولما كشفت قدم المشتركين فيها
للمحاكمة ، وكان الحكم ارغامهم على الانتحار ، أما الذين ثبتت

(١) حابي أحد الحكماء المفكرين ، عاش في أواخر الأسرة الثامنة عشرة .

(٢) لقد قامت بتدبير هذه المؤامرة . تى زوجه الفرعون العظيم رمسيس
القاتل لاغتياله ليخلوا مكانه فيتولاه ابن لها منه يدلا من ابن ضرتها ولد
المهد وصاحب الحق الشرعى فى تولية العرش بعد موت أبيه . وقد اشركت
معها فى هذه المؤامرة بعض كبار رجال البلاط الملكى وبعض ضباط الحرس
وزوجانهم ، ولما استعد المتآمرون لتنفيذ جريمتهم كشف أمرهم ، وقبض
عليهم ، وعلى الرغم من أن المؤامرة موجهة لشخص الملك ، وقتله ، فقد
شاعت عدالته أن يترك الأمر للقضاء فأمر بتشكيل محكمة خاصة لمحاكمة
التهمين بما فيهم زوجته ، وشدد على المحققين وانقضاء - أن يتبعوا العدل ،
فلا يدينون شخصا بريئا ، ويبرئون شخصا مذنباً ، وبعد هذا مثالا وأبجاً
لعدالة ذلك الفرعون العظيم ، على الرغم من انه - كما المحدثا - كان الأهداف
المتشور من هذه المؤامرة الغادرة .

عليهم أنهم كانوا يعلمون بها ولم يبلغوا عنها فقد حكم عليهم
بجدع أنوفهم وقطع آذانهم (١) *

وقد امتاز حكم الاثيوبيين (٢) بروح الاعتدال ، فلقد قامت
ثورة ضد بعنخي ، فلما أخمدها وسلم اليه المؤتمرون لم يحكم على
أحدهم بالقتل (٣) *

ويروى هيرودوت أن شباكا لم (٤) يأمر بقتل أحد من المصريين
لأية جريمة ارتكبها كائنه ما كانت ، وإنما كان القضاة في أيامه

(١) يروى أنه في أثناء التحقيق في هذه المؤامرة بمكنت بعض السوسة
التهمة من اغراء بعض رجال الشرطة المكلفين بحراستهم بالتوجه في صحبتهم
الى منازل بعض القضاة النوط بهم التحقيق حيث اغررهم ببعض المغريات
لكي يحكموا لصالح المتهمين ، ولكن انكشف أمرهم وقبض عليهم وعلى القضاة
والحراس وحكم عليهم جميعا بجدع أنوفهم وقطع آذانهم جزاء وفاقا على ما ارتكبوه .

(٢) المقصود بالاثيوبيين هنا النوبيون، وقد سبق شرح ذلك في مناسبة سابقة .

(٣) لم تكن هذه ثورة بمعناها المعروف ، لأن بعنخي كان فاتحاً لما يسلم له
فتح مصر كلها ، وكانت مصر آنذاك أقساما ، وكان كل قسم منها يحكمه ملك
صغير أو أمير ، وكان معظم أولئك الملوك أو الأمراء لبيبيين أو سوريين ، وكان
الصراع بينهم على أشده ، ولذلك سهل على بعنخي فتح مصر . وكان أشد
أولئك الملوك الصفار ياسا الأمير تفنخت ، أمير صالحجر الذي ضم أقسام
مصر السفلى تحت لوائه ، ثم ترعم حركة المقاومة ضد بعنخي ، ولكنه هزم
بعد نضال يأسل ، فلم يسلم وآوى الى المستنقعات الشمالية ورفع رايه
العصيان غير أن انصراف أعوانه عنه وتخاذلهم اضطره آخر الأمر الى الخضوع
لبعنخي ! *

(٤) شباكا هو خليفة بعنخي .

يحكمون على مرتكب جريمة القتل بالاشغال الشاقة عاملا فى
السود *

ويقول ديودورس أن الفرعون بوكوريس استبدل بعقوبة
الاعدام الأشغال الشاقة فى حفر الترع مع وضع القيود الحديدية فى
أرجل المحكوم عليهم بذلك *

أما فى أيام الرومان فقد كانت أقصى عقوبة أن يساق المجرمون
زمرأ للعمل فى مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية ، اذ كان من
المستحيل عليهم الهرب لندرة الماء فيها ! ومع ذلك فقد كان المحكوم
عليهم توضع فى أرجلهم الأغلال ، ويساقون سوف الأغنام بالضرب
بالعصى والسياط ليعملوا فى المناجم ليلاً ونهاراً ، ولا يريحونهم حتى
يجلصهم الموت من ذلك العذاب الأليم *

أما العقوبات التى كانت توقع على مخالفى دين الدولة
أو مذهبها ، فقد كانت من جنس العقوبات التى كانت توقع على
أمثالهم فى أنحاء الامبراطورية الرومانية الأخرى !

ويبدو أن اجراءات المحاكمة فى مختلف عصور التاريخ
المصرى لم تختلف كثيراً فى عصر عنها فى عصر آخر ! اذ ليس

لدينا معلومات دقيقة كافية تمكننا من الموازية بينها في المصو
ر المختلفة !

ولعل خير ما نفعله هو أن نستعرض في ايجاز ما نعرفه عنها في
كل عصر .

١ - ففي الدولة القديمة كان هناك محكمتان : محكمة الشمال
ذات الدوائر الست . ومحكمة الجنوب ذات الثلاثين عضوا (١) .

ولم يحدث الا في حالة واحدة ، وجد فيها قاض يعمل في
المحكمتين معاً .

ومما يدل على أن هاتين المحكمتين كانتا منفصلتين ، تلك
الألقاب التي كان يحملها موظفو كل منهما . وقد عرفت ألقاب
تسعة رؤساء لمحاكم الشمال الست الفرعية ، وألقاب خمسة وعشرين
من القضاة العظام في محكمة الجنوب وذلك بالإضافة الى بعض
ألقاب الشرف .

(١) يقول ديودورس ان هذه المحكمة كانت تتكون من ثلاثين عضوا يختارون
من قضاة هليوبوليس ومنف وطيبة بمعدل عشرة قضاة من كل مدينة ، ويجتمع
هؤلاء وينتخبون من بينهم رئيسا لهم ، وترسل المدينة التي ينتخب عضو
من اعضائها رئيس للمحكمة عضوا آخر ليحل محله .

محكمة الجنوب

محكمة الشمال

اللقب.

٥	٨	وزير وقاضى قضاء
١٣	٣	الأول بعد الملك (١)
٨	١	كاتم أسرار الملك
١٣	١	قاضي « عزم » (٢)
١٠	١	آن موتيك

وكان الوزير يرأس محكمة الدوائر الست بصفة تكاد تكون دائمة ، على حين كان نائب الملك رئيسا لمحكمة الجنوب !

وفي عهد الأسرة الثالثة وفي العهد التالية كان الوزير (٣) يجمع بين وظيفته كوزير ووظيفة قاضي القضاء « سبختى » . وكان

(١) كان هذا اللقب يطلق على حاكم المقاطعة منذ عهد الملك سنفر ، الأمر الذى يدل على أنه كان تحت نفوذ الملك المباشر .

(٢) «عزم» معناها المشرف على حجر الترع ، وكانت تطلق في الأصل على حاكم المقاطعة دلالة على أن أهم عمل له هو الاشراف على الري والصرف على مقاطعته ، وفي عهد الأسرة الرابعة أضفى عليه لقب قاضى ، وأصبحت له سلطة قضائية على السكان الدس يحكمهم .

(٣) يلاحظ أن وظيفة الوزير بمعناها المعروف لم تعرف الا في عهد الأسرة الرابعة كما سبق أن أشرنا ، إذ كان كل ملك قبل الأسرة الرابعة يختار أحد العظماء المقربين له كمستشار له ، يقوم بما كان يقوم به الوزير بعد ذلك . مثال ذلك الحكيم والمهندس العظيم امحتب في عهد الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة .

ينتمى دائما الى احدى الأسر الغنية ذات الجاه والنفوذ ، ان لم يكن من الأسرة المالكة نفسها ، على أن يكون قد سبق له أن شغل أحد المناصب الهامة ، ومنصب رئيس الكهنة بخاصة . كان مقر عمله بهو « خا » العظيم ، وهو بهو ذ واجهة مكشوفة ، وعلى جانبيه صفان من الأعمدة . وكان يسمى « البهو الظليل » . وقد عثرنا فى قبر « ر خمارع » (الأسرة الثامنة عشرة) على ما يزيدنا علما ومعرفة من هذه الناحية ، فقد كان بهو « الخا » هو المكان الذى تحفظ فيه السجلات الخاصة بملكية الأراضى الزراعية والعقارات ، لكى يرجع اليها عندما تتطلب احدى القضايا ذلك . وكانت جميع الوصايا تعد لها ملفات مرتبة هناك . وكذلك الشأن فيما يختص بسجلات الحدود وتقديرات الضرائب ، وكافة أنواع المستندات الرسمية الأخرى .

وكانت العادة أن تقدم المظالم والمتمسكات التى تتطلب حكما ضائيا الى محكمة الوزير ومن ثم تحال الى القاضى المختص . ومن الطبيعى أن هذا القدر الكبير من الأوراق والمستندات لا بد أن تتكاثر

(1) «خاء» كلمة هيرغليفية معناها بهو .

(2) «رخماوع» وزير مشهور فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، عاصر الملك العظيم تحتمس الثالث وقد كشفت مقبرته ضمن مقابر الاشراف فى القرنة بالاقصر .

ولهذه المقبرة أهمية قصوى تفوق غيرها من مقابر الاشراف الاخرين لاحتوت عليه من النقوش والكتابات والرسوم التى تشرح بالتفصيل مهام الوزير فى مصر الفرعونية .

وتتراكم سريعاً . ومن أجل ذلك فصلت مستندات الجنوب من مستندات الشمال .

ويدو أن قضايا الأقاليم كانت تحال الى محاكمها الخاصة بها ، ماعدا القضايا الهامة فقد كانت محكمة خا مختصة بالحكم فيها .

وفي الدولة الحديثة كانت القضايا المحلية يعهد بها الى محكمة تتألف من هيئة من الموظفين المحليين ، وهم « رجال المدينة العظام » الذين كانوا يمثلون المحكمة العليا ، وعند نظر القضايا المتعلقة بملكية الأراضي الزراعية ، كان يرسل مندوب يمثل المحكمة العليا ليشارك مع هيئة المحكمة المحلية في الفصل فيها . أما المحكمة العليا ، أو كما كانت تسمى « البيت الكبير فقد كانت هيئة دائمة تتألف من كبار الموظفين ، وهي تشبه مجلس الوزراء في الوقت الحاضر . ولقد كان تأليف الهيئة القضائية في محكمة « تاو » يختلف تبعاً لنوع القضية ، كما تختلف هيئة المحلفين في بريطانيا في الوقت الحاضر تبعاً لذلك . وكان كاتب المحكمة المحلية يشغل وظيفة ثابتة ، وكان عمله الاشراف على تنظيم الاجراءات التي تتبع في عرض القضايا ونظرها والحكم فيها !

ويدو أن الدعاوى التي كانت ترفع الى تلك المحكمة لم تكن تقدم مكتوبة ، كما هو الحال الآن ، وانما كان القضاة يستمعون الى دعوى المدعى ، ورد المدعى عليه ! وعند اصدار الحكم في صالح أحد المتخاصمين ، كان الطرف المحكوم له يطالب خصمه بقيمة أتعاب

المحكمة (١) . وكان المتقاضون ، كما أشرنا ، يتولون الدفاع عن وجهه نظرهم ، ونقض النهم الموجهه اليهم أمام المحكمة . ولم نغز في أية قضية على وجود وكلاء أو محامين عن المدعين والمدعى عليهم قبل العهد الروماني والذين كان يطلق عليهم في ذلك العهد « الظهير أو النصير » .

ولقد كان لأعضاء هيئة المحكمة وظائف أخرى ، ولم يكونوا من رجال القانون المحترفين مهنة القضاء ، ذلك لأن المصريين المثقفين كانت لهم درايه كافية بالقانون تمكنهم من تطبيقه ! وقد كان كاتب المحكمة يقوم بمهمة التوجيه فيما يتعلق بسود القانون التي تنطبق على القضايا المختلفة التي تعرض عليهم ، وكان لمركزه من الأهمية ما لمركز سكرتير المحكمة في الوقت الحاضر .

وفي عهد الأسرة العشرين لم يكن آنذاك غضاضه عند المصريين في أن يتقلد الأجانب مناصب القضاء . ولقد كان في المحكمة التي نظرت إحدى القضايا في ذلك العهد أربعة من القضاة الأجانب ضمن هيئتها التي كانت تتكون من أربعة عشر قاضيا . ويرجع ذلك الى كثرة الأرفاء الاجانب في ذلك العهد ، والذين تحرر كثير منهم وقفز بعضهم الى مناصب ذات سلطان ، كما فعل الماليك بعد ذلك !

(١) يقصد رسوم الغضه

وأوفى قضية وصلت إلينا هي محاكمة لصوص المقابر (١) في عهد الأسرة العشرين ، ويغلب على الظن أنها كانت تهمة لفقها حاكم بر طيبة الشرفى لحاكم برها الغربى للكبد له لما كان بينهما من عداوة ، ولقد سارع الى تحقيقها الوزير ومعه الكاتب الملكى ، فسب لهما أن ما جاء بالبلاغ «بالغ ٥٩ ، اذ وضح بعد فحص المقابر أنها كلها سليمة لم تمسسها يد عدا واحدة فقط (٢) !

(١) يرجع هذه المحاكمة الى عصر الفرعون رمسيس السابع احوالى ١١٠٠ ق.م) وهى تلى ضوفا ساطعا علميا حالة ائدولة المصرية فى ذلك العهد ، ومابلغته من ضعف وانحلال اديا الى تراخى مسستها على شئون الامن والنظام ، والى اهمال حراس المقابر فى البر الغربى بطيه مما امرى اللصوص سرقتها . وقد تم القبض على بعضهم ، وخوكموا وحكم عليهم بالاعدام .

(٢) كانت طيبة يحكمها آنذاك اميران تحت سلطة الوزير ، وكان أحدهما يحمل لقب أمير المدينة وكان يختص بالجزء الشرقى أى مدينة الاحياء ، ويحمل الآخر لقب أمير الغرب ، ورئيس شرطة مدينة الاموات ، وكان يختص بالجزء الغربى من المدينة .

وكان أمير المدينة يدعى «ياسره» ، وأمير الغرب يدعى «بويرو» وكان بين الاميرين عداوة دفينه بسبب منافسة أحدهما لآخر ، وكان كل منهما يشجع مرؤسى خصمه على فعل أخبار الفوضى والاضطراب فى إدارة رئيسهم ، وقد انتهز ياسر فرصة سرقة إحدى مقابر البر الغربى سارع الى تقديم بلاغ عنها للمحكمة العليا ، وكانت - كما أشرنا - بتكون من الوزير وموظفين ثبوين ، فأرسلت المحكمة لجنة تحقيق الى «الجبانة» للبحث والبحرى ، فقامت هذه اللجنة بمهمتها خير قيام ، وفحصت محبوبات عشر مقابر حامت الشبهات حول سرقتها ، ثبت لها أن مقبرة واحدة هى التى امتدت إليها أيدى اللصوص

ويبدو أن نتيجة الفحص لم تعجب ياسر ، الذى امر على أن بلاغه صحيح وأن عدد المقابر التى امتدت إليها يد اللصوص عشرة لا واحدة ، وهذا =

ولقد أدى غلبة النفوذ الديني على النفوذ السياسي ، الذي تميزت به الأسرة الحادية والعشرين الى طريقة الاستشارة أي الاستشارة الالهية ، فكان كبير الكهنة يأتي بلوحتين ويكتب عليهما حكمتين متضادين ، ويضعهما أمام الاله آمون ، ثم يدعوه أن يختار احدى اللوحتين ، فيشير الاله الى الحكم المختار ، وكان ذلك الاجراء بكرر مرتين . ولا نعرف على وجه اليقين عن كيفية هذه الاشارة . . . ولقد ذهب ماسبيرو الى أن تمثال الاله آمون كانت له ذراعان قابلتان للحركة يقوم الكهنة بتحريك احدهما خفية تبعا لأهوائهم . وكانت هناك وسيلة أخرى لاستشارة الآلهة عند حدوث نزاع على ملكية مساحة من الأرض ، فقد كان الكهنة يحملون قارب الاله على اكتافهم ، وعندما يشعرون بثقل وزن القارب ، يكون ذلك اشارة من الاله الى اصدار حكمه ، وكان ذلك يحدث وفقا لأهواء الكهنة . وكانت تلك العقيدة سائدة في اسبرطة .

بإبلاغ الأمر للملك رأساً على حين تقدم بويرو أن يلتمس من الوزير النظر في عقاب ياسر على بلاغه الكاذب ، فعقد الوزير جلسة حضرها أعضاء المحكمة العليا وبحثت تقرير اللجنة ، فأصدر حكمها بعدم صحة الاتهامات التي تقدم بها ياسر ، كما حكمت بإدانته .

والأسف الشديد لم تثبت البردية التي سجلت عليها هذه المصيبة الطريفة وهي بردية «أبيوت المشهورة» تطور هذا النزاع بين الأميرين ونهايته . ولكن بيلوأن المحكمة العليا لم تثبت عدم صحة اتهامات ياسر كلها ، لأنه وإن كانت قد ثبت أن مقبرة ملكية واحدة فقط قد سرقت ، غير أنه قد ثبت لها فعلاً أن عدداً من مقابر الأمراء والمقابر الأخرى قد سرقت فعلاً مما يدل على أن بلاغ ياسر كان قاصراً على سرقة عشر مقابر ملكية .

ولقد لجأ الكهنة الى طريقة الوحي أى استشارة الآلهة لتوطيد مركزهم ، حتى أن الوصايا ونقل الملكية كانت تصدر بناء عن وحي الهى ، وتعد أحكاما سماوية لاتقبل النقص أو الأبرام •

ولم يكن الحاكم العام لمصر فى العصر الرومانى يتمتع بسلطات الوزير القضائية ، لأن تلك السلطات كانت تمنح الى الوكيل القضائى (١) (Dikaidates) ، الذى كان يصحب الحاكم العام فى تنقلاته التفتيشية على المحاكم ، ويقوم بعمل القاضى فى القضايا الكبرى ، التى كان القضاة المحليون يقومون باعدادها له • وكان يصدر مرسوم امبرطورية بتعيينه ، ويتم اختياره عادة من بين الفرسان الرومانيين • وبهذه الوسيلة توزعت سلطة الوزير القديمة •

وكان فى الاسكندرية فى العصر الاغريقى مندوب قضائى للحاكم العام (Archidikastes) وكانت سلطته تمتد الى جهات أخرى غير الاسكندرية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالقضايا التى تحفظ سجلاتها فى الادارة العامة للسجلات التى كان مركزها بالاسكندرية (٢) •

(١) كان الديكاديتس هو الوكيل المباشر للحاكم العام ، فيما يختص بالمسائل القضائية وكانت السلطة القضائية العليا فى مصر من اختصاصه ! ولما كان لايشترط فى الحاكم العام أن يكون ملما بالقانون ، كان لزاما عليه ان يستعين بالديكاديتس فى المسائل القضائية •

(٢) فى تلك الادارة كانت تحفظ الوثائق القانونية لكافة المقاطعات •

وقد نشأت هذه الوظيفة في عهد البطلمة ويبدو أن اختيار المتقاضين تحويل قضاياهم اليه من جهات أخرى بالبلاد انما يرجع الى أنه كان المختص بالنظر في قضايا الاغريق أينما وجدوا ، كما كان الشأن في المحاكم القنصلية التي كانت تنظر في قضايا الأجانب في مصر قبل الغاء الامتيازات الأجنبية .

أما في الأقليم فقد كان حكام المقاطعات مختصين بالنظر في القضايا البسيطة واصدار الحكم فيها . وكان لرؤساء البوليس الحربى (Centurion) سلطات مماثلة ، فوق ما كان لهم من اصدار الأمر بالسجن المؤقت على الخارجين على القانون .

وكانت اذا وقعت حالات سطو واغتصاب للمال أو اساءة استعمال الموظفين للسلطة ، تقدم لمثل القيصر للنظر فيها ، فاذا ثبت صحتها بعد فحصها ، اتخذ الاجراءات الرادعة لاعادة الأمور الى نصابها .

ويعد المؤرخ ديودورس خير من كتب عن القانون الجنائى المصرى ، وسجل نصوصه . ومن هذه النصوص الحكم بالاعدام على شاهد الزور ، ومنها الحكم بالجلد بالسياط والحرممان من الطعام ثلاثة أيام سويا على من يهمل في مديد المساعدة لانسان تعرضت حياته لخطر الموت ، وعلى من أهمل في الارشاد عن لصوص رأهم يسرقون ؟ ومنها أن من اتهم شخصا زورا ، وقعت عليه العقوبة التي يحكم بها عادة على ذلك المتهم البرىء لجريمة لم يرتكبها ، ومنها

الحكم بالاعدام على من قتل نفساً ، سواء أكانت نفس حر أو عبد .
 ومنها أن الآباء والأمهات الذين يقتلون أبناءهم أو بناتهم يحكم
 عليهم بأن يعرضون أمام ملاً من الناس وقد علقت برقابهم جثث
 أبنائهم أو بناتهم ، ثلاث مرات . (١) + أما قتل الوالدين أحدهما
 أو كليهما فكان عقابه التمثيل بجسم الابن القاتل (٢) ثم حرقه حياً
 بعد وضعه على الأشواك . وكانت النساء الحوامل يؤجل تنفيذ الحكم
 فيهن الى ما بعد الوضع (٣) . ومنها أن من ينقل أخبارا الى الأعداء
 يستفيدون منها يقطع لسانه . ومنها أن من يطفئ الميزان أو الكيل ،
 أو يزيف الأختام أو النقود ، أو يغش الذين يعاملهم ، أو يغير في

(١) يفسر ديودورس حكمه المصريين في تلك العقوبة بقوله : « لم ير
 المصريون » أنه من العدل أن يقتلوا الذين منوا بالحياة على أولادهم ، بل
 كانوا يرون أن العدل أن يعرضوا عن مثل هذه الجرائم بتوقيع عقوبة تعصر
 قلوبهم عصراً ، وتبعث في نفوسهم الألم والعذاب الذين لا يفارقانها إذ أن
 يلقوا بهم ، ويحملانهم على التوبة والندم على ما اقترخت أيديهم . انظر
 وهيب كامل ديودورس الصقلي في مصر ص ٧ .

(٢) ومن أمثلة التمثيل أنه كانت تقطع من احسامهم قطعة صغيرة لاتعدو
 حجم الأصبع .

(٣) يعلق ديودورس على هذه العقوبة بقوله « لقد رأى المصريون أنه من
 الظلم أن يشارك الجنين البريء أمه المذنبة في جريئتها ، وأن يقتل من اثنين
 لوزر لم يرتكبه الا واحد منهما . واهم الاعتبارات كلها أنه من غير المعقول أن
 يقضى بالموت على الجنين وهو لا ينتمي الى الام وحدها ، وانما بشاركتها فيه
 الاب الذي لم يرتكب جرماً .

وقد نقل الاغريق هذا القانون : وهيب كامل ديودورس الصقلي في مصر

ص . «٧٥» .

نصوص السجلات العامة بمحو أو زيادة ، كان عقابه قطع كلتا يديه (١) •

ومن تلك النصوص أن الاغتصاب عقوبته قطع عضو التناسل ؛ أما عقوبة الزنا من غير اكراه الزانية فكانت ألف جلدة للزانية ، وجدع أنف الزانية •

ولقد أدى الارتقاء المطرد لتنظيم الزواج على مر السنين في مصر الى سمو المثل العليا للأخلاق ، وبالتالي الى حرص القتيان المصريين الذين يبلغون سن الزواج على الاقبال على الزواج ممن يتوفر فيهن سمو الأخلاق وحسن السلوك من القتيات وترتب على ذلك بقاء عدد كبير من القتيات ممن كان سلوكهن دون المستوى المطلوب عائسات •

وبينا نجد أن مصر قد بلغت ذلك الرقى منذ آلاف السنين ، فان أوروبا لم تعرف الزواج المنظم الا منذ ألف سنة على التقريب • وفيما عدا ذلك فقد كان هناك بعض المسائل التي لاتخضع عادة لأحكام القانون أو الاجبار الأدبي ، ولكنها كانت مع ذلك على جانب كبير من الأهمية لأنها تدين عن الاتجاهات العقلية للمصرى القديم • وفيما يلي نورد لك أمثلة على ذلك :

(١) وجهة نظر المصريين في ذلك ، كما اثبتته ديودورس ان العقاب ينزل بالعضو الذي استخدمه الجرم في ارتكابه جريمته جرحا لايندمل الى يوم ممانه ، فيكون في رؤيته عظة للآخرين ، يصرههم عن اقتراح أمثال هذه الجرائم ، المصدر السابق ص «٧٨» •

ففى الأسرة الخامسة كانت حب الناس واکرامهم والترحيب
بالغريب الطارق من الأمور المرغوب فيها لدى المصريين القدماء حتى
لناكرى الجميل !

وفى ذلك يقول أحد حکمائهم :

إذا كنت كريما مع أحد الناس ، وصنعت معروفًا له ، كأن أئنته
حقًا من حقوقه ، فمن الخير أن تتناسى هذه المکرمة ، ولا تذكره بها
ما لم يذكرها لك هو .

ولقد كان النبلاء والحکام يباهون بنشر لواء الأمن والطمأنينة ،
والعدل والاحسان بين الناس فى كافة أنحاء الأقاليم التى يحکمونها
فى سنوات القحط وسنى الرخاء على السواء :

ولنستمع الى أحدهم وهو يقول :

« لم يوجد فى عهدى فقراء ، ولم يحدث أن جاع أحد فى

أيام ولايتى . »

وفى أثناء المعركة البحرية العظيمة (١) التى خاضت الأسرة
العشرون غمارها دفاعًا عن مصر ضد الغزو الأجنبى ، نرى المصريين

(١) وقعت هذه المعركة فى البحر المتوسط شمال غرب مصر بين الملك
ومسيس الثالث ، ثانى ملوك الأسرة العشرين وبين حلف قوى مكون من
الليبيين وسكان جزائر صقلية وسردنيا وكريت وغيرهم وكان أولئك الغزاة قد
عزموا على مهاجمة شمال غرب الدلتا بحرا وبرًا ، وحشدوا لذلك عسكرة
عظيمة من السفن ! ودارت معركة بحرية هائلة بينهم وبين مصر ، هزم فيها
الغزاة وحطم الاسطول المصرى معظم سفن أساطيلهم المتجمعة ، وبلغت
ضحاياهم ١٢٥٠٠ بين قتيل وغريق ، وكما أسر منهم ألف أسير ، وقد سجل
مسيس الثالث أخبار هذه المعركة على جدران معبده بمدينة هايو .

في المعركة المنفوشة على حيطان معبد هابو (١) وهم يقذون الأعداء من إحدى سفن الغزو التي بدأت تفوق في الماء .

وفي الأسرة الخامسة والعشرين نرى بضخى الفاتح النوبي وقد استاء أشد الاستياء من الأهمال الذي تسبب عنه هلاك بعض الجنجوعا في طيبة . وكان يرجو الحمايات المصرية في المدن بالتسك كلما أوغل في البلاد حقنا للدماء . ومن أقواله المأثورة انه يود يرى أهل منف في أمان مطمئنين سالمين ، وأن لا يتسبب عن الحر التي يخوضها بكاء الأطفال الأبرياء وما يروى عنه أنه لم يقا أحد من المصريين الا في ساحات القتال .

ويقول ديودورس : ان المصريين هم أكثر شعوب العالم تقديرا للمعروف ، الذي يسدى اليهم

ولقد احتل الشعور بمحاسبة النفس حيزا في عقل المصر وتفكيره في عهد الدولة الحديثة ، وفي أواخر عصرها بخاصة ، وله ذلك راجعا الى ظهور عبادة آتون (٢) ، التي تحث الناس على السلو المثالي ، فنرى المصرى في ذلك العصر الزاهر يتوسل الى الالآ لا يعذبه على ذنوبه الكثيرة حتى يصبح جديرا بسك: دار النعيم .

(١) هابو هي التسمية القبطية للمنطقة التي يوجد بها معبد الملك رمسيس الثالث في البر الغربي للأقصر . ومازال هذا المعبد باقيا الى اليوم في حاسنة نسيبا .

(٢) آتون هو الاله الذي عبده اخناتون ، ونشر عبادته ومعتناه قره الشمس .

الفصل الرابع

الحياة الخاصة

الظروف المناخية فى مصر وأثرها فى شكل المساكن

ان مناخ مصر قد جعل المأوى فى ربوعها أقل أهمية عند سكان مصر عنه عند كثير من سكان الأقطار الأخرى ، والأقطار الباردة بخاصة ! ولهذا نرى أن بعض البدو من سكان مصر لا يزالون يأوون الى الخيام ، وأن بعض سكان قراها يأوون فى بعض أشهر السنة الى عرائش من البوص لتقيهم وطأة الحر وعصف الرياح فى أثنائها ، وأنه حتى فى المنازل التى ينونها باللبن أو الحجارة فان البهو المكشوف مسرح طبيعى لحياتهم المنزلية .

ولقد كان الانسان البدائى فى الأزمنة الغابرة يقنع أينما حل فى بقاع الأرض المختلفة بوسائل من الوقاية أقل كفاية منها فى الوقت الحاضر ، سواء أكان ذلك فى الملابس أم فى المأوى ، ولذلك راض نفسه على أن يقترش الأرض ، كما يفعل سكان أقطار أوروبا

الشرقية (سرقى أوروبا) الى اليوم : ولقد كان عندما يجلس على مقعد عال ويدلى قدميه ، بندفع الدم البهما ويزداد ضغطه فيهما ، يجد نفسه مدفوعا الى رفعهما ووضعهما على مقعد آخر .

وكان المصريون القدماء يقترشون الأرض فى أثناء تناولهم الطعام ، ويرفعون احدى ركبتيهم الى أعلى ! ولم يعرف عنهم أنهم كانوا عندما يجلسون يسندون ظهورهم الى متكأ ، كما كان يفعل الاغريق والرومان عند تناولهم الطعام !

ولا ريب أن الأوضاع المختلفة التى كان المصريون القدماء يتخذونها فى جلوسهم ترجع الى عصر ما قبل التاريخ ! ويمكن اجمالها فيما يلى :

(١) لقد كانوا يضمون الركبتين عند جلوسهم على الأرض مع توجيه القدمين الى جهة واحدة ، نستين ذلك من الرسوم البدائية التى ترجع الى العصر الحجري القديم . وقد استمر النساء دون الرجال يتبعن ذلك الوضع الى عهد الأسرة الثانية عشرة .

(٢) وقد كانوا يقترشون الأرض مع خفض احدى الركبتين ، ورفع الأخرى !

وهذا ما نشاهده فى صورة الالهة ايزيس وهى تحمل ابنتها

حورس ، التي ترجع من غير ريب لعصر ما قبل التاريخ !

(٣) وكان الوضع السائد بين الكتبة هو جلوسهم مع جعل

الساقين متقاطعتين ووضع القدمين تحت الركبتين (١) .

(٤) أما الصانع فقد كانوا يجلسون راكعين بينا تكون القدمان

ممدودتين الى الخلف ، كذلك كان يفعل الضيوف .

(٥) وعند تقديم القرابين كانوا يركعون مع ارتكاز القدمين

على الأصابع في وضع رأسى .

(٦) ويبدو أن جلوس القرفصاء مع اتجاه الركبتين الى أعلى

قد بدأ في عهد الأسرة الثانية عشرة ، وهو وضع يستلزم أن يكون

الفخذ أطول من فصبة الرجل ، وهذا الأسلوب في الجلوس شائع

بين المصريين في الوقت الحاضر (٢) .

(٧) وفي حالات نادرة تتطلبها طبيعة بعض الأعمال كانوا

يقترشون الأرض مع جعل الركبتين الى أعلى بينا تكون الساقان

ممدودتين الى الأمام . وعندما كانوا يريدون التعبير عن الخشوع

أو الخضوع ، فقد كانوا يضعون اليدين متقاطعتين على الكتفين .

وكان المتبع عند الدفن في عصور ما قبل التاريخ وضع الجثة

(١) وهي التي سمي الآن الجلوس القرفصاء

(٢) انه شائع بين سكان القرى غير المتعلمين ، وقد اخفى بين المتعلمين ا

بحيث تتخذ شكل القرفصاء ، مع سحب الركبتين بوعاً ما الى أعلى ، وهو الوضع الطبيعي الذي يتبعه في يومنا في الوقت الحاضر . أما دفن الجثة مع جعلها ممدودة ، فقد بدأ اتباعه في عهد الأسره النانية ، ولا يزال هو الوضع الذي يتبعه المصريون اليوم في أثناء نومهم +

وكان الرجال والنساء ، اذا ما دعوا الى الولائم ؛ ساولون الطعام معاً وهم جلوس على الحصر ، ذلك على الرغم من أن منازلهم كانت تحتوى على أجنحة للرجال وأخرى للنساء !

ولقد كانت الدور الكبيره في عهد الاسره النايه عشرة تشتمل على ممرين ، بمتدان من الباب الخارجى الى الداخل + وكان أحدهما يودى الى الأبهاء وحجرات سيد القصر والى المطابخ ، أما الآخر فكان يودى الى الجناح الخاص بالسيدات !

وسوف نصف تخطيط المنازل ورسومها وابنتها في الفصل الأخير من هذا الكتاب تحت عنوان المباني !

أما الأناث كما يبدو من السادج الختصه بالأسرات الباسعه والعاشره والحاديه عشرة ، فكان يتكون من أريكة طويلة ومقاعد في الطابق العلوى من المنزل ، ليجلس عليها أهله للتمتع بالنسيم البارد المتعش ، وعلى حامل تصف عليه جرار الماء وأكوابه ، ورحاة لظحن الفلال كانت توضع على قاعدة في أسفل السلم ، وفي حجرة النوم مقعد يستخدم للراحة والاستجمام ؛ يرتكز على عصن ذى شعب ،

مثبت في إحدى حوائط الحجر (١) •

المدافئ : وكانت مدافئ المنازل المستعملة في عهد الأسرة الأولى من الفخار ، وكانت حافاتها مرتفعة لمنع الرماد من التبثر ، وكان لبعضها حافة مصنوعة على هيئة أفعى ملتوية حول نار موقدة ، كما تفعل الثعابين التي تأوى الى المنازل ، وكان المصريون لا يبالغون بأذى لاعتقادهم أنها تقوم بحراسة المنازل من الفيران التي كانوا يعتقدون أنها تحمل عدوى الطاعون ! (٢) •

وفي عهد الأسرة النانية عشرة كان المصريون يضعون موقدا كبيرا من الفخار في وسط البهو لتدفئته !

تمسك المصريين بالنظافة

ولقد كان المصريون يتمسكون بالنظافة تمسكا شديدا ، وكانت ملابسهم ، وملابس الكهنة بوجه خاص تصنع من الكتان (التيل) لأن الملابس الصوفية كانت في ملتهم واعتقادهم مرتعا خصباً محبباً للهوام والحشرات ، وكانوا يحرصون على غسل ملابسهم في فترات قصيرة وبعناية خاصة •

(١) هيرودوت الجزء الثاني ص ٣٥ •

(٢) كان المصريون يعتقدون أن ثعبان الجوزل هو الاله اجاثوديبون الذي يحرص على طرد الفيران من المنزل منعا من انتشار الطاعون الذي كانت تحمل عدوا •

كانوا يقتسلون بالماء البسارد أربع مرات كل يوم مرتين في
النهار ومرتين في الليل ، كما كانوا يحلقون رؤوسهم وأذنانهم ،
لا بل وأجسامهم مرة كل ثلاثة أيام ! وكان مما يثير سخطهم
وسخريتهم أن يروا الشعور المرسله الكثة في صور الرعاة أو بعض
الأجانب ، وكانوا يصورون الرجل الريفى وقد طال شعر رأسه ،
كما صوروا شعور بعض الثوار وقد طالت حتى تدلت على أكتافهم •
ولقد كان غسل الملابس من الأعمال المنزلية التي استحقت في
نظر المصريين القدماء تصويرها بالتفصيل على جدران المقابر ،
ويتضح من هيئة الحلل الرسمية أن النشا كان يستخدم دائما في
ثبيت طياتها •

ولقد كان المصرى شديد العناية بأداب المائدة (١) • فقد ورد
في سفر التكوين من التوراة أنه كان لكل من كبار الموظفين
المصريين ، وعامة الشعب المصرى والمهاجرين السوريين طريقتهم
الخاصة في تناول الطعام ! •

(١) يتبين ذلك من تصائح الحكيم بتاح حنبل لابنه اذ يقول له : اذا كنت
من بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك مقاما ، فخذ ما يقدم لك ، ولا تأكل
الا مما يوضع أمامك ، ولا تطيل النظر الى ما وضع - من طعام أمام غيرك ، لأن
ذلك مما تفسد منه النفوس !

وانظر بمحيك الى أسفل الى أن يحييك المضيف •

انظر الادب المصرى القديم جزء (١) ص ١٧٩ ، تأليف الاستاذ الكبير سليم

حسن •

ويقول هيرودوت : ان المصريين القدماء لم يكونوا يستعملون
السكين ، أو السفود أو أى وعاء خاص باغريقي ، أو يتناولون
لحما قطمته سكين أحدهم ، ويرجع ذلك الى عقيدة المصرى بأن
معدن الحديد نجس ، وكانوا يؤمنون بأن عظام الاله ست الشرير
مكونة منه (١) . وكانوا لذلك يصنعون مداهم من البرونز .

وكان المصريون يجلسون فى أثناء تناولهم الطعام على

(١) لانعلم علم اليقين سبب ربط المصريين بين الاله ست والحديد ، ولعل
سبب ذلك أنهم كانوا يعتبرون الحديد معدنا (أسويا) ، اذ أنه أول من استخدمه
فى صنع آلات الحرب هم لحيثيون الد أعداء المصريين ، وكانوا كما نعلم من
سكان غربى آسيا كما أن الهكسوس الذين غزوا مصر ، وعائوا فيها فسادا قد
(جاءوا) من غربى آسيا أيضا فوق أنهم عبدوا الاله ست دون غيره من آلهة المصريين
الأخيار ، ولهذا كله ربط المصريون بين كراهيتهم للهكسوس الأسيوبى الأصل
وبين المعدن الذى كان يستخرج من بعض بقاع آسيا الغربية وبين الاله ست
الذى عبده !

هذا هو السبب البادى ، أما السبب الحقيقى فى عدم ذبوع استعمال
الآلات الحديدية رغم انتشار استعمالها فى غربى آسيا ، فهو أن تكاليف نقله
من مناجمه التى كشفها المصريون منذ عصور أسرههم الأولى ، كانت باهظة
لبعدها عن الدلتا ووادى النيل ، على حين أن الححاس الذى نجح المصريون فى
تحويله الى برونز ، كانت مناجمه قريبة !

على أن الحديد ، كما مسبق أن الحقنا ، قد وجد منذ العصور الأولى ،
ولانجزم بنجاح المصريين فى صنع الآلات قبل عهد الأسرة الثانية عشرة ، اذ وجد
فى مقبرة الملك توت عنخ آمون خنجر من الحديد ا ثم أخذت الآلات الحديدية
يعثر عليها فى قبور من خلفوه من الفراعنة ، ثم كثر استخدامها فى عهد الأسرة
الخامسة والعشرين ا وقد عمر فى بلدة نقرطيس على أفران لصهر الحديد ،
ترجع لعصر الأسرة السادسة والعشرين .

الحصر (١) ، وكانوا يستخدمون السكين اذا اقتضى الأمر ذلك ! ولم تكن الشوك معروفة لهم آنذاك ! أما الملاعق فقد استعملوها في عصر ما قبل التاريخ (أى قبل عصر الأسرة الأولى) ولكن أحجامها كانت صغيرة ، ومصنوعة من العاج ! وقد وجدت ملاعق صغيرة الحجم مصنوعة من البرونز كانوا يستخدمونها للدهون العطرية في عصر الأسرة الثانية عشرة ! •

كما كانوا يستعملون ملاعق مصنوعة من البرونز أيضا على هيئة المجرفة (الكريك) في عصر الأسرة التاسعة عشرة ، وقد ادخل الاغريق المعرفة التي كانت ولا تزال تستخدم في نقل السوائل من آنية الى أخرى ! •

ولقد كان المصريون يحرصون بعض السوائل بقطع البوص (القاب) أو الانابيب المرنة كأعضاء الحيوانات ؟ •

وان استعمال المصريين لأكواب النحاس ، والتي ذكرها هيرودت في تناولهم الشراب لمن الأمور المألوفة اليوم في شوارع القاهرة

(١) يقول العالم أرمأن أن الحصر استخدم للجلوس عليه قبل عصر الدولة القديمة ، ولكن منذ أوائل هذه الدولة استبدلت المائدة القليلة الارتفاع والتي يتكون جزؤها العلوى من حجر مستدير بها ، فاستخدمها القبلاء والاعنياء يادى ذى بدء ، ثم استخدمها بعد ذلك الناس جميعا ، واستبدل بها الأمراء والأثرياء مائدة طويلة (مرتفعة) • انظر مصر والحياة المصرية في المصور القديمة : تأليف دراتكه : ترجمة الاستاذين عبد المنعم أبو بكر ومحمم كمال : ص ٢٠٢ •

• وغيرها من المدن المصرية (١) •

ولقد استعمل المصريون قرب الماء منذ عصر ما قبل التاريخ ،
وقد وجدت بعض السدادات المصنوعة من العاج أو الحجر لسد
فوهاتها •

ولقد بدأ ظهور المدى النحاسية التي كانت تستعمل لسلخ
جلود الحيوانات خلال الحضارة الثانية من حضارات ما قبل
التاريخ ! •

وانك لتشاهد شكل قربة الماء ، وقد ربطت من طرفيها بحبل
من جلد تحمل به ، في الرسومات التي ترجع لعصر الدولة القديمة،
وهي شبيهة بالقربة التي يستعملها السقاويون في الوقت الحاضر •

(١) كان المصريون يمرحون كثيرا في الحفلات ، وكانوا يكثرون من شرب
الخمور التي كانت تفقد لهم اترانهم فيزيطون ويصخبون ! وكانت بعض نساءهم
يشاركنهم في ذلك في كثير من الاحيان ! وهناك في احدى مقابر طيبة صورة على
أحد جدرانها تمثل سيدة أفرطت في شرب الخمر فبدأت تترنج فسأعت اليها
احدى خادمتها لتقدم لها كأسا به سائل ، كان معروفا لديهم اذ ذاك من
خصائصه المساعدة على القىء ، فتفرغ ماقى جوفها !

ولكن الى جانب ذلك كان عقلاء تلك العصور وحكماؤها ، وحفظتها على
الأخلاق الكريمة لا يوافقون على تلك الحياة العائثة الماجنة ، فيقول الحكيم ائى
في نصائحه الى ابنه خونسو حنب :

لا تفرط في شرب البجعة ، لان لشاربها فلتات لسان ، يستبجج صدورها
منه ، مى يقيق ويعود اليه رشده ، وهو دائما منبوذ محتقر من الناس حتى
من أمثاله الذين يشاركونه في تماطئها !
ومن نصائحه أيضا «لاتدخل بيت السكر ، ولو كان دخولك يعود
عليك بالخمر !

وفد وجدت في أقدم السجلات التي دونها المصريون القدماء، ما يشير الى شربهم للجمعة والخمر * * * * * ولقد كانت الخمر تقدم في الحفلات والولائم ، ولم يك ثمة لوم أو تتريب على شاربيها ، والسكرارى منهم بخاصة حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة! ففي عهد الاسرة السابعة عشرة ، كان الخدم يقدمون لضيوف أسيادهم كئوس الخمر ليشربوها حتى الثمالة لتدخل عليهم السرور ويقضوا وقتنا سعيدا ! وفي ذلك تقول سيدة من أهل ذلك العصر للساقى « اعطنى ثمانية عشرة كأسا من الخمر لأننى أحبها جدا جدا ! ويظهر أن تباهيا بحب الخمر لم يكن آنذاك مدعاة لتوجيه النقد أو اللوم اليها أكثر من الذهاب لمشاهدة حلبة ملاكمة أو مصارعة فى وقتنا هذا ! *

وفى عصرى الفرس والبطالمة أدى انهيار أسس الحياة القومية المصرية الأصيلة بتأثير عاداتهما وتقاليدهما وسلوكهما التي كانت تختلف جد الاختلاف عن عادات وتقاليد وسلوك المصريين الى التردى فى حمأة الترف والاستهتار والانغماس فى تعاطى الخمر وغيرها من المسكرات ! *

وسائل المحافظة على الممتلكات

لقد كانت الآختم تستخدم منذ ما قبل الأسرة الأولى فى ختم الوثائق التي تثبت تملك الناس للعقارات والممتلكات الأخرى على

• اختلاف أنواعها ، محافظة عليها من ادعاء المدعين !

ولقد استقيننا علمنا بمصور الأسرات المصرية الأولى من بصمات الاختتام الرسمية على الأواني والجرار الملكية •

ولقد استمر استعمال تلك الاختتام الى عصر الأسرة السادسة والعشرين ! فكانت الصناديق والحقائب والرسائل ، وكذلك الجرار الكبيرة والأبواب تربط بالحبال ، ويوضع قدر من الصلصال على العقدة ، ثم تختم بالخاتم • وكانت تلك الأختام على هيئة اسطوانات تمرر على الصلصال ؟ وكان ذلك في عصر الدولة القديمة ! وما جاء جاء عصر الأسرة الثانية عشرة حتى كانت تلك الأختام الاسطوانية قد استبدل بها أخرى مستوية ! •

ويبدو أن ذلك حدث في عهد الاسرة الثامنة وكان أقدمها أختام الملك تلولو (١) •

ولقد استعملت الأقفال لأول مرة في العصر الروماني ! وكان القفل آنذاك يتكون من مزلاج تثبته عندما يراد قفل الباب سقاطات اسطوانية صغيرة من الخشب ، ويرفعها مفتاح اذا أريد فتحه ! •

(١) هو الفرعون نفركارع نونو ، حكم في الدلتا في عهد الاسرة الثامنة اى في فترة الاضمحلال والتسبب والفوضى ، التي انعقدت سقوط الدولة القديمة، ويبدل اسمه على انه من أصل سامي ولذلك لا يستبعد أن يكون من أحد الغزاة الاقوياء الذين غزوا الدلتا من الشرق ،

وقد أصبح القفل. في أواخر العصر الروماني على هيئة مزلاج
ذى ثقب تثبت فيه أسنان من الخشب تسقط في تلك الثقوب ، وكان
المفتاح يستعمل لرفع هذه الأسنان من الثقوب ، ويؤدي في الوقت
نفسه عمل المقبض للمزلاج ! وهذا ما يشاهد في ريف مصر في
الوقت الحاضر •

بعض العادات والتقاليد

من التقاليد التي كانت متبعة في العصور الأخيرة أنه كان اذا
أخطأ رجل أو امرأة خطأ بسيطاً أمرت المرأة أن تركع على
ركبتها ، ثم تضرب على كتفيها بعصا قصيرة ! أما الرجل فكان يطرح
أرضاً منكبا على وجهه بعد أن توثق بداه ورجلاه من خلاف وينهال
عليه ضرباً وجيعاً ! •

ومن العادات المرعية أن الرجل اذا مثل أمام أحد العظماء
ينحني وتلمس يده ركبته ! وكان ذلك هو الشأن في أيام هيرودوت
الذي روى أن تلك الطريقة كانت هي الاسلوب السائد لتحية
العامة للعظماء ! •

أما اذا مثل أحد أفراد العامة أو أحد صغار الموظفين أمام
الملك فكان يختر على الأرض ساجدا وتلمس جبهته الأرض ، كما
يفعل المسلمون في سجودهم في أثناء الصلاة ! أما كبار الموظفين
فكانوا يكتفون ظهورهم ، وبخاصة في عصر الاسرة الثامنة عشرة •

وكان اذا جاء ضيف منزل رجل لزيارته ، وكان متقيبا ،
سارعت ابنته الرشيدة لاستقباله وهى باشه ، طلقة المحيا ، مبدية
الود والسرور بمقدمه •

أما سلوك المصريين عامه ، وفى عهد الأسرة النابية خاصة ،
فاننا نستشمه من أقوال آتف ! فاستمع قوله :

انى ممن يحترمون الناس ، ويدللون لهم الصعاب التى
تعترضهم ، ويكثهون ما فى قلوب الناس ، انى حازم ولبق اذا ما
عزمت على أن أحول دون حدوث ما يصيب الناس بالضرر ، أو
أسوى أمرا عسيرا ، انى طيب القلب ، ولست سريع الغضب
والانفعال ، ولست ممن يمسكون بتلابيب الناس ويطرحونهم
أرضاً ، مهما كانت الأسباب الداعية الى ذلك ، انى ممن يواسون
الجزائى ، بأن ألقى فى مسامعهم بالفاظ عذبة تنسيهم أحزانهم • !

ويقول أنى وهو من أشهر حكماء الأسرة التاسعة عشرة :

اذا أردت أن تصلح بين المتخاصمين ، فأحسن انتقاء الألفاظ
التي تلقيها على مسامعهم ، فان الخطاب الجيد يميل قلوب الناس
إليه فيقبلونه قبولاً حسناً ويعملون به ، واذا طهر الصديق قلبه
من الشرور ، حسنت أعماله ، وانتفع بها أصدقاؤه ، وأصبح بذلك
بمأمن من تقدمه ايها ، فحذار من فقد صداقة الخلان •

ولقد كان المجلس المحلى للسراة مدرسة لأداب السلوك ! وفى

ذلك يقول الحكيم : اذا كنت رجلا ناجحا وعضوا فى المجلس فاحصر
ذهنك فيما يبشر بالنجاح وان صمتك أجدى عليك من القاء الأقوال
جذافا من غير تبصر !•

ولقد كان من التقاليد المتبعة تقديم القرابين وصلوات الشكر
قبل إقامة الولائم • ولقد ذكر يوسف اليهودى (١) المؤرخ أنه
عندما استقبله بطليموس الثانى (فيلا دلفوس) أبعد المسادين
(Heralds) المقدسين وأولئك الذين يقومون بذبح الضحايا ، والذين
كانوا يتلون صلاة الشكر ، ولكنه استدعى القس اليزار (١) وطلب
منه أن يتلو صلاة الشكر ، فوقف بينهم ودعا فى صلاته للملك
ورعيته بالهناء والسعادة •

وكان من التقاليد المرعية آنذاك أنه اذا دعى بعض سراة
المصريين الى وليمة جاؤوا منزل الداعى فى عربات يحف بها الخدم
ذات اليمين وذات الشمال ، وذلك اذا كانت منازلهم تبعد عن بيت
الداعى بعض البعد ، أما اذا كانت قريبة منه ، جاؤوا مشيا على

(١) كان يعيش يوسف اليهودى فى الاسكندرية فى أوائل القرن الأول
الميلادى ، وقد ألف كتابا للرد على مطاعن العالم السكندرى ابيون ضد اليهود ،
وقد نقل عن المؤرخ المصرى مانيثون جزءا من كتابه الذى أفرده للتحديث عن
الهكسوس ، وكان هدف يوسف من ذلك أن يثبت أن يهود مصر من نسل
ملوك الهكسوس الذين غزوا مصر وتربعوا على عرشها حقبة طويلة من الزمن ،
وقد تلاعب بالالفاظ كشأن أفراد قومه لتحقيق غرضه ، ولقد خدم يوسف
تاريخ مصر من غير قصد ولا رغبة منه ، لأنه نقل لنا جزءا من كتاب مانيثون القيم
الذى فقدناه !

الأقدام ! وكان خدم الداعي يقفون فى حديقة منزله مصطفين لاستقبالهم ، وليقدموا لهم الشراب والفاكهة من أوان مرصوصه أمام باب المنزل ! ثم يرشدونهم الى مكان الوليمة ! •

فاذا ما جاءوه قدم لهم الخدم أواني مملوءة بالماء لغسل أيديهم ! وكانت أوان الماء الذى كان الضيوف يغسلون به أيديهم فى الولايم الملكية من الفضة الخالصة ! وكانت تقدم للضيوف بعناية حتى لا ينسكب منها قطرة ماء على الطنافس ، فاذا ما اتخذ الضيوف مجالسهم ، طافت عليهم غادات حسناوات ليضعن أكاليل الزهور حول أعناقهم ،

= (١) هو الكاهن الأكبر لمعد اليهود فى اورشليم آنذاك ا ويشير المؤلف الى ما ذكره يوسف اليهودى عن الترجمة السبعينية للتوراة ومؤداها أن الملك بطليموس الثانى أراد أن يترجم التوراة الى اللغة اليونانية خدمة لليهود الاسكندرية الذين كانوا يؤلفون جالية كبيرة كانت تسكن حى دلتا (ومكانه حى الشاطىء الحالى) فأرسل الى اليزار كبير الكهنة بأورشليم ، رسالة يطلب فيها سبعين عالما ويقول يوسف أن هؤلاء عكفوا على ترجمة التوراة ، منزلين بعضهم عن بعض ، ولما أتموها بعد سبعين يوما ، قورنت تراجعهم بعضها ببعض فوجدت أنها تطابق بعضها بعضا ! ويذهب دكتور ابراهيم تصحى الى أن « الشواهد التاريخية تدل على أن هذه القصة مخترة لأن ترجمة التوراة امتدت طوال القرون الثلاثة السابقة لميلاد المسيح (انظر تاريخ مصر فى عهد البطالمة - ج ١ ص ٢٧٠) •

أما بيغان فيذكر أن التوراة لم تتم ترجمتها كلها ، كما ورد فى رواية يوسف اليهودى ، ولكن ما ترجم منها كان كتب القوانين الخمسة فقط (انظر (Bevan : The Ptolemaic Dynasty, p. 112). ولعل السبب فى ذلك يرجع نسجان يهود الاسكندرية آنذاك لفتهم العبرية وتفاهمهم باللغة اليونانية الامر الذى دعاهم الى طلب ترجمة القوانين الخمسة ، لانهم كانوا يحاكمون وفقا لقانون موسى .

ويضعن الدهون فى هيئة أقماع مخروطية الشكل على رموسهم العارية أى على شعورهن المصففة ، التى كانت تمتص الدهون وكأنها قطع من الاسفنج سكب عليها بعض الماء ! كما كن يضعن فى يد كل ضيف زهرة من زهور اللوتس ! ثم تدار بعد ذلك كئوس الشراب عليهم ! *

وكانت الراقصات الهيفاوات وعازفات الموسيقى والمغنيات بشرح برقصهن وموسيقاهن وأغانيهن صدورهم ، ويضفين على الحاضرين جميعا جوا من المرح والسرور ! فاذا ما انتهت الوليمة ، عرض المضيف على ضيوفه وهم سكارى نموذجاً لمومياء فى تابوت طوله ذراع أو أكثر قليلاً *

وكان بلوتارك (١) يرى أنه كان يقصد بذلك حث الضيوف على التمتع بمباهج الحياة الدنيا قبل أن يصيروا ان آجلاً أو عاجلاً كهذه المومياء ! *

على أن هذا العمل كان يمثل ناحية من نواحي التفكير المنظم الذى اتصف به العمل المصرى منذ القدم ، كما يتبين ذلك من الأغنية التى كانت تغنى فى أحفالهم ! *

(١) بلوتارك مؤرخ رومانى عاش فى أوائل القرن الثانى الميلادى ، جاء مصر وأقام فيها وكتب كتاباً عن العقائد والتقاليد والعادات المصرية القديمة . وأهم ما جاء فى كتابه ما ذكره عن قصة ايزيس وأوزيريس *

صنع نصب عينيك التمتع بالموسيقى والغناء
واطرح جانباً أسباب الأسى والألم
ولا تذكر إلا المرح والسرور
حتى يحين يوم الرحيل
الى المكان (١) الذى يخيم عليه الصمت !

وهناك لون آخر من ذلك المزيج من الفرح والحزن والمرح
والأسى ، يتمثل فى أغنية مانيروس (٢) ، وهو الابن الوحيد لأول
ملك من ملوك مصر القديمة ، وقد خطفته المنون وهو غض الالهاب!
ولقد خلد المصريون ذكره فى هذه المرثية الحزينة التى أطلق عليها
بعد ذلك : لحن أدونيس لفناء الكون ! •

هذا وتمثل الرسوم الموجودة على بعض الآثار المصرية
الضيوف وهم جلوس وليس أمامهم موائد (٣) ، بينا يقدم لهم
الخدم صحاف الطعام الواحدة تلو الأخرى ، ويذكر اثنايوس أنه لم

(١) يقصد القبر !

(٢) هذا هو تفسير هيروdot لهذا النشيد ، ويضيف على ذلك أنه كان
ينشد فى فينيقية وقبرص وغيرها من الأقطار المجاورة لمصر ، وأنه يشبه النشيد
الذى كان ينشده الاغريق باسم لينوس ! ويطلق الاستاذ وهيب كامل على ذلك
بقوله : ان كلمة مانيروس يبدو أنها حورت من العبارة المصرية « ما - ان -
هرا » ومعناها جئنا ثانية . (انظر كتاب هيروdot فى مصر فقرة ٧٩) •

(٣) يلاحظ ما سبق أن نقلناه عن أرمان بهذا الخصوص راجع حاشية سنة
١٩٣ (ص ٥) •

تكن توضع للضيوف موائد على الاطلاق ، وانما كانت تقدم لهم صحاف الطعام ، وهو تقليد كان يتبعه سكان أقطار البحر المتوسط ، وأنه لا يزال متبعا في أسبانيا (١) حتى اليوم .

ولقد كان العشاء عند المصريين أفخر من العشاء عند الفرس !

ولقد كان في المدن المصرية في العصر الروماني حدائق عامة تقام فيها الولائم ، ويؤمها الرجال والنساء والأطفال للمرح والترفيه عن النفس ! وخير مثال لها حدائق اليوسس (Eleusis) (٢) وحدائق كانوبس (Canopus) (٣) بضواحي الاسكندرية ! وفيها كان روادها ينغمسون في حياة بوهيمية اباحيه صاحبه ، فكانت ترى جموعا من الرجال والنساء آناء الليل وأطراف النهار ، يستقلون الزوارق ، وقد أطلقوا لأنفسهم العنان في الغناء والرقص ، مع

(١) استرابون : الكتاب الثالث .

(٢) مكانها الآن المنطقة التي تشغلها أحياء الابراهيمية وأسبورتنج والحضرة وحدقة النزهة ، وكان قسمها الشمالي يعرف باليوسيس الحمامات .

(٣) وهي ضاحية أبو قير الحالية ، التي كانت مزدهرة في العصرين لاغريقي والروماني ، وسميت بذلك لأن فرع النيل المسمى الكانوبي كان يصب في البحر على مقربة منها ! وكان بها معبد لاله سيرابيس ذاعت شهرته في هذين العصرين وكان يقصده المرضى طلبا للشفاء ! وقد سكنها بعض القديسين في العهد المسيحي ومنهم القديس الأنبا كير الذي اشتقت من اسمه اسم الضاحية أبو قير . هذا وقد أخذت المدينة تضمحل عندما انسد الفرع الكانوبي ، وتحول الى فرع رشيد !

التحرر التام من كافة حدود السلوك القويم والتقاليد المرعية (١) ! •
ولقد كانت تقام فى الجبانات ولائم جنازية ، ومازلنا الى
اليوم نرى بعض الأسر تزور مقابر أمواتها احياء لذكراهم ، وتقضى
بعض الوقت فى غرف خاصة ملحقة بها ! •

تعداد السكان

لقد حفظت لنا الآثار المصرية عددا كبيرا من القوائم الخاصة
بتعداد بعض الأسر فى عصر الأسرة الثانية عشرة ! ومن ذلك على
سبيل المثال لا الحصر بيان بأسماء أفراد أسرة هيرا ابن الجندى تحوتى
بالفرقة الثانية من الفرق النظامية المعسكرة بمدينة « وعسرت »
الشمالية (٢) • ومن بين أولئك الأفراد زوجته شبنست ابنة سات
سيدو ، وابنه سنفرو ، ووالدته حار أختى (Harakhni) وأحواته
كأت سنوت ولكتن وايزيس ورودت وسات سنفرو ! •

ولقد عثر على قائمة بأفراد أسرة سنفرو بن هيرا يرجع تاريخها
الى السنة الثالثة من حكم الملك سخم كارع ، ذكر فيها اسم أمه ،
واسم جدته ، واسماء عماته ! •

(١) كان أهل الاسكندرية يستملون القوارب بعد تزيينها بمختلف الزينات ،
ويتجهون بها شرقا نحو مدينة كانوب سالكين قناة كانت تصل بينها وبين
الاسكندرية ، وسط مظاهر الفرح والبهجة والسرور وكان كثير من الموبقات
ترتكب فى تلك القوارب حتى ذاعت شهرة هذه الملاهى الماجنة ، حتى أطلق على
جميع أنواع الملاهى الماجنة آنذاك اسم ملاهى كانوب الفاجرة» .
(٢) مكانها بلدة سان الحجر الحالية جنوب بحيرة المنزلة .

وقد أدى أفراد تلك الأسرة يمين الولاء والطاعة للملك فى
حضرة الوزير وأحد العظماء العشرة للوجه القبلى وكان يدعى
متومحات وثلاثة آخرين ، ثم سجلت أسماؤهم فى سجل خاص !
وكانت أفراد كل أسرة تسجل مرة أخرى فى العام التالى لوفاة ربها ،
باعتبار أن ابنه أصبح ربها وعائلها ! وبعد مرور عامين على وفاة
العائل الأول كان أفرادها يؤدون يمين الولاء أمام الوزير نائباً عن
الملك ! وبحضور أحد أعضاء مجلس الثلاثين ، وثلاثة من المسجلين
الرسميين كشهود ! •

وهذا يبين مدى الدقة التى وصل إليها نظام التسجيل فى مصر
القديمة ، حتى فى حالة عدم وجود ثروة أو ممتلكات لعائل الأسرة
المتوفى !

وكان التسجيل قد شمل جميع أفراد الأسرة بما فىهم الأطفال
وهم فى مهودهم ! •

ولقد كان أساس الأسرة المصرية يرتكز على نظام الأمومة
فقد كان الزوج سواء أكان موظفاً أو تاجراً أو زارعاً ، يتبوأ مركزاً
ثانويًا فيها ، وكانت الزوجة تتبوأ مركز الرياسة فى تدبير شؤونها ،
كما كان البيت أناته ورياشه ملكاً لها ، وإذا ماتت ورثها بناتها
لا أبناءها ! ولهذا كان زواج الأقارب محبباً ! ولا يزال حتى
وقتنا هذا زواج بنات الأعمام بابناء أعمامهم مفضلاً على زواجهم من
الغريباء ! ولعل علة هذا حرص الأسر على ألا تتوزع ممتلكاتها بين

الغرباء ! فتنفصم عراها ! وفى ذلك يقول ديودورس المؤرخ المشهور:
لقد كان القانون فى مصر خلافا لتقاليد الشعوب الأخرى كافة
يجيز ان يتزوج الاخوة من أخواتهم(١)! وقد ورد فى قصة
ستنا (Setna) ما يأتى : ليس لى الا هذين الطفلين فمن الصواب
أن يتزوج أحدهما الآخر . ولقد قال رومانى : انك فى أمنا تستطيع
أن تتزوج أختك من أمك أو أبك ، ولكن فى الاسكندرية تستطيع
أن تتزوج من شقيقتك ! وينبغى لنا أن نذكر فيما يختص بعادة
زواج الأخ من أخته عند قدماء المصريين أن تلك العادة لم تكن
مقصورة عليهم بل كانت سائدة فى أقطار كثيرة من فارس الى
بريطانيا ! على أن موانع الزواج من الأقارب التى نظمها العرف
ثم القانون لم تنشأ الا فى العصور التاريخية المتأخرة . وتعتبر نظم
الزواج من أحدث نظم الحياة التى خضعت لسلطان القانون ، ولقد
أدى نظام الأمومة القوي المتين فى مصر القديمة الى أن تأول الثروة
العقارية كما قدمنا الى النساء دون الرجال ! وكان ذلك من
الحوافز القوية التى أغرت الأخوة بالزواج من أخواتهم لكى

(١) قد يبدو من الغرابة بمكان زواج الملك سنفرو ورمسيس الثانى من
ابنتيهما ، ولكن كما يقول المؤلف : ان هاتين الحاليتين كانتا الوحيدتين لهذا
النوع من الزواج فى التاريخ المصرى القديم كله ، وبذلك يكون ذلك استثناء
لا قاعدة وعلى ذلك لا ينبغى أن يقال أن المصريين القدماء كانوا يتزوجون
بناتهم !
ولا نعلم حتى الآن علم اليقين السبب الذى حدا بهما الى هذا
الزواج !

يحتفظون بالميراث ، اذ كان الزواج من الأخت يؤدي الى الجمع بين ممتلكات الأم وميراث الأب ، أما فيما يتعلق بزواج الأب من ابنته فليس لدينا أمثلة لذلك في حياة عامة الناس ، ولكن لدينا مثلين مؤكدين في حالتى ملكين من عظماء الملوك الأوهما سنفرو ورمسيس الثانى فقد تزوج كل منهما ابنته ! *

وفد تكون ورائه العرش مفصوره على فرع الأمهات فى عصر ما قبل التاريخ ! ولكن فى عصر الأسرة الأولى كانت الوراثة محصورة فى الأبناء * أما فى عصر الأسرة الثانية فقد اعترف بحق النساء فى تولى الحكم نتيجة لسيطرة اتباع الاله ست على سياسة الدولة (١) ، وبذلك استرد البنات حقهن فى عصر وراثة العرش عليهن دون الأبناء * ولم يتول سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة العظام الا لأنه تزوج بابنة آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة (٢) * ولكن لم تلبث أن أصبحت وراثة العرش قاصرة على الأبناء ، وفى عصور الاسرات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة بخاصة ! ولكنها عادت فصارت حقا للنساء ، فى عصور

(١) يرى بعض المؤرخن أن اتباع الاله ست الشرير كانوا يمتنون هذا المدا تشبها بالههم ست الذى تروح اخته نفتيس ! ومع ذلك فلم يكن هربيا أن يتزوج ست من اخته فقد تزوج الاله أوذيرس الخير من اخته ايزيس كما جاء جاء فى قصة ايزيس وأوذيريس وست المشهورة *

(٢) لقد تزوج سنفرو من حطب حرس ابنة سلفه الملك حو وأعقب منها الملك خوفو العظيم .

(٣) يرى البعض أن النساء ظلن يتمتعن بذلك الحق فى عهد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين .

الأسرات الثمينة عشرة والتاسعة والعشرين والواحد والعشرين (١) وما كان تولى ملوكها العرش مرهونا بالزواج من وريثاته التشريعات . وقد ابتدعت الأسرة الحامسة والعشرين قانونا يقضى بمشاركة الأخوات اخوتهن فى وراثة العرش حتى ولو كن كاهنات ! ولقد كان يتبع هذا النظام نظريا فى عهد الأسرة السادسة والعشرين ! فقد كان الملوك يتزوجون زواجا صوريا من وراثات العرش ، قبل توليه ! وقد كان الملك يقيم فى مقر الملك فى الشمال بينما تقيم الملكة شريكته فى الملك فى طيبة متربعة فى منصب كاهنة عظمى ! ولم يكن آنذاك مانع قانونى يحول دون الملك وزواجه من أخرى ! وكثيرا ما كانت أولئك الملكات الكاهنات تبين فتيات اذا لم يكن لهن نوات ! .

ويرى بعض المؤرخين أن قمييز ملك الفرس عندما طلب القربى من ملك مصر امازيس (٢) بالزواج من أحد بناته كان يهدف الى أن يصير لأبنائه منها الحق فى تولى عرش مصر . ولما فتح قمييز مصر كان عزاء المصريين أنه نمت الى ملوكهم بصله النسب (٣) .

(١) يرى البعض أن النساء ظلن يتمتعن بذلك الحق فى الاسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين أيضا .

(٢) هو الملك أحمس الثانى من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ! وقد كان أحد كبار لوظفين فى بلاط سلفه الملك ابريس فتأمر عليه ونجحت المؤامرة ، فنحاه وخلفه على عرش مصر :

(٣) يقول هيرودوت أن قمييز أراد أن يتقرب من الملك امازيس (هكذا ينطق الإغريق لفظ أحمس المصرى) فأرسل اليه يطلب يد ابنته ، فأرسل اليه الأميرة نيبيتس ابنة الملك الخلوع ابريس بدلا من ابنته ، وأن قمييز كشف خدعته ، فحلف قمييز أن يعاقبه عقابا صارما .

ولما تولى البطالمة حكم مصر اتبع ملوكهم نظام الزواج من أخواتهم ، فتزوج بطليموس فيلادلفوس أخته أرسينوى على الرغم من استنكار مواطنيه المقدونيين ذلك ! واستمر اتباعهم لذلك التقليد طوال عهد حكمهم لمصر ، فكان العرش والحال هذه كتمتلكات الأسرة الأخرى يتوارثه عمليا أو نظريا فرد من أفراد فرع الأم ! وكان يتزوج الاخوة أخواتهم الشقيقات أو غير الشقيقات الوارثات الشرعيات للعرش ، ليصبحوا ملوكا ممثلين الاله رع أو الاله آمون على الأرض ! فلقد كان معنى اسم الملك توت عنخ آمون ، الصورة الحية لآمون ! ولما ادعى الكهنة المصريون أن الوحي نزل عليهم واتبأهم بأن الاسبندر هو ابن الاله آمون صدقهم المصريون فتوطدت دعائم سلطان ذلك القائد المقدوني المظفر على عرش مصر •

وكل ما سبق ذكره يتعلق بالتاحيه السياسيه المبحته الخاصه بوراثه العرش ! ولا علاقته له بمن يتخذهم الملوك زوجات لهم من نساء مصر ، أو من بنات الأمراء أو الملوك الأجانب اللاتى يتزوجوهن زواجا سياسيا • ومن أشهرهن الفجر ابنة ملك الحيثيين التى أضفى عليها لقب « الزوجة الملكية العظمى ، سيدة الأرضين معات نفرورع ، (Moat-nefro-Ra) ابنة عاهل خيتا (١) العظيم •

(١) خيتا هى التسمية المصرية القديمة للحيثيين •

ولقد صوّب حياه الحريم على آثار نل العمارنة ، فرى فى الصورة
الفتيات الحسنات يرقص بعضهن ، ويعزف على الآلات الموسيقية
بعضهن ، ووصف بعضهن سعورهن ، وتناول بعضهن الآخر الطعام!
كما ترى بعض غرف المنازل وقد صفت فيها المقاعد وزينت بالمرايا!
ووضعت فى جوانبها الصناديق !

ولقد كان تعدد الزوجات متبعا بين ملوك مصر كما كان متبعا
بين معظم ملوك الأقطار الأخرى !

ولقد برهنت الحوادث ومجريات الأمور فى عصور كثيره على
أهمية زواج الملوك المصريين بأميرات أجنبيات كرابطة من أقوى
الروابط وأفضلها ، التى من شأنها أن تدعم المحالف السياسى بين
مصر والأقطار الأخرى •

وقل أن رى أطفالا من زوجتين أو أكثر لأسر الطبقات العاليه
التى تركت آثار مملته فى عدد من التماثيل ، غير أن أكبر مجموعه
من تلك التماثيل الأثرية ، تمثل زوجة رب الأسرة الأولى ، وكانت
عاقرا ، وبجانبها خمس زوجات أخريات لهن كلهن أطفال ، وكان
عددهن اثنى عشر ، خمسة بنين وسبع بنات • ويبدو أن الزوجه
الأولى تزوجها رب الأسرة على الرغم من أنها لم تكن آنذاك فى
مقتبل العمر لأسباب اجتماعية ، إذ أنها كانت احدى المزيّنات
الملكيّات ، على أن تعدد الزوجات لم يقف عقبه فى مصير الأبناء ،

فقد كانوا يعتبرون جميعا أبناء شرعيين ، مهما كانت منزلة الأم التي أنجبتهن ! على أن الكهنة أو القساوسة كانوا يتزوجون بواحدة ! وكذلك كان الشأن بالنسبة لعامة الشعب !

ولقد كانت حقوق الورثة الشرعيين تحاط بعناية كبيرة فقد كانت تحددها وتبينها وثائق ومستندات رسمية ! ولقد عثر الباحثون على وصية لأحد أبناء خفرع أحد ملوك الأسرة الرابعة وباني الهرم الثاني ، يوصى فيها لابنته بضيعتين ، ولما توفيت وهو على قيد الحياة ، أوصى بها لزوجته ، أما ممتلكاته الأخرى فى أربع عشرة قرية من قرى الريف ، فقد أوصى بها لزوجته وأبنائه موضحا فيها نصب كل منهم ! *

ولدينا بعض الوصايا والوثائق فى حال جيدة ترجع الى عصر الأسرة الثانية عشرة ، منها وثيقة يرجع تاريخها الى السنة التاسعة والعشرين من حكم الملك أمنمحات الثالث تتضمن شراء آحى سنبل ابن شيبست امرأتين اسويتين من قبيلة العامو وطفليهما ، وقد وجدت مسجلة فى مقبرة الوزير خيتى *

وبعد ذلك بخمسة عشرة عاما أى فى السنة الرابعة والأربعين من حكم ذلك الملك نفسه ، نجد وثيقة تملك ، أو وصية ، أوصى فيها آحى سنبل والشهير بعنخ رن بجميع ضياعه وممتلكاته الأخرى من منازل وعقارات أخرى وما ملكت يدها لأخيه ورفقاء حياته المخلصين *

ويبد وأن آحى سنب صاحب الوصية فد توفى بعد كتابه وصيه بوقت قصير ، ويتين ذلك من تسجيلها بعد مضي أربعة أشهر فى مصلحة السجلات ، ومن تسجيل أخيه واح وصية يوصى فيها بجميع ما أوصى له به أخوه لزوجته شفوتيتا (Sheftu-Teta) وذلك بعد مضي خمسة أيام فقط من تاريخ تسجيل وصية آحى سنب ! ومما ذكره واح فى وصيته لزوجته انها حرة فى أن تهب ذلك الميراث حال حياتها أو توصى به بعد موتها لمن تشاء من أبنائها الذين اصحدروا من صلبى ! ومنها انى أوصى لها بالاربع الاماء الاسيويات من قبيلة العامو اللاتى ورتتهن من أخى « عنخ رن » وهما الرقيقتان وابنتاهما اللاتى سبق ذكرهن ، ولابد أن تكون الابنتان فد بلغتا آنذاك السابعة عشرة) •

ثم يوصى بأن يدفن فى مقبرته الخاصة ، ومعه زوجته دون سواها ! •

وقد عين صديقا له يدعى جيمو وصيا على ابنه ، وبأتى بعد ذلك أسماء الشهود الثلاثة على ما جاء بهذه الوصية ! • وهذا يلقى بعض الضوء على نظام الرق فى مصر القديمة (١)

(١) لقد انتشر نظام الرق فى مصر فى عصرى الدولتين الوسطى والحديثة ، لانهما كانا عصرى الفتوحات المصرية العظيمة التى شملت ربوعا كثيرة من الشرق الايدى والواوسط وقد عادت الجيوش المصرية الظافرة بعد استيلائها على اقطار كثيرة بعدد كبير من الاسرى - رجالا ونساء واطفالا - فكانوا يباعون ويؤجرون ، شأنهم شأن السلع والبضاعات . وكان الملك الغازى يتركهم لمن أسرهم قارة ، وقارة يوزعهم جميعا على الجنود الغازين جميعا .

ذلك أنه كان لكل من هاتين المرأتين الرفيقتين من العامو طفلة واحدة
وفت شرائها ، وبعد مضي خمسة عشر عاما ظل عددهن فى الوصية
الثانية أربعا ولم يندكر معهن أطفال آخرون ! وهذا دليل قاطع على
أنهما لم يتزوجا ، ولم يتسرى بهما أحد .

وان أقدم وثيقة لعقد الزواج المصرى عثر عليها الأثريون يرجع
تاريخه الى سنة ٥٩٠ق.م وبما أن نصه يتفق تماما مع نص عقد آخر
عثر عليه ويرجع تاريخه الى سنة ٥٥٠ق.م، فانا نرجح أنهما كانا
نموذجا ظل متبعا حقبة طويلة . وفى هذا العقد نص على أن « ا » قد
حضر الى منزل « ب » ليطلب يد ابنته (ج) ، على أن يقدم
(ب) ٦ أوقيات من الفضة وخسين مكيا لا من الحنطة كدوطة لابنته
«ج» ، وأن يتعهد (٣) بأنه اذا هجر زوجته (ج) كارها أياها ،
أو بسبب رغبته فى الزواج بأخرى، يقوم برد الدوطة ، ويستثنى من
ذلك هجره أياها لارتكابها جريمة الزنا ! وبأن يورث من نتجيه له
من الأطفال نصيبا بذكر مما تركه له والداه .

ولقد كانت تلك « الدوطة » تقدر بحوالى عشرين جنيها
مصريا (١) .

ولقد قدرت دوطة أخرى بنحو ثلاثين جنيها ! .

(١) مقدرة بما يساويه الجنيه المصرى وقت تأليف الكتاب أى فى سنة ١٩٢٣م

وقد تسلمت احدى البنات عند زواجها ، من أبيها دوطه
فدرت يكات واحد أى بحوالى جنيه واحد ! وقد تعهدت بدفع
نصف مقدار الدوطة فوق الدوطة نفسها لزوجها اذا هجرته ! .

ولقد كانت صيغة الطلاق المصرى كالآتى : لقد هجرتك
كزوجة لى ، واننى أفاروك وليس لى مطلب على الاطلاق ! كما
أبلغك أنه يحل لك أن تتخذى لنفسك زوجا آخر متى شئت ، وفى
عقد زواج ليهودى من اليهود الذين كانوا يسكنون الفنتين (١)
يرجع تاريخه الى ٤٤٢ ق . م ما يأتى .

أشور يتزوج مفتاحيا ابنة محسيا . ويعطى محسيا الزوج
خمسة شاقل (٢) « ويعلق على ذلك بقوله له « لقد تقبلت هذه الهبة
وأطمأن قلبك الى ذلك ، ويقدم محسيا لابنته الملابس وأدوات الزينة ،
كما يقدم للزوج هدايا محددة أثمانها فى العقد ، فاذا مات آشور
من غير أن ينتجب من مفتاحيا فسوف يؤول اليها كل أملاكه ! والأمر
بالمعكس ! .

(١) هى جزيرة واقعة امام مدينة اسوان ، وقد سماها الاثريق بهذا الاسم
وهو تحريف للاسم المصرى القديم أبو أى جزيرة الفيل ، وقد يكون السبب فى
ذلك كثرة سن الفيل بها فى عهدهم ! وكان يقطنها جالية يهودية كبيرة فى العصر
الفارسى .

(٢) الشاقل عملة بابلية تساوى نصف أوقية من الفضة تتراوح قيمتها
بين ريالين ونصف الريال وخمسة ريالات وكانت هذه العملة منتشرة فى فلسطين
والشام ! ويبدو أن سكان قبيلة اليهود وقد جاءوها مطرودين من بلادهم بعد
أن دمرها ملوك بابل وآشور ، قد احتفظوا بالتعامل بتلك العملة البابلية .

وإذا مثلت الزوجه أمام القضاء وقالت : انى أطلق آشور زوجى
فان عليها آنذاك أن ترد له الشاقلات الخمسة ، كما تدفع له كلما
أعطاه لها من نقود وتميد له ما قدمه من هدايا ! وعندئذ تكون حرة
طليقة تذهب الى حيث تشاء ! والأمر بالعكس •

أما اذا طرد آشور مفتاحيا من بيته من غير أن يطلقها حق
عليه أن يدفع لها مبلغا وقدره عشرون كبهز (Kebhes)

ويقر آشور فى العقد أنه لا يحق له أن يصرح بأن له زوجة
أخرى غير محسبا ولا بنين غير بنيه منها ! واذا ما صرحت بذلك فانه
يجب على أن أدفع لها خمسة عشر ضعف ما لها :

ثم يلى ذلك توقيع أربعة شهود :

كما وجد عقد زواج آخر يرجع تاريخه الى عصر البطالمة ،
تشابه شروطه شروط العقد السابق ! ففيه قدم الزوج الى الزوجه
مهرامقداره خمسة جنيهات (١) ، وتعهد أن يعطيها راتبا شهريا مقداره
عشرة شلنات ثمنا لأدوات زينتها ، ومثله لنفقاتها الشخصية ! وفيه
يقول للزوجة : ان ابنك البكر منى سوف يرث كل ما أملك من
عقار فى الحاضر والمستقبل وانى أقر واعترف أنك زوجتى ، فاذا
أهملتك أو اتخذت لنفسى زوجة أخرى غيرك فسأدفع لك ما يساوى

(١) مقدار القيمة بالجنيه المصرى وقت صدور هذا الكتاب سنة ١٩٢٣ •

مائة من الجنيهات (١) ، كما أقر أن عقود التملك الخاصة بنصف
ممتلكاتى التى ورثتها عن أبى ، وكذلك عقود الممتلكات التى ورثتها
من أمى سوف تؤول اليك * *

ولم يرد فى العقد شىء خاص بالطلاق ! ولكن جاء ذكر غرامة
يدفعها الزوج فى حالة فسخ عقد الزواج ! وفى عقد آخر كان المهر
سبعة جنيهات وغرامة هجر الزوجة ثلاثين جنيها (٢) وقد عثر على
وثيقة زواج يرجع تاريخها الى العصر القبطى وكانت لابن أحد
القساوسة ، جاء فيها :

بما أن مشيئة الله قد اقتضت أن يرتبط أحدنا بالآخر برباط
الزواج المقدس الصحيح وفقا لتقاليد الرجل الحر والمرأة الفاضله،
فانى أعطيك مهرا مقداره ستة عشر شلنا (٣) ذهبا ، لكى تجيى الى
بيتى كأمرأة حرة ، على أنى أقدرك كأنك قطعة منى ، فلا أقلل من
شأنك ولا أهملك ، ولا أهجرك الا اذا اضطررتى سبب شرعى هام (٤)
فاذا حدث ذلك فسأقوم بدفع سبعين شلنا لقاء ذلك ! وبالعكس *

وهذه المبالغ مقدرة قيمتها بالعملة الحالية تساوى ثمانية جنيهات
للمهر ، وثلاثين جنيها للطلاق *

وكما نجد عقدا يرجع تاريخه الى القرن الثانى عشر ، ينص

(١) ، ٢ ، ٣) بالعملة المصرية فى سنة صدور الكتاب وهى سنة ١٩٢٣ .

(٤) لعله يشير الى رهينة الزوج .

على أن المهر مائة سوليدى أى خمسمائة جنيه ، على أن يدفع خمسها
فورا ، ويدفع الباقي فى خلال خمس سنوات •

وهناك عقد يرجع تاريخه الى سنة ١٢٨٠ م ، وشروطه مطابقة
لشروط العقد السابق !

من هذا نرى أن المصريين كانوا يعتقدون فى جميع عصور
تاريخهم المختلفة حتى العهد المسيحى ! أن وثيقة الزواج لم تكن
الا عقداً كبيره من عقود الصفقات التجارية الأخرى خسارة فادحة
للطرف الذى يقوم بفسخه !

وكثيرا ما كان ينص فى العقد على اعادة قيمة ما دفع من المهر
والهدايا فقط من غير جزاء على فاسخه ! ولكن ما جاء القرن الرابع
للميلاد حتى كثر النص فى العقود على غرامات كبيرة لمن يقوم
بفسخها ! ولعل ذلك التغيير يرجع الى التأثير الاغريقى !

وليس فى كل عصور التاريخ المصرى حتى فى العصر المسيحى ،
أثر ما لزواج دائم أبدا ، لاتفصم عراه ، كما أنه لم نستدل على
ما يشير الى اقامة أفعال دينية خاصة بالزواج ، أو الى وجود نوع
من الطقوس خاصة به ! وربما كان هناك أحدهما أو كلاهما ، ولكن
لم يسجل عنهما شىء مطلقا لا فى عصور مصر الفرعونية ولا فى
عصر البطالة الذين كانوا يعنون بعناية كبيرة بالحفلات المختلفة !

ويقول ديودورس :

لقد كانت عقود الزواج في مصر تنص على منح الزوجه السلطة على زوجها ، وكان الأزواج آنذاك يتعهدون بطاعة زوجاتهم في كل ما يؤمرون به .»

على أننا لم نعر على أى أثر يدل على ذلك فى العقود التى نعرفها ، ويحتمل أن يكون منشأها مبالغة لاحدى الزوجات الوارثات بادعائها حق القيام بادارة ممتلكاتها بدون معارضة أحد من أقارب زوجها .

وعلى الأثار المصرية نرى الزوجة المصرية على قدم المساواة مع زوجها ! وقد كانت الزوجة فى اعتقاد المصريين ضرورية لزوجها فى الحياة الآخرة ! وقد كان يوضع فى قبور الرجال تماثيل أو رسوم لزوجاتهم ، وإذا عز ذلك كان يستبدل بها نماذج من الفخار عليها صورة الزوجة ! .

ولقد منح القانون للمرأة المصرية حرية التعامل إذا كانت تعرف القراءة والكتابة واليك مثل لذلك أورليبايسوس (Aurelia Thaisous) وشهرتها لوليانا ، ابنة أحد كتبة الأسواق المتقاعدين ، تذكر فى طلب لها لجهة من جهات الاختصاص أنها قادرة على الكتابة بسهولة تامة ، ولهذا فإن من حقها أن تتصرف فى شئونها بنفسها . وبعد مضى أربعة أعوام ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٧ ق.م تجدها قد قامت بشراء منزلين وقطعة من الأرض .

ولما كان الزوج مسئولاً عن الوفاء بديون زوجته ، فقد كان السبيل آنذاك الى التخلص من الأفلاس أن يقوم بطلاق زوجته ، بعد أخذه لما دفعه لها من مهر ، ثم تعلن أفلاسها فيما يختص بممتلكاتها (١) ، ثم يعود فيتزوجها ثانية ، على أن يحرر وثيقة ، قبل اتمام عقد الزواج الثانى تخوله حق الحجز على ممتلكاتها بحيث اذا حدث طلاق جدى بينهما فيما بعد لا يفقد الزوج حقه فى المطالبة بقيمة الصداق الذى دفعه للزوجة • على أن الحقوق الشرعية لذريتهما كانت تلقى كل رعاية خلال تلك التطورات •

وكان فرع الأم يوضع موضع الاعتبار الأهم فيما يختص بالنسب ! فقد كان اسم الأم يذكر دائماً ، أما اسم الأب فكثيراً ما يغفل ذكره ! وكان الابناء اذا اتسبوا يذكرون اسماء أسلاف أمهاتهم ، لا أسلاف آبائهم ! ولم يكن الأب الا حامل لقب ، أما الام فكانت واسطة عقد الأسرة ! ويستثنى من ذلك شاغلي بعض الوظائف التى يرثها الأبناء بحكم القانون عن آبائهم أباً عن جد ! فانهم كانوا ينسبون الى الآباء لا الأمهات وكانت الممتلكات العقارية يرثها الابناء عن الأمهات سيدات البيت !

(١) فى ذلك العهد كانت بركة الاب تنتقل بعد موته الى اولاده وأولاد اولاده ، ولم يكن هناك قانون يمنع توريث الحفيد اذا مات أبوه ، كما كانت التركة تؤول اذا لم يكن للمورث اولاد ولا أحفاد الى الاخوة والاخوات كما كانت انصبه الاولاد فى الميراث متساوية ، ولم يكن هناك تمييز بين الذكور والاناث •

ولقد كانت مكانة الحال ووالد الأم تسمو مكانة العم ووالد
الأب .

ولقد رأينا في الفصل الأول أن توارث مختلف الصناعات
والحرف لم يتقيد قط بنظام الطبقات ، بيد أن العرف كان يقف
أمام كل شخص حائلا إذا أراد الخروج عن نطاق مهنة والده . . .

ولقد كانت الوظائف الدينية بخاصة يرثها الأبناء عن الآباء
بسبب ما تتطلبه إقامة الطقوس والشعائر الدينية من تدريب دقيق
فضلا عن أنها كانت دائما موضع التبجيل والاحترام ومصدر هبات
ومنح لمقلديها ! ولقد كان أهم استثناء لهذه القاعدة تنصيب الملك أحد
أبنائه في منصب من المناصب الدينية الرفيعة كمنصب الكاهن الأكبر
لمنف أو هليوبوليس ! . . ويحدثنا أحد الكهنة في عصر الأسرة
التاسعة عشرة بقوله :

لقد تعطف الملك وقرر بعدما تبين له أن أبنائي قد اتحدروا
من صلبى أن يعينهم كهنة يعملون تحت رعايته السامية . اننى
الكاهن الأكبر للاله آمون ، فأصبح ابنى كاهنا ثانيا لى فوق وظيفته
كمدير مساعد للقصر الملكى ! وسوف يمنح حفيدى منه ألقاب
الكاهن الرابع لآمون والأب المقدس ، والقس .

ولقد شاهد هيرودوت فى منف مجموعة من التماثيل الخشبية

يبلغ عددها ٣٤٥ تمثالا ! وقد أخبره مرشده أنها لكبار كهنة الاله
بتاح ، الذين توارثوا هذه الوظيفة ابنا عن أب ! *

وقد كان منصب الكاهن الأكبر لبتاح فى العصر الرومانى
مفصورا على الابن الأكبر وكان الابناء الآخرون يعدون خارجين على
القانون ان هم أحدهم بتولى ذلك المركز *

ولما كانت ورائه العقارات الثابتة تنحدر عن طريق الأم ، كان
من الطبيعى أن يقع واجب كفالة الوالدين احدهما أو كليهما على
عائق بناتهما دون أبنائهما ! *

ولقد كان هذا الأمر من الأمور التى أثارت دهشة الاغريق
الذين كانوا يزورن مصر *

ولقد سبق ذكر قصة ابن الملك خفرع (١) وما ورثه من
ممتلكات عقارية وهناك حالة لاحقه لذلك التاريخ تختص بكاهن يسمى
« نكغنج » (٢) الذى كان له الحق فى أن يوصى بما يشاء من أملاكه!
لقد أراد نكغنج هذا أن يوصى بضيعتين بملكهما لأولاده من بعده

(١) كان كاهنا للالهة حاتحور فى عهد الاسرة الخامسة ، وقد اشتهر بتلك
الوصية التى سجلها على احد جدران مقبرته ! وقد ذكر فيها أن ملكيته لهده
الارضى يرجع الى عهد الملك مترع ! وانه عين كاهنا فى عهد الملك اوسركاف .
(٢) ورث عن جده وكان يدعى خفوكا احدى هذه الضياع ! وتقدر مساحتها
نحو ٤ فدان أما الضيعة الاخرى وكانت مساحتها نحو ٤ فدانا أيضا وهبت،
له كمرتب من الدولة مقابل قيامه بأعباء وظيفة كاهن للالهة حاتحور .

على أن يقسمان بينهم بالتساوى ، كما أوصى أن يقوم كل منهم
بوظيفة كاهن التي يشغلها لمدة شهر بالتناوب (١) ! وإلى جانب ذلك
وضع شروطا للتصرف في أملاكه الخاصة (٢) .

وفى عصر الأسرة الثانية عشرة كان العرف يفرق بين الضياع
التي يرثها الأشراف عن آبائهم التي كان يحق لهم أن يوصوا بها
لأبنائهم ، وبين الضياع الحكومية التي كانت يمنحها لهم الملك طول
حياتهم جزاء لهم على إخلاصهم وولائهم له ! *

وكثيرا ما كان الأب المورث ينص في وصيته عدم تصرف
الورثة فيما تركه لهم من ممتلكات بالبيع أو التجزئه كما لو كانت
موقوفه ! وكان يذكر في بعض عقود التورث « انها موروثه
لشخص واحد ، ولا تورث الا لشخص واحد » وكان أحيانا يعين
الشخص الثاني بأن ينص على أنه « الحفد ، أو الحفيدة » ! *

(١) وضع نكمنح في وصيته التزامات وظيفته بوصفه كاهنا أعظم للالهة
حاتحور في يد جماعة من أسرته تحت اشراف ابيه الاكبر ، وبذلك أصبح جميع
أولاده يستفيدون من وظيفته ، على أن يقوم بالعمل بأعباء وظيفة الكاهن الأعظم
للالهة حاتحور ، كما وزع بينهم القيام بالشعائر الدينية التي يوهب ثوابها
لجده حتوكا الذي ورث عنه الضيعة الأولى .

(٢) كان نكمنح يملك عشرين فدانا اوقعها على أن يصرف ريعها على اقامة
شعائر دينية يوهب ثوابها له بعد وفاته ، ووكّل مهمة القيام بها لاربعة من أولاده
لم يذكرها في الوصيتين السابقتين ، ويبدو أنهم من أم غير أم ابنائه الذين
ذكرها في الوصيتين :

وكان من أهم واجبات الابناء تقديم القرابين الى أرواح آبائهم
وأجدادهم كما هو الشأن الآن فى الصين والهند • وكان الابن الأكبر
يلقب بعائل أمه (ايون - موت - اف) وكان يلبس جلد النمر
عندما يقوم بتقديم القرابين الجنائزية لروح والده ! •

وفى ذلك يقول الأمير زاو الثانى (١) :

لقد احتفلت بدفن والدى الأمير زاو فى موكب ضخام فاق كل
مواكب الأحفال التى أقيمت لأقرانه من أمراء الجنوب ! فلقد توسلت
فى ذلة وخضوع السائل الى صاحب الجلالة ملكى نفر كارع ، عاهل
الوجهين القبلى والبحرى أن يأمر بصرف تابوت وأقمشة ، وفدر من
المطور من الخزانة الملكية من أجل والدى زاو المتوفى زد على ذلك
أنى هيات كل شىء بحيث يجمعنى وأبى زاو مقبرة واحدة حرصا
منى على البقاء دائما الى جواره • ولم يمنعنى من بناء مقبرتين
احدهما له والأخرى لى ، نقص فى مواردى المالية ، وانما دفنى الى
بناء مقبرة واحدة رغبتى فى التمتع برؤيته كل يوم •

ولقد منح زاو الثانى كل ما طلبه من ملكه فى سهولة ويسر ،
ولعل السبب فى ذلك أن أباه زاو الأول كان أخا لزوجتى الملك
ببى الأول •

ولقد كان حقا على الأبناء عند تشييع جنازة آبائهم أن يطرحوا

(١) ماش ذلك الأمير فى عهد الملك ببى الثانى •

الثيران أرضاً ثم يقوموا بحرها ، وانك لشاهد صور هؤلاء الابناء وهم يفعلون ذلك ! واسماؤهم منقوشة على جدران مقابر آبائهم ! وكانوا يقومون عدا ذلك بصيد الطيور وتقديمها قرايين لهم ! وهذا ما فعله الملك رمسيس الثانى لأبيه الملك سيني الأول ! كما هو مصور على جدران معبد أيدوس •

وكان المصريون القدماء ينظرون الى تعليم الابناء كأنه واجب تمليه عليهم محبتهم لهم ! •

ولقد قال أحد حكماء الأسرة الخامسة :

اذا كنت رجلاً ناجحاً فى عملك ، ووهب لك الاله ولداً من فضله وكرمه ، فاذا سلك هذا الولد سراطاً مستقيماً واقفنى فى الحياة أترك ، وسهر على رعاية مصالحك •• فعليك أن تمنحه كل ما تستطيع من بر وعطف ورعاية ، ولا بدع فانه ولدك الذى سوف يخلفك فى حمل شعلة روحك المقدسة ، وهى روح الآباء والأجداد التى حملتها قبله ، ولا تدع قلبك ينصرف عن محبته مهما كانت الأسباب التى قد تدعوك الى ذلك •

ولقد كان الأطفال يلقون فى لفافات من الأقمشة منذ نعومة أظفارهم وتحملهم الأخوات الكبريات أو الأمهات وراء ظهورهم تارة وعلى صدرهم تارة أخرى ، وكان من أحب وسائل التسلية الى نفوسهم عندما يشبون عن الطوق صنع لعب من الصلصال على

هيئات مختلفة ، وهم يمرحون ويلعبون على جوانب الترع والقنوات القريبة من فراهم الريفية ، كما يفعل اليوم أبناء بعض القبائل الأفريقية ! وكانوا يحملون أحسن ما يصنعونه من اللعب الى بيوتهم للتسلية بها في أثناء وجودهم فيها •

وإذا اتاحت لك فرصة وشاهدت صور بعض منازل قدماء المصريين على جدران معابدهم ، لرأيت في داخل بعضها صور لعب أطفال على هيئة تماسيح وخنازير وأغنام ورجال وقوارب وتواييت وموميات •

وان صنع نماذج للاشخاص أو للأشياء لم يحرمه الاسلام تحريماً قاطعاً ، فقد شاهدت منظرأً لصبي يجر كتلة من الصلصال ثبت عليها أربعة عصي ، نشرت فوقها قطعة من القماش ، وهو يفسر ما تعنيه تلك اللعبة لأخته ، قائلاً : هذا هو هودج العروس • وكان يوجد غير ما يصنعه الأطفال من لعب لأنفسهم أنواع أخرى من اللعب يصنعها الكبار لهم من الخشب من بينها دمي تتحرك ، بيد أن تلك اللعب لم تكن تثير اهتمام الأطفال كتلك التي يصنعونها بأيديهم !

وكان الأطفال المصريون يلعبون بالدوارة (١) وبكرات الجلد

(١) يقصد ما يسميه العامة بالنحلة •

المحشوة ، وبكرات من الخشب ، وأخرى من الجوارب القديمة
المحشوة •

ولقد كانت تلك اللعب يستخدمها الأطفال المصريون في ألعابهم
الى عهد قريب •

وكان الطفل في مصر الفرعونية يبدأ حياته المدرسية في سن
مبكرة ، كما هو الحال في مصر الآن ! ولا يمكن أن يكون لهذا
النوع من الحياة المدرسية آنذاك أثر فعال في نشأة التلميذ لأنها لم
تكن تؤهله الى استيعاب موضوعات دراسية عميقة ، اد كان هذا
النوع من التعليم مجرد مران رتيب للذاكرة ، كما هو الآن ، دون
محاولة لفهم المعاني وادراكها • ولقد كانت بعض المدارس تلحق
بدواوين الحكومة المختلفة لاعداد طائفة من الموظفين للنهوض
بالأعمال الحكومية •

ولقد كان يوكل الى الكهنة القيام بتدريس الموضوعات التي
تطلب بحثا عميقا كالكتابة الهيروغليفية والحساب والهندسة والفلسفة
وعلم الأخلاق •

وأقدم كتاب من الكتب التي كانت مقررة دراستها في حوزتنا
الآن هو الجزء الخاص بالتبرؤ من الخطايا والذنوب من كتاب الموتى
المشهور ، وهو يتألف من فصول ، يشمل كل فصل منها على
خمسة بنود • وهي طريقة ابتدعها المصريون القدماء لتساعد الذاكرة

على الحفظ عن طريق العدد بالأصابع ، ويبدو أنه يرجع تاريخ تأليفه الى عصر ما قبل الآسرات ، وآية ذلك أنه خال من ذكر أى شىء يتعلق بواجبات الأفراد فى الأسرة •

ولقد كانت ألواح الفخار أداة استعمالها التلميذ المصرى للمرانة على الكتابة ، وما لبث أن استعمل لهذا الغرض تلك الألواح الفخارية بعد طليها بطبقة رقيقة من الجص لمنع تسرب الحبر الى مسامها • كما ساعد طلاءها على سهولة مسح الكتابة لاستعمالها مرة أخرى !
والواقع أن جزءا كبيرا من إنتاج المصريين القدماء الأدبى حفظته لنا تلك الألواح الفخارية التى عثر عليها فى بعض مقابرهم •

ولقد ورد فى قصة وقمت أحداثها فى عصر الأسرة الخامسة أن آية امرأة من نساء الطبقة الراقية تستطيع قراءة الهيراطيقية (١) الخاصة بذلك العصر ، غير أن الكتابة بها لا ينقصها الا « كاتب قدير وعالم جليل » •

ولهذا كان يدرّب من كان يريد الكتابة تدريبا دقيقا مضنيا لاحتوائها على مئات الرموز ! وآية ذلك أنه قد عثر علماء الآثار المصرية على كتابات ملأى بالأغلاط وغير واضحة المعنى ! الأمر الذى يدل على أنها صادرة من أشخاص غير محترفين للكتابة ! •

(١) تتألف حروف هذه اللغة من حروف اللغة الهيروغليفية بعد اختصارها وحذف بعضها ليسهل على الكاتب استيعابها ، وكانت سالدة بين الكهنة ولذلك أطلق عليها الاغريق هذا الاسم ومعناه الخط الكهنوتى •

ولقد كان فى استطاعة العداد (١) المصرى فى عصور مصر الأولى أن يحصى السفن القادمة والراحلة وحمولاتها ، ويريدون أسماء ما تحمل من بضائع وغيرها ! •

ولقد عثرنا على بعض الرسائل التى يرجع تاريخها الى العصر الرومانى فام بتحريرها الفلاحون تحتوى على أخطاء كثيرة ، كما عثرنا على كتابات فى الموضوعات المختلفة غير الرسمية تحتوى أيضا على أخطاء كثيرة على الرغم من صدورها من شخصيات كبيرة ! •

ومن الغريب أن ابنة كاتب لأحد الأسواق زعمت انها «تستطيع الكتابة فى سهولة ويسر» ذلك على الرغم من أن ابها وغيره من الكتاب المحترفين لم يكونوا معصومين من الأخطاء فى عمليات الاحصاء التى كانوا مكلفين بها ، كما كانوا يخطئون أحيانا فى العمليات الحسابية من جمع وطرح ! •

ولقد كان أطفال الطبقات الراقية يذهبون الى مدرسة الحضاة التى كانت ملحقة بالقصر الملكى ، حيث كانوا يختلطون فيها بأبناء سيدات القصر وبالرهائن من أبناء أمراء سوريا ! •

وكان يشرف على تربيتهم هيئة كبيرة العدد من الوصيفات والاتباع ، وقد خصص للكبار من هؤلاء الأطفال معلمون كان يطلق

(١) الذى يقوم بعملية التعداد بجميع أنواعه من احصاء للسكان ، واحصاء حمولة السفن القادمة والراحلة : والمعاصيل المختلفة .

عليهم « الآباء الربون » الدين كان لهم حق الاشراف على تعليمهم وتنشئتهم . وقد سجلت لأولئك المعلمين فى مقابرهم رسوم وقد جلس على ركبتي كل منهم أحد الأمراء الصغار ! ولقد كانوا يمتازون بالقدرة العلمية الممتازة ، ولم يكونوا دائما من ذوى الحسب الرفيع ! . ولقد كان سموت ذا مكانة رفيعة فى الدوائر الرسمية ، كما أشرف على تربية الأميرة نمرورع (١) ، وريثة العرش ، على الرغم من عدم ورود ذكر لايه وأجداده فى السجلات الرسمية ! .

ولقد كانت تنشئة الابناء فى القصر الملكى موضع فخر واعتزاز من جانب النبلاء ، وقد كانوا بشيرون اليها عند تدوين تاريخ حياتهم ! فيقولون انهم كانوا ممن أشرفوا على تربية أبناء الملك .

ولقد جرى العرف فى عصر الأسرة التاسعة عشرة على أن جميع الأطفال الذين يولدون فى يوم ميلاد ولى العهد لهم الحق فى تنشئتهم معه فى القصر الملكى ! وقد يكون علة هذا أنهم يشاطرونه نفس الطالع ، فيحق لهم أن يشاطروه نفس المصير ! .

وقد عثرنا على أحصاء لهؤلاء الأطفال يبلغون فيه ١٧٠٠ طفل ، ويبدو أن هذا الرقم صحيح ! فاذا علمنا أن نسبة المواليد كانت تبلغ فى مصر القديمة ٦٠ فى الألف كما هو الآن ، وأن ربع هذا العدد

(١) ابنة الملكة حاتشبوت .

(٢) أى فى تاريخ صدور الكتاب ! .

يموت قبل بلوغ سن الالتحاق بالمدارس ، فانه ينتهم أن يكون عدد سكان مصر آنذاك ١٤ مليوناً . وهذا يؤكد دقة المصادر التي كان يعتمد عليها المؤرخ المشهور ديودورس .

وان السيليل الذي كان يسلكه أى موظف مصرى منذ ولادته حتى يوافيه أجله يتمثل خير تمثيل فى تاريخ حياة باكن خنسو (Bakenkhonsu) فقد ولد قبل عام ١٣٢٠ ق م وبعد أن سلخ أربع سنوات من عمره فى دور الطفولة ، وأثنى عشر سنة فى دور الصبا تقلد منصب أحد كهنة آمون فى سن السادسة عشرة ، واستمر متربعا فيه حتى سن العشرين ، ثم تقلد بعد ذلك منصب الأب المقدس لآمون ، لمدة اثنى عشرة سنة ، ثم منصب الكاهن الثالث لآمون من الثانية والثلاثين الى السابعة والأربعين ، ثم منصب الكاهن الثانى لآمون من السابعة والأربعين الى التاسعة والخمسين ، ثم منصب الكاهن الأكبر لآمون من التاسعة والخمسين الى السادسة والثمانين ، وكان تقلده هذا المنصب الأخير فى عهد رمسيس الثانى ، ولقد ظل يشغل ذلك المنصب الى عهد رمسيس الثالث ، الذى تولى عرش مصر فى (١) سنة ١٢٠٢ ق م . وعلى ذلك يكون هذا الموظف قد عاش ١١٨ سنة على الأقل أى من سنة ١٣٢٠ ق م الى سنة ١٢٠٢ ق م .

(١) لانه ولد قبل عام ١٢٢٠ ق م ، وقد يكون مولده قبل ذلك بضع سنين ، كما انه حضر عهد رمسيس الثالث وقد يكون قد عاش فى ذلك العهد بضع سنين اخرى .

هذا ولم يتدهور التعليم فى مصر فى العهد الفارسى ، اذ أنه يؤثر أن دارا ملك الفرس أمر باعداد كافة الأدوات والآلات والأجهزة اللازمة لتدريب الشبان المصريين على شئون الطب والجراحة •

أما فى العهد الاغريقى فقد كان نظام التعليم يقضى بتنقل طلابى العلم المصريين من مختلف المدن لزيارة مشاهير العلماء لتلقى العلم على أيديهم ، ولكنه لم يلبث أن انهيار بسبب الحروب والاضطرابات التى حدثت بين الدول التى قامت عقب موت الاسكندر واتقسام امبراطوريته •

ونقد عانت مدينة الاسكندرية التى كانت عاصمة مصر آنذاك بسبب كثرة المدايح وأوامر النفى والتشريد التى حدثت فى عهد بطليموس البطين حوالى سنة ١٤٠ق.م وقد ترتب على ذلك انقراض عقد مدرسة الفكر العظيمة التى كانت قد ازدهرت فى مدينة الاسكندرية ، فلاذ أساتذتها وعلمائها بالفرار الى مدن اليونان وجزرها ! وهناك أسسوا نهضة علمية جديدة فى مناطق كان يسودها التخلف الفكرى فى عهد حكم الرومان لها ! •

ان استعمال سكان أقطار البحر المتوسط للملابس أول مرة

(٢) هو بطليموس التاسع ، وقد اطلق عليه الاسكندريون لقب البطين من باب التهكم والسخرية لشرامته •

اتقاء للبرد القارس والحر اللافتح لم يعم الا فى العصور الكلاسيكية ،
أى فى عهدى دولتى الاغريق والرومان ! أى أنهم لم يرتدوها فى
عصور ما قبل التاريخ ! *

أما فى مصر فقد بدأ استعمال الملابس فى عصور ما قبل التاريخ .
وقد بدأ الرجل المصرى بالتحاف جلود الماعز ، ثم لم يلبث أن
شد على وسطه حزاما (٣) . أما المرأة المصرية فقد كان أول رداء
لبسته ثوبا ذا أهداب ، ومن الغريب أن ذلك الثوب ذى الأهداب
لا يزال يستعمله بعض نساء بلاد النوبة حتى الآن ! ثم أخذ
المصريون يرتدون ملابس مصنوعة من أقمشة منسوجة من ألياف
الكتان ! *

ولقد كانت المرأة المصرية فى عصر ما قبل التاريخ وفى أواخر
ذلك العصر بخاصة ترتدى أحيانا ازارا مصنوعا من خيوط الكتان
البيضاء ، وكان ضيقا حتى ليكاد يلتصق بجسمها ، ومتديا الى ركبتها .

أما فى عهد الأسرة الأولى فقد كان المصريون يرتدون العباءات
لوقايتهم من البرد ! وكانت تلك العباءات مبطنه أحيانا ! ولقد كان الملك
والأمراء والنبلاء يلبسون تحت العباءات صدرات وقمصان قصيرة
زيادة فى الوقاية من البرد ! أما العمال فقد كانوا يكتفون بقطعة

(٣) لقد كان يربط بهذا الحزام من الامام مايشبه الجعبة أو الكس لسر
العورة ، كما تدل رسوم الرجال على لوحة تارمر المشهورة .

من القماش تلف حول الأرداف ويربط طرفاها فوق البطن ! وقد ظل ذلك شأن عمال الزراعة حتى عهد الأسرة الثانية عشرة !^١

وفي عهد الأسرة الرابعة ابتكر صنع الثنيات (١) في أثواب الطبقة الراقية آ لتساعدهم على التحرك فى سهولة ويسر ! ثم تطور شكل الرداء منذ ذلك العصر حتى عصر الأسرة التاسعة عشرة ، حتى أصبح يثبت بحمالة ترتكز على الكتفين أو يمتد من الحلف فوق الظهر ، ثم يثبت الى الصدر بحمالتين ترتكز على الكتفين • وقد استعملت الحمالات المقاطعة فى بعض الملابس التى كان يرتديها المصريون فى عصر الأسرة الثانية عشرة وما بعدها ! بيد أن تصوير ذلك الزى المبتدع على جدران المقابر وعلى الآثار القديمة الأخرى لم يساير ذلك التطور الكبير الذى حدث فى حياة الملابس وتفصيلها • وما جاء عصر الأسرة الخامسة حتى بدأت النسوة يرتدين فساتين ضيقة جدا ، وطويلة بحيث تصل الى الكعيبين ، ولها أكمام ضيقة ولها فتحتان عند العنق ، واحدة من الأمام والأخرى من الحلف ، تسهلان لهن ارتداهن ، وكان لكل من هاتين الفتحتين شريط يستعمل فى ضم حرقها عند الحاجة !^٢

ولقد كان المصريون منذ العصور الأولى وبخاصة الذين كانوا

(١) يخالف أرمأن ذلك اذ يقول فى كتابه مصر والحياة المصرية ص ٢١٦ ان التجديد الذى أدخل على الرداء فى الأسرة الرابعة هو زيادة طوله واتساعه ! أما الثنيات فلم تصنع الا فى أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة .

يزاولون حرقا يتعرضون في أداؤها لرطوبة الماء وبرد الهواء ، كانوا يلفون أجسامهم برداء يقيهم منها ! بيد أن هذا الرداء كان قصيرا الى درجة أن أطرافه السفلى لا تصل الى الأرداف ، وكان لذلك يقصد به وقاية الجسم من البرد لاستره .

ولقد أدخلت في العصور التالية زيادات وتغييرات في الملابس جريا وراء ستر الأجسام وحب المظهر ! ولقد كان الزي الرسمي للموظفين يختلف جد الاختلاف عن ملابسهم العادية . وكان الوزراء يرتدون دثارا سميكًا طويلا ، يتدلى الى الكعنين .

وكان من عادة المصريين منذ عصور ما قبل التاريخ أن يحلقوا شعر رعوسهم ويضعون شعورا مستعارة عند تعرضهم حرارة الشمس .

ومهما يكن منشأ هذه العادة ، فقد استمر اتباعهم لها في أثناء عصور تاريخهم الطويل . ولعل سبب ذلك حرصهم على نظافة رعوسهم !

وكانت النساء المصريات يقصرن شعور رعوسهن ويضعن فوقها شعرا مستعارا (١) . ولقد كانت القتيات والسيدات المصريات وفي عهدى الاسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة بخاصة ، يصفقن شعور رعوسهن ويصنعن منها ثلاث جدائل اثنتان يتدليان من الأمام ، وواحدة تتدلى من الخلف ، وفي حالات نادرة كان يحلق شعر الرأس الأمامى للخدمات ولا يترك منه الا خصلة واحدة على قمة الرأس !

الفصل الخامس

موارد البلاد المختلفة
وتجارقتها الخارجية

موارد البلاد المختلفة وتجاريتها الخارجية

نكتب في هذا الفصل عن الموارد الطبيعية للغذاء والكساء في مصر الفرعونية ، أى عن منتجات أرضها ووسائل توزيعها فتقوى :

لقد كانت فصول السنة في مصر القديمة أساسا لتنظيم أعمال سكانها ، ولا تقتصر أثر هذه الظاهرة الطبيعية على شئون الزراعة فحسب ولكنها كانت تشمل المظاهر المختلفة للنشاط البشرى • ويرجع ذلك الى أنه كان يوجد آنذاك فترة جفاف شديد وجذب يشمل البلاد من أقصاها الى أقصاها ، تتبعها فترة بفيض فيها ماء النيل ، يعقبها نماء ومحصول وفير • ولقد عرف المصري القديم من تجاربه الطويلة المواعيد الآتية :

وهى أن مياه النيل تنخفض الى أدنى مستوى لها فى شهر يونيه.

ثم تأخذ في الارتفاع في مستهل شهر يوليه ، وتستمر في الزيادة خلال هذا الشهر ، ثم تبلغ مداها في الثالث والعشرين من شهر أغسطس فيحتفل المصريون بوفاء النيل ، ويقومون بفتح التسرع والقنوات لرى أراضيهم ، وقد يستمر مستوى الفيضان عاليا الى أواخر شهر أكتوبر ، ثم يأخذ مستوى مياه النيل في الانخفاض حتى لا يبقى على سطح الأراضي الزراعية قطرة ماء .

ويترك ماء الفيضان وراءه بعد انسلاحه عن الأرض طبقة من الغرين المخصب عليها ، وعندما تأخذ تلك الأراضي في الجفاف وتحمل ثقل الانسان ، يخرج كل فلاح الى أرضه ، ويذر فيها الحب ، ويفطيه بآلة ابتدعها يطلق عليها أهل الصعيد الآن اسم اللوح ، ولا يمضى أكثر من اسبوعين حتى يأخذ النبات الصغير في الظهور ، وتبدو الأرض مخضرة الجنبات ، وكانت هذه الظاهرة تعتبر تبشير الفصل الأول من فصول السنة ، وهو فصل النماء أو الانبات (١) .

(١) كان المصري يقسم السنة الزراعية لثلاثة أقسام متساوية ، تقابل ثلاث مراحل مختلفة في زراعة الأرض : فالفصل الأول الشتاء ، وكان يندىء من أواسط أكتوبر الى أول فبراير ، ربه كانت ندر الحبوب في الأرض بعد انسلاخ ماء الفيضان عنها وكان يسمى (برت) أى الخروح أى ظهور الأرض من تحت ماء الفيضان ، والفصل الثاني من أول فبراير الى يونيه وهو فصل الحصاد وكان يسميه المصريون «شمو» أى انسلاخ الماء عن الأرض ، والفصل الثالث فصل الفيضان وكان يسمى «أخت» من منتصف يونيو الى منتصف أكتوبر . وكان كل فصل أربعة شهور ، وكل شهر ثلاثون يوما ، وتم السنة بإضافة أيام الشيء لخمس ، ولم يكن المصريون يسمون الشهور بأسماء خاصة بل كانوا يطلقون عليها عددها مضافا الى فصلها ، فيقولون الشهر

وفى أثنائه يخرج الزراع من قراهم بمواشيهم ، وقيمون فى حقولهم

= الأول من فصل الحصاد ، والشهر الثالث من فصل الفيضان وهكذا ، ولم تسم بأسمائها المعروفة لنا الآن الا فى القرن السادس ، وهى السماء معبودات مصرية قديمة : فتوت اسم المعبود تحوت ، وهو طائر أبو منجل الذى كان يظهر آنذاك فى الحقول ويقضى على الديدان وآفات المزروعات الاخرى ، وقد جعله المصريون رمزاً للعلم لما كان يوحى به مظهره فى أثناء بحثه عن الديدان بالتأمل والتفكير . وبابه نسبة الى «أبى» أى طيبة ، وهاتور نسبة الى الالهة هاتور أو حاتور وكيهك نسبة الى أحد الأعياد المصرية ، وطوبة بمعنى الحنطة ، وأمشير أو مخير أى عفريت الزوابع ، وبرمهاث نسبة الى الملك أمنحتب الذى آلهه المصريون بعد وفاته ، وبرمودة نسبة الى ابنة الحصاد ، ريشنس نسبة الى الاله خنسو ، ويؤونه وأصلها « بى أنت » أى عيد وادى الملوك الحجرى ، ومازال هذا الشهر يسمى الى اليوم بيؤونه الحجر وأبيب عيد الاله « أيببى » . ومسرى ، وأصلها مس - رع أى ولادة الشمس .

أما أيام النسوة الخمسة فكان المصريون يسمونها الخمسة الايام التى فوق

السنة .

هذا ومازال العلاج المصرى الى اليوم يستخدم هذه الشهور فى تقويمه الزراعى ويقرن اسم كل شهر منها بما يتفق معه فى حالة المناخ أو الزراعة أو نوع المحصول كما يلى :

- (١) توت هات الاتوت (كثرة البلع) .
- (٢) بابه زرعه يغلب النهاية (لوفرة المحصول) .
- (٣) هاتور أبو الذهب المتور (القمح) .
- (٤) كياك صباحك مساك (دلالة على قصر النهار) .
- (٥) ظوبة أبو البرد والرطوبة التى يغلغى العجوز كركوبة .
- (٦) أمشير يقول للريح سير (دلالة على شدة العواصف) .
- (٧) برمهاث روح الفيظ رهات (فيه ينضج المحصول) .
- (٨) برمودة دقى بالعامودة (موسم الدرس) .
- (٩) بشعنس يكنس الفيظ . كنس (الحصاد) .
- (١٠) بيؤونه الحجر (شدة الحر) .
- (١١) أيبب طباخ العنب والتزبيب .
- (١٢) مسرى تحرى فيها كل برعة عشرة (بداية الفيضان) .

أكواخا من عيدان البوص ، وبخاصة فى حقول البرسيم ، وكانوا
يربطون ما شبتهم فى أثناء النهار بحبال متصلة باوتاد لتأكل من نبات
البرسيم من غير أن تطأه بأقدامها فتهلكه .

ولقد كان سراة المصريين فى عصر الأسرة الأولى ينقلون بيوتهم
الخشبية من حافة الهضبة وقيمونها فى الوادى وسهل الدلتا ! وكانت
الغلات الزراعية من قمح وفول وشعير وحلبة وترمس تنضج فى ذلك
العهد ، كما هو الشأن اليوم فى غضون شهر أبريل ثم تحصد ،
وعندئذ تصبح الأرض قفراء جرداء لانبات فيها ولا ماء ، دات تربة
طينية سوداء صلبة تتخللها شقوق عميقة ! وعند ذلك كان الزراع
لا يجدون عملا يفوهون به إلاّ رعاية مواشيهم ! ولقد دفع ذلك الفراغ
بعضهم الى القيام بزراعة مساحات محدودة من الأرض العالية التى
تحف بالترع والقنوات ، ويرفعون الماء لسقيها بالشواديف . وفى الوقت
الذى تبلغ فيه درجة الحرارة فى مصر أقصاها ، وينخفض ماء النيل
الى أقصى حد له ، يبدأ ماؤه فى الزيادة فتبدأ تبشير حياة جديدة ،
ولا يزال الماء يعلو حتى يصل الى مستوى الأرض الجافة ذات
الشقوق العميقة ، فيغمرها ! وعندئذ يبدأ فصل الفيضان ! وتبدو
القرى المصرية كما يقول هيرودوت كأنها جزائر بحرايجة ! وكان
المصريون آنذاك لا يجدون عملا مجددا يقومون به ، فيخلدون
للكسل . ولقد فكر بعض الفراعنة من ذوى العقول الراجحة ،
فقدروا ما يصيب المطلق رعاياهم من تعود على القعود والكسل ،

فكلفوهم بأقامة تلك المنشآت العظيمة مثل الأهرام والمعابد ، التي تعد بحق من المفخر الخالدة لتلك البلاد (١) .

وان منهاج العمل في مصر القديمة مسجل تسجيلا دقيقا في أوراق من البردى يرجع تاريخها الى العصر الروماني ، ومنها نعلم أن العمل خلال شهرى سبتمبر و اكتوبر كان قاصرا على حراسة الجسور التي كانت تقسم الأراضى الزراعية الى حياض ، لوقايتها من الانهيار بفعل مياه الفيضان ، وبسقى المساحات القليلة من الأراضى الصالحة للزراعة التي لا يصلها ماء الفيضان لارتفاعها وقد سبق الإشارة إليها ! .

وكانت تبنى الجيوب في شهر نوفمبر كما ذكرنا ، وفي أثناء فترة نمو المزروعات المختلفة ، كانت تشذب أشجار الكروم والتخيل وفي شهرى أبريل ومايو ، كانت تحصد المحاصيل ثم تجمع وتدرس

(١) لارى معظم المؤرخين مابراه بعضهم في بناء الهرم الاكبر العرف المتصعب من جباه المظلومين ، ولا السياط ترتفع في ايدى الزبانية القساة ثم تهوى على ظهور العاملين الناصبين ، ولكنهم يرون فيه حكمة الراعى المسئول عن رعيته ، انبصر بأمورها .. وخلاصة رأيهم أن خوفو .. رأى الملاحين لا يشتغلون في الأرض الا أياما معدودات في أثناء بذر الحب وحرث الأرض وفي أيام الحصاد وجمع المحصول ، ويفعدون فيما بين ذلك في دورهم ذبحادون يعملون شيئا محديا ، رأى الملك الحكيم ذلك الفراغ الطويل فاتفق عليهم ان يتعدوا النسل ، ويتاصل بهم الخمول ، فامر حكام الاقاليم أن يختاروا من سكانها من يصلحون للاضطلاع باعباء اقامة ذلك البناء الضخم المشمخر ، على أن يؤجروا على عملهم ، ويعدم لهم العناء (مصر الخالدة للمؤلف الاول ص ٤٠ - ٤٧) .

ثم تحمل الغلال المستخلصة الى المخازن المعدة لها !

ولقد كانت مناسب مياه الفيضان تختلف فى جهات الوادى المختلفة ! وفى ذلك يقول بلوتارك « كانت مياه الفيضان عند مقاوز جزيرة القنتين تصل الى ٢٨ ذراعا (٤٨ قدما) على حين أنها كانت أمام منف نصل الى ١٤ ذراعا فقط (٢٤ قدما) كما كانت تصل قبل مصب أحد فراع النيل فى البحر المتوسط بقليل نحو ٦ أذرع فقط (١٠ أقدام) .

كما يقول المؤرخ بلينى « ان الفيضان اذا بلغ عند منف ١٢ ذراعا فقط حدث جذب مروع ، أما اذا بلغ ١٣ ذراعا أمنت البلاد شر الجذب ، واذا بلغ ١٤ ذراعا ، كان الفيضان متوسطا واذا بلغ ١٥ ذراعا كفى متطلبات الزراعة ، فاذا ما بلغ ١٦ ذراعا كان بهجة للنفوس .

وقد حدث أعلى فيضان فى التاريخ فى عهد الامبراطور كلوديوس (١) ، اذ بلغ ١٨ ذراعا . أما أقل فيضان سجله التاريخ فقد حدث فى عام ٤٨ ق.م اذ بلغ ٥ أذرع فقط ! وقد ذكر استرابون أن مياه فيضان النيل انخفضت انخفاضاً شديداً عام ٤٠ ق.م ، ولكنه لم يذكر مقدارها ! .

ولتقدير ارتفاع مياه فيضان النيل أقيمت مقاييس فى أماكن

(١) حوالى عام ٢٦٩ م .

عدة ، أشهرها فى جزيرة الفنتين وطيه ومف • ويرجع بعض المؤرخين أن هذه المقاييس أقيمت فى أوائل عصر الأسرة الأولى ، كما يدل على ذلك تسجيلات ارتفاعات مياه الفيضان فى حوليات الملوك (١) وهذه الارتفاعات مسجلة بدقة تصل الى ١٦/١ من البوصة ، ولا بد أنها كانت ترصد فى أماكن فيها المياه ساكنة لا يهيجها تيار ، ويبدو أن فيضان النيل فى ذلك الزمن الغابر كان أقل تذبذبا بدليل أنه لم يتجاوز الفرق بين النهايات الصغرى والنهايات الكبرى فى مدى ٤٩ سنة سبعة أذرع على حين وصل ذلك الفرق فى العصر الرومانى ثلاثة عشر ذراعا ، كما لم يبلغ متوسط الاختلاف عن المعدل السنوى أكثر من ذراع واحد وكف واحد أى قدمين اثنتين • ولعل سبب ذلك كان يرجع الى أن النيل كان فى ذلك العصر ينصرف اليه مياه الأمطار التى كانت تسقط فى مساحات أوسع من المساحات التى تنصرف مياهها اليه الآن بما فيها البحيرات الاستوائية ، كما أن وسائل الري الصناعى آنذاك كانت بسيطة ، ولعل أبسطها كان الشادوف (٢) وطمبور ارشيميدس ، أما الساقية التى لا يزال الفلاحون

(١) وجدت هذه التسجيلات منقوشة على الاثر المعروف بهجر بلرمو •
 (٢) يرى بعض العلماء أن المصريين عرفوا الشادوف فى عصور ما قبل عصر الأسرة الأولى ، ولقد نقل كويبل (Quibell and Green : Herakonpolis 1902, p. II, pl. 74-75).
 وسمي لشادوف كان منحوتا على جدران مقبرة هيراكنبوليس بالقرب من ادفو ،
 ترجع الى ذلك العصر الغابر .

فى مصر يستخدمونها بكثرة فى رى أراضيهم فانها لم تستخدم قبل
العصر الرومانى •

وفىما يلى أهم أنواع المحاصيل فى مصر القديمة وطرق زراعة
كل منها

الحنطة (القمح) لقد كان حبها يبذر كما هو الحال فى الوقت
الحاضر وتغطى بواسطة ما يسميه الفلاحون « اللوح » اذا كانت التربة
لاتزال لينه ، أما اذا كانت جافة وصلبة تتحمل وطء الثيران استخدموا
المحراث أو العزاقة فى تغطيته (١) •

وعندما تنضج الحنطة كان الفلاحون يستخدمون المنجل فى
حصدها ، ويجمعون سوقها ، ويدرسونها (٢) ثم يستخلصون حبوب
القمح ، ويعبئونها فى أكياس ، يحملونها الى بيوتهم أو الى الاسواق
ليعها وكانت سيقان الحنطة بعد درسها غذاء للماشية ! •

ولقد كانت العادة فى العصر الفرعونى أن يترك الزراع نصف
محصولهم من القمح فى سنبله ، ثم يربطونه حزماً ، ثم يحفظ فى
مخازن خاصة •

وكانت مخازن الحنطة نوعين :

-
- (١) لاتزال يستعملها الزراع حتى وقتنا هذا وهى شبيهة بالفاس •
 - (٢) كانوا فى العصور الغابرة يستخدمون الثيران والحصير فى وطء السنبال
لتخليص الحب منها ثم لم يلبثوا ان ابتدعوا التورج المستعملة الان فى ذلك !

١ - حظائر مخروطية الشكل مبنية بالطوب ، وكانت تستخدم لحزن السنابل .

٢ - حجلات سقوفها على هيئة قباب ، وكانت تستخدم لحزن الحبوب .

ولقد كانت تلك المخازن تغطي أرضها بطبقة سميكة من قنات الحجر الجيري منعا من تسرب القنران إليها .
وأهم الحبوب التي كانت تزرع في مصر الفرعونية القمح والشعير والذرة (١) .

(١) لا ريب أن المؤلف يقصد الذرة الرفيعة التي يسميها الفلاحون العويجة Millet التي كانت معروفة في العالم القديم ، لأن الذرة الشامية corn المنتشرة الآن في أرجاء العالم المختلفة لم تعرف إلا بعد كشف أمريكا ، إذ لم تكن تنمو إلا فيها ومنها نقلت إلى أقطار العالم المختلفة ، كما أن الذرة الرفيعة نقلت إلى مصر من أواسط أفريقية ، وكانت أكثر ما تزرع في أراضي الحياض بالوجه القبلي . وهي بوعان :

(أ) صيفية وتسمى القيسى ، وتبدأ زراعتها من منتصف مارس .
(ب) ثيلية ويمتد بدأ زراعتها من يوليه إلى أغسطس تبعاً لموعد التصريح بطفى الشراقي ولا تزال مسألة زراعة الذرة العويجة في مصر موضع جدال بين العلماء فبعضهم يجزم بأن المصريين القدماء مارسوا زراعتها ومنهم ماسبيرو إذ يقول أن المصريين القدماء زرعوها وكانوا يطلقون عليها اسم ديراتي أو دوراتي ويستشهد على ذلك ببردية يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة (66) p. 1, Maspero : Histoire de Peuples, Vol. I, p. 66) ويؤيد رأيه هذا ويلكنسون (27) p. 27, Wilkenson : Manners and Customs, Vol. II, p. 27) ويزعم فريق آخر منهم أن الذرة كانت تزرع في مصر القديمة وكان المصريون القدماء يسمونها «ات» أو «بوت» (انظر قواعد اللغة المصرية القبطية لجورج صبحي ص ٩٣) =

وفي عهد الأسراب الأولى كان القمح يجفف بوضعه في أون كبيرة ثم تدلى في حفر عميقة ، بحيث تتركز على قضبان من الفخار ، وتوقد حولها النار . وكان الغرض من تجفيفه حفظه من السوس .

الكروم : لقد كانت كروم العنب تزرع في مصر في العصور القديمة ، ولقد ظهرت معاصر العنب على الآثار التي ترجع الى منتصف عهد الأسرة الأولى ، على أن احدى الأساطير المصرية القديمة تدل على أن أوزيرس كان أول من ابتدع زراعة كروم العنب ، وأنه أول من صنع منه النبيذ ، الأمر الذى يدل على أن زراعة الكروم عرفت في مصر القديمة قبل عهد الأسرة الاولى بألاف السنين وكانت الكروم في عصر الدولة القديمة تعتمد على عرائش ! أما في عصر الدولة الحديثة فقد كانت تزرع في وسط حدائق قصور الأمراء والعظماء على هيئة خمائل يستظلون بها في أشهر الصيف من وهج الشمس ! ولقد أوحى ذلك بطراز من طرز البناء حاكاه المهندس الذى اضطلع ببناء بهو الأعمدة العظيم في تل العمارة ، والذى بالغ في المحاكاه فطلى سقفه بالجص وزينه برسم شجرة من أشجار العنب! .

= ولا يذكر ارمان في كتابه عن مصر . والحياة المصرية في العصور القديمة - ترجمة دكتور عبد المم أبو بكر والاستاذ محرم كمال ، شيئا عن زراعة اللدة في مصر . ويرى أن كلمة يوت التى يؤكد بعض العلماء أنها الاسم المسمى للدر ، كانت تطلق على نوع من الشوفان (أنظر ص ٥٠٣ من كتابه المذکور) ويؤيده المؤرخ الالمانى شفيتورت ولكنه يذهب الى أن كلمة يوت كانت تطلق في مصر القديمة على نوع من الشعير ، على حى يقول دكتور سليم حسن ان زراعة اللدة في عصر الدولة القديمة لم يبق عليها دليل قاطع (مصر القديمة ج ٢ ص ٨٠) .

وكان العنب يجمع فى سلال ويحمل الى المعاصر لاستخراج النيذ منه ! وكان النيذ المستخرج من العنب أنواعا ، كان يطلق عليها أسماء مختلفة ، منها نيذ بوتو ، ونيذ اسنا ونيذ مخفف ، ونيذ أبيض . ولقد كان لنيذ الدلتا فى عصر الاغريق شهرة واسعة ، ونيذ مريوط بخاصة ! وكانت كروم العنب آنذاك تزرع بكثرة فى الفيوم وفى الواحات .

وكانت الخضروات تزرع فى معظم جهات مصر المختلفة ، وأهمها الفول والعدس والبازلاء ، وعندما كانت مياه الفيضان تأخذ فى الانحسار عن الأراضي التى كانت تحف بالوادي ، يسارع أصحابها الى زرعها بالبصل والكراث والثوم والخيار والقثاء بأنواعها المختلفة ! كما كان نبات القلقاس ينمو فى المناقع والمستنقعات ! وكانت ثماره عندما تنضج تجمع وتتقع فى الماء عندما كان يراد طهيها ! ويبدو أن العلة فى نفعها الرغبة فى التخلص من بعض عناصرها التى كانوا يعتقدون أنها ضارة بالانسان ! وكانت تزرع بعض النباتات لاستخراج الزيت منها ، وأهمها القرطم والسمنسم والحس والسلجم (١) والكتان فوق استخراج الزيت من بذوره كانوا يصنعون منه المنسوجات الكتانية التى يتخذون منها ملابسهم المختلفة . ولقد كان يزرع فى العهد الرومانى أربعة أصناف من الكتان ! فكان الصنف الأول يزرع

(١) السلجم نبات من فصيلة الكرنب .

فى تانىس (١) والنانى فى بلوزيوم (٢) والثالث فى بوتو والرابع فى
دندره (٣) .

أما القطن فقد كانت مساحة الأرض التى كان يزرع فيها فى
العهد الرمانى قليلة جدا ، ولم يكثر زرعه واستخدام محصوله فى
صنع المنسوجات القطنية الا فى العصر الاسلامى ! .
أما أشجار الفاكهة فيبدو أن أول ما زرع منها فى مصر كان
نخيل الدوم والجميز والخروب ، أما نخيل البلح فقد استورد حبه
من العراق ، ثم زرع فى بعض جهات مصر وفى بلاد الصعيد بخاصة!
ولم يكن واسع الانتشار ! أما أشجار الرمان فقد كانت مساحاتها قليلة
فى بادىء أمر زراعتها فى مصر (٤) وأكثر بقاع مصر زراعة للتين

(١) تانىس هى مدينة صالحجر الحالية ، وكانت العاصمة الثانية فى عهد
الاسرة التاسعة عشرة ، والحاضرة الاولى لمصر فى عهد الاسرة الحادية والعشرين ،
وهى غير مدينة تنىس التى اشتهرت فى العصر الاسلامى بمنسوجاتها والتى لا تزال
اطلالها باقية فى احدى الجزر الواقعة فى شرقى بحيرة المنزلة !

(٢) بلوزيوم هى مدينة الفرما التى اشتهرت فى اثناء الفتح العربى لمصر ،
وتقع على بعد ٣٠ كيلومتر شرقى بور سعيد ، وكان فرع النيل البلوزى يصب
عندها ، وبه سميت وكان سبب اردهارها ، فلما انسد اصابها الاضمحلال !

(٣) دندرة بلدة صغيرة الآن وكانت لها شهرة عظيمة فيما مضى لوجود
معبد الالهة حتحور بها ، وتقع فى الضفة الشرقية للنيل فى مواجهة مدينة قنا ،
(٤) ادخلت زراعة الرمان فى مصر فى عهد الاسرة الثانية عشرة ، اذ ورد

رسم شجره ضمن مجموعة الاشجارالتي أحضرها الفاتح العظيم تحتسب الثالث
عنه من بلاد الشام ، ورسمت فى عهده على جدران معبد الكرنك .
وفى عهد رمسيس الرابع كثرت زراعتها ، فأصبحت فاكهة محلية شائعة ،
ويجدر بنا ان نشير الى ان المصريين القدماء كان يسمون الرمان «رمن» الامر
الذى يؤكد ان اصل كلمة رمان مصرى قديم !

كانت ولا تزال هي الواقعة غربى مدينة الاسكندرية ! ويبدو أنه لم يكن واسع الانتشار فى مصر فى عصور تاريخها القديم ، ولعل السبب فى ذلك أن زراعته لم تكن تلائمها مياه الفيضان الغزيرة آنذاك .
وقد ظهرت أشجار النبق فى مصر منذ عصورها الأولى •

ولقد كان أهم ما كان ينمو فى مصر من الأشجار المنتجة للخشب عدا أشجار الجميز الطرفاء والعلب والسنط والبرساء !•

ولقد كانت الأخشاب المستوردة من الخارج تستخدم فى صنع الأثاث ، وأهمها التى كانت تتخذ من أشجار الصنوبر والأرز التى كانت يؤتى بها من الشام والأبنوس الذى كان يستورد من بلاد النوبة ! •

ولقد كان المصريون يزرعون الأشجار بكثرة حول المعابد ، كما كان الشأن حول الدير البحرى (١) وهرم اللاهون ! •

ولقد كانت النيران فى مصر القديمة نوعين : الزيرو الأفريقى وله قرون طويلة ، والنوع الثانى ذو قرون قصيرة •• ولم يكن النوع الأفريقى ذو القرون الطويلة قوى البنية متينا ، ولذلك فقد تعرض لأوثة كثيرة . فانقرض سنة ١٨٦٣م •

(١) يقع معبد الدير البحرى فى الر الغربى للنيل ازاء الانصر ، حيث توجد توجد معابد الملكة حتشبسوت والملك منتوحتب (من ملوك الأسرة ١١) وكانت أشجار البخور تحيط بمعبد الملكة حتشبسوت التى أحضرتها البعثة التى أرسلتها الى بلاد الصومال من هذه البلاد •

وكانت هناك سلالة من الأغنام ذات قرون أفقية متلووية ! وكانت
كثر انتشارا في عصر الدولة الوسطى ، ولكنها لم تلبث أن انقرضت
• وكانت في مصر أيضا سلالة أخرى من الأغنام ذات قرون مقوسة ،
وهو النوع الذي نشأه في تمثال جوبتر آمون (١) • ولا تزال
هذه السلالة موجودة في مصر المعاصرة • أما المعزى فقد كانت منتشرة
في عصور مصر القديمة المختلفة ! •

ولقد كان الخنزير موجوداً في مصر في عصورها المختلفة ، ولكن
المصريون كانوا يعزفون عن اقتنائه فكانت تقوم بتربيته إحدى
القبائل المنبوذة في حف الصحراء ، ولعل سبب عزوفهم عن اقتنائه
أنهم كانوا يعدونه مكرسا للاله ست الشرير • أما الحمار فعلى الرغم
من أن المصريين كانوا يعتقدون أن الاله ست يتقمصه (٢) فكان

(١) اتخذ المصريون من الكرش ذى القرون المقوسة رمزا للاله آمون ، وهذا
هو السبب في تزيين مداخل معابد الاله آمون بتماثيل على هيئة كباش كما هو
الحال في معبدى الأقصر والكرنك !

(٢) يبدو أن نظرة المصريين للحمار كحيوان اقترن بعبادة الاله ست لم تنشأ
الا في في عصر الدولة الحديثة بعد غزو الهكسوس لمصر ، فقد اتخذ ملوك الهكسوس
من الاله ست الها حاميا لهم • وكان الحمار هو الحيوان الذى كان يعتقد أنذاك
ان الاله ست يتقمصه. فقدسوه وكان بعض ملوكهم يلقبون أنفسهم « يعاقين » أى
الحمار الشجاع وكانت مقابر النمير في عهدهم مقدسة ، وكانت فخامة مبانئها
يفوق فخامة مبانئ قبورهم تكريما للحمار واجلالا لقامه ا. ولعل السبب في كراهية
المصريين للحمار كان تقمص الاله ست له في اعتقادهم ، وتقديس الهكسوس
أعدائهم له ا

لذلك مكروها ، فان حاجتهم اليه لحمل أثقالهم حالت دون بسنمه والتقليل من شأنه . ويبدو أنه جيء من ليبيا اذ كان موجودا فيها قبل عصر الأسرة الأولى ! وما لبث أن عم استخدامه في بقاع مصر المختلفة ، وبخاصة لحمل الزاد والماء اللازمين للمبسات التي كانت تجوب الصحارى المصرية بحفا عن المعادن ! .

أما الجمل فقد كان عدة البدو الذين كانوا يقيمون في الجهات التي تحف بمصر ، ولقد عم استخدامه في حمل المحاصيل والبضائع وزاد المسافرين وبخاصة في عهد الأسرة الأولى والأسرة التاسعة عشرة والأسرة الخامسة والعشرين (١) ! وكذلك في العهد الرومانى ، وكان يستخدم آنذاك في حمل جرار الماء الضخمة ، أما فى العهد الاسلامى فقد أصبح الوسيلة الرئيسية لحمل السلع والبضائع المختلفة والثقيلة منها بخاصة (٢) .

ولم يكن للخيول وجود فى مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة ، وقد استخدمت آنذاك فى جر العربات الحربية ، ويبدو أنها كانت ضئيلة الجسم غير صالحة للركوب عندما جيء بها أول مرة ، ولكن

(١) أقدم تمثال للجمل هو تمثال صغير من الفخار يرجع تاريخه الى عصور ما قبل الاسرات (عصر نقاده) ثم عثر على تمثال صغير له يرجع الى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، غير أن أقدم ذكر للجمل ورد فى بردية انستاس التي ترجع الى عهد الأسرة التاسعة عشرة .

(٢) يزعم المؤلف أن الجمال قد آتت على ما كان ينمو فى الصحارى المصرية من نباتات وأشجار .

صرعان ما ظهرت فى مصر وليبيا سلالة منها قوية البنية ، متينة ، ذات صفات ممتازة وذلك عندما عنى بها وأحسن تغذيتها فى المراعى الحصية الغنية بنباتاتها • ويبدو أن موطن الخيل الأول كان فى أواسط آسيا ، وقد جاء بها منها الآريون الذين غزوا بلاد الهند وابل (١) ، ولعلمهم كانوا السبب فى هجرة الهكسوس من بلادهم وحملهم على دخول مصر •

ولم يستخدم المصريون الخيول فى جر المحراث ، فقد كانت تلك المهمة يؤديها الثيران فى العصور القديمة ، ولا تزال تؤديها حتى اليوم (٢) •

كانت فى مصر القديمة ولا تزال حتى اليوم ، سلالات كثيرة من الكلاب ، مما يدل على أنه جىء بها من بيئات جغرافية مختلفة اختلافًا بنا فى طرق المعيشة ! وكان النوع ذو الحجم الكبير يستخدم فى الصيد والقنص ، كما كان النوع المتوسط الحجم منبوذا يعيش على فضلات الطعام أما السلالات الصغيرة فكانت يحتفظ بها فى المنازل ليأتس بها أصحابها ويدللوها ! •

ولم تكن القطط (٣) موجودة فى مصر قبل عهد الأسرة الثانية

(١) وكان يطلق عليهم المؤرخون الكاسيين 'Kassites'
(٢) يقول المؤلف : أن هذه المهمة يقوم بها اليوم الجاموس والجمال والحمير فى حالات نادرة •
(٣) كان يوجد فى ذلك العصر القديم نوعان من القطط : القط النمر - أى الشبيه بالنمر فى هيئته - والقط الفهد •

عشرة ، فقد عثر على صورة لقط نحيل طويل العنق على آثار يرجع تاريخها الى عهد تلك الأسرة ، ولم يلبث القط أن قدسه سكان سينا اعتقادا منهم أن الالهة حاتحور تتقمصه ، وذلك فى عهد الأسرة الثامنة عشرة •

ولقد كان من نتائج طول فترة الفيضان الذى كان يغطى الحقول شهرين وبعض الشهر أن اضطر المصريون الى خزن الطعام اللازم لمواشيهم وطيورهم الأليفة ، فكانوا يقدمون لها الطعام بأيديهم ، حتى التماسيح كانوا يقدمون لها الطعام أيضا بأيديهم باعتبارها من الحيوانات المقدسة (١) •

ولقد كان التفريخ الصناعى للبيض من مبتدعات المصريين ، وكان غير معروف فى الأقطار الأخرى ، ولقد كان المصريون يعدون للفراخ حظائر مصنوعة من الفخار ذات أبواب لوقايتها من غائلة البرد ومن الثعالب ليلا !

ولقد كان السمك الذى يصيده الصيادون المحترفون من النيل

(١) يروى أسترابون كيف كان الكهنة المصريون فى الفيوم يقدمون الطعام للتماسيح المقدسة . . وكان أحدها يربى وحده فى بحيرة ، وكان يألف الكهنة ويأتمن اليهم ، وكان الناس يذهبون الى تلك البحيرة لمشاهدته وليقدموا له اللحم والنبيذ ، وقد ذهب معنا مضيقتنا الى البحيرة حاملا معه كعكة ولحما مشويا وabricا مملوءا بالنبيذ المحلى بالعلسل ، فوجدناه مستلقيا على حافة البحيرة . ولما جاءه الكهنة فتح أحدهم فاه ، ودس آخر فيه الكعكة وسكب فيه النبيذ ، (وهيب كامل : استرابون فى مصر فقرة ٢٨ .

ومن البحرين الابيض والأحمر يسهم بقدر كبير فى طعام المصريين القدماء ، والطبقات الفقيرة منهم بخاصة ، وأقدم منظر للسّمك على الآثار المصرية الباقية ، ويرجع تاريخه الى أواخر عهد الأسرة الثالثة ، ترى فيه رجلا يشق جسم سمكة من الخلف ، بعد أن قطع رأسها وذيلها ورمى بهما . وفى أحد الأحتفال فى يوم العيد الكبير فى عهد الأسرة العشرين (١) قدم فيه ست آلاف سمكة لنحو عشرة آلاف شخص ، غير الذين كانوا يفدون كل يوم من أيام العيد الأخرى ، عدتهم ألف شخص ! وان تقديم ذلك العدد الكبير من السمك فى أيام عدة يؤكّد لنا أن السمك الذى كان يقدم يحفظ فى أحواض كبيرة من الماء بعد صيده ! ولقد كان وزن السمك الذى يؤكل يوم ذلك العيد يساوى ما كان يؤكل فى أثنائه من لحوم الحيوان والطيور . ومن الغريب أن أكل السمك كان محرما على رجال الدين لسبب لا نعلمه . ولقد كان النوبيون يعتقدون أيضا بعدم طهارة السمك ، ويحرمون أكله ، ولذلك منع أمراء الدلتا فى عهد بعنخى من دخول قصره للمثول بين يديه لا لشيء الا أنهم يأكلون السمك ! ولم يسمح الا بدخول أحدهم بعد أن تأكّد بعنخى أنه لا يأكل السمك ! .

(١) لقد كثرت الأحتفال فى عهد الملك رمسيس الثالث أحد ملوك الأسرة العشرين ! فالى جانب الأحتفالات الكثيرة بانتصاراته الكثيرة على أعدائه والتي كان يستمر الأحتفال بكل منها عشرين يوما ، كما كان عيد تنويجه عشرين يوما على حين كان عيد تنويج أسلافه يوما واحدا كما كان عيد الاله آمون فى عهده يستمر نحو سبعة وعشرين يوما ، ونتيجة لهذه الأعياد أصبحت أيام العطلات الرسمية فى عهد ذلك الملك تكاد تساوى أيام العمل .

ولقد كانت صناعة الجلود من أولى الصناعات التي ابتدعتها
المصريون وبرعوا فيها ! ولقد كانت جلود الماعز تستخدم أحيانا في
تكفين الموثى بدلا من المنسوجات ! ولقد كانت تلك عادة أهل الوبير
(البدو) في فلسطين الى عهد الأسرة الثانية عشرة ! *

ولقد كان أهم الأسباب التي دعت سنوحى الى العودة الى
مصر (١) خوفا من أنه اذا مات في منفاه لف جثمانه قبل دفنه في
جلد الماعز الذي كان يكفن به آنذاك الفلسطينيون انذاك ! *

ولقد كان صنع قرب الماء والغرائر من الجلود من الصناعات
الهامة ، ولقد تمكن المصريون من اعداد الجلد اعدادا يسهل طيه ولفه
ثم حفظه بحيث لا يسفل حينما كبيرا *

ولقد كان المصريون في عصور ما قبل التاريخ يستعملون مدى
من النحاس في سلخ الجلود ، وكانت قصيرة وعريضة مستديرة
الطرف ، حتى لا يتعرض الجلد للتمزيق عندما كان يسليخ بها .
وان قرب الماء التي كانت تظهر في الكتابة الهيروغليفية في
الأسرة الخامسة ، تشبه القرب التي ظل المصريون يستعملونها في حمل
الماء حتى عهد قريب *

(١) كان سنوحى قد فر من مصر خوفا من الملك سنوسرت الأول الى
فلسطين ، وبعد أن قضى بضع سنين فيها عاوده الشوق والحنين الى وطنه
العزيب ، فأرسل يستعطف الملك ، فعفى عنه الملك ورد عليه مرحبا لعودته الى
مصر ، ومبينا مزاياء تلك العودة ، ومن بينها أنه عندما يموت سيدفن في مقبرة
بعد أن يوضع جثمانه في تابوت لا في جلد معزى ، كما كانت عادة بدو فلسطين
آنذاك .

. ولقد كان المصريون يدبغون الجلود ويصنعون منها نعالا خفيفة،
وأغطية للمقاعد ، كما كانوا يستعملونها كمادة من المواد التي تستخدم
فى صناعة العربات الحربية والدروع ، وفى أغراض أخرى عديدة .
وكانوا يصنعون منها حبالا بأن تقطع الى أشرطة رفيعة جدا ، ثم
تجدل فتصبح حبالا متينة . على أن أجمل تلك الصناعة كانت الجلود
المخرمة التي تشبه الشباك ، وقد كان بعضها ذا أشكال منتظمة جميلة!
ولذلك كانت تغطى بها المقاعد والأرائك ! ولقد كانت الفواصل بين
ثقوبها دقيقة الى أبعد حدود التصور ! ولقد كانت تلك الجلود المخرمة
تلبس فوق الملابس التيلية لوقايتها وزيادة دفتتها ! *

ولقد كانت المصنوعات الجلدية التي تستعملها الطبقات العاملة
الكادحة أشد صلابة وأكثر متانة من التي يلبسها الاثرياء والمترفون ،
ولقد كان جزؤها الأوسط يترك بدون ثقوب ليطول عمرها .

وتعتبر صناعة السلال أقدم من صناعة الفخار ، إذ أن الرسوم
التي وجدت على مخلفات الفخار من عصور ما قبل التاريخ كان بعضها
على هيئة سلال ! وهذا يدل على أن صناعة الفخار قد يكون منشأها
طلاء احدى السلال بطبقة من الصلصال لوقايتها من الماء أو النار ! ولم
يلبثوا أن استبدلوا أواني الفخار بالسلال ! ولقد كانت السلال فى
مبدأ نشأتها فى منتصف العصر الأول لما قبل التاريخ تصنع ولها أغطية
مخروطة الشكل ترتكز على حوافها البارزة ! ولقد كان الفخار فى

أول نشأته يصنع على غرارها ! ولقد ظل هذا الطراز متبعا حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة ولا يزال متبعا حتى الآن في بلاد النوبة .

وفي عهد الأسرة الأولى كانت تصنع السلال كبيرة مرنة ، ثم استبدل بها سلال صلبة لحفظ المحاصيل الزراعية ! وظلت كذلك حتى العهد الروماني ، وكانت تستعمل آنذاك لحفظ الفاكهة أو نقلها ، وكانت السلال تصنع من سعف النخيل ، وهي لا تكاد تختلف عن تلك التي يستعملها الفلاحون المصريون في الوقت الحاضر .

وكانت بعض الأوعية والأواني تصنع من لحاء نبات البردي الداكن لحفظ المأكولات المختلفة ! ولقد كانت جوانبها تقوى بعيديان « البوص » أو القاب .

وكان يصنع من تلك المواد نفسها مقاعد كبيرة مزودة بقوائم من خشب لتصبح ثابتة متينة .

ولقد ابتدع المصريون القدماء صنع الحصر منذ أوائل عصر ما قبل التاريخ ، وكانوا يفرشون بها أرض غرف بيوتهم ولم يلبثوا أن صنعوا نوعا منها مزخرفا ، وكانوا يفرشون به السرر في عهد الأسرة الأولى . ثم لم يلبثوا أن زينو بهذا النوع المزخرف الحيطان الداخلية ! ولقد كانت صناعة الحصر بنوعها تشبه إلى حد كبير صناعتها في العصر الحاضر .

ولقد ابتدع المصريون صنع المكاس والمراوح والفراجين ، واستخدموها منذ العصور الأولى وكانت تصنع المكاس والمراوح

من الغاب بعد تشقه • وكانوا يستخدمون المراوح للنهوية ولاذكاء
النار عند طهو الطعام فى عهد الأسرة السادسة ! أما الفراجين فقد
صنعوها من سيقان الغاب واستعملوها فى الرسم !•

ولقد كانوا يصنعون من نبات البردى غرقا صغيرة خفيفة على
ظهور السفن ! وكانت زخارف « الحكر » التى كانوا يزينون بها
جدران تلك الغرف على هيئة الأطراف العلوية لنبات البردى ، وكانوا
يزيون بالحكر أيضا الحواشى الجانبية للحصر التى تزدان بها جدران
الغرف فى المنازل ، كما استعملت رسوم الحكر أيضا فى تزيين
الأجزاء العليا من غرف المقابر ، ولقد كان ورق البردى الذى كانوا
يستعملونه فى الكتابة يصنع بوضع طبقات من سيقان البردى الداخلية،
بعد نزع قشورها الخارجية ، بعضها فوق بعض ، وبينهما سائل
غروى ثم تضغط ، ثم تجفف (١) • ولقد كان ورق البردى أنواعا،
كان معروفا منها ثمانية فى العهد الرومانى •

(١) يعد الحكر ... وهى كلمة هيروغليفية معناها الزينة أو التحلية - الوحدة
الزخرفية الغالبة فى الفن الزخرفى فى مصر القديمة ، ويرجع أصلها الى عصور
ما قبل التاريخ حين كان المصريون يستخدمون الاكواخ ويعلمون سقفها على اعمدة
من سيقان البردى ، وكانت أطرافها العليا غير منسقة ، ويربطونها بخيوط فتبدو
حسنة المنظر ! وعندما استبدلوا المصريون الأحجار بنبات البردى فى بناء بيوتهم ،
نقلوا العناصر الزخرفية النباتية اليها (أى الى الأحجار) وزينوها بها ، كما
رسموا زخارف الحكر على سقف البيوت •

(٢) هذه الطريقة فى صناعة المصريين لورق البردى ذكرها المؤرخ يبنى ،
ولكن ثبت بعد قيام بعض العلماء بتحريتها أنها غير صحيحة ، فقاموا بإجراء
تجارب محورة فنجح العالم باسكوم جى (Batiscomb Gunn) فى صنعه !

ولقد كان المصريون القدماء يلدجأون الى النار أو الى فأس بدائى خاص لتجويف الكتل الخشبية فى عصور ما قبل التاريخ ! ولقد ظلت هذه الطريقة مستعملة فى بعض العصور التاريخية ! ولقد عثر على توابيت مصنوعة بهذه الطريقة يرجع تاريخها الى عهدى الأسترتين الخامسة والثانية عشرة ! وقد اتبعت هذه الطريقة نفسها فى العصر الرومانى لصنع الزوارق !

وكانت صناعة الخشب تقوم فى أول الأمر على استعمال مطارق صغيرة عرضها نصف بوصة وأزاميل حادة الطرفين ! ومنذ بداية عصر الأسرة الأولى ظهرت آلات أكبر حجما ، بعد أن أصبح استخدام النحاس فى صنعها أكثر ذيوعا ، ثم بدأت صناعة نشر الخشب فى الظهور تدريجيا ، بالاستعانة بسكاكين كبيرة وعريضة ،

= والطريقة التى اتبعها هى أنه قطع نبات البردى وهو أخضر ، ثم أزال لحاءه الخارجى ، ثم قطع اللب قطعا (شرائح) ووضع على لوحة من الخشب ، ثم وضع عليه عددا من هذه الشرائح جنباً الى جنب . وبحيث تكون موازية لبعضها بعضا ومتماسكة ، ثم وضع فوقها شرائح أخرى بحيث تكون زوايا قائمة مع الشرائح التى تحتها ، ثم غطاها ببنسيج رفيع رفق عليها بمطرقة من الخشب دقا متواصلًا لمدة ساعتين ، ثم وسج ما نتج بعد الدق فى مكبس ، لبضع ساعات وعندما أخرجها من المكبس وجد أن الشرائح قد التأمت وكونت ورقا رقيقا متجانسا صالحا للكثانة ثم صقله بعض الشيء مما جعله أكثر ملامسة .

هذا وكان البردى يستخدم فى اغراض أخرى ، فكانت تصنع من سيقانه الحصر والسلال والترايبيل ، وكان البردى يثبت برياً فى منافع الدلتا ، ولكنه اختفى منها الآن ، وينمو الآن بكثرة فى السودان ، ويتراوح طول ساقه بين سبعة وعشرة اقدام ، ذلك عدا الجذور والأزهار .

ولقد أدى ذلك الى استعمال المناشير ذات الأسنان المنتظمة ابتداء من عهد الأسرة الرابعة *

ولقد كان المصريون القدماء يزرعون الأشجار المنتجة للخشب ، ويتعهدونها مدة تتراوح بين عشر سنين وعشرين سنة ، ثم يقطعونها ويقسمونها الى مكعبات يصنع منها بعض الأثاث كالمقاعد ذات الأرجل (١) والسُرر (٢) *

ولقد وجدت مقاصير في داخل مقابر الملوك مصنوعة من ألواح من الخشب يتراوح طولها بين ١٨ و ٢٠ قدما ، ويبلغ عرضها ١٠ بوصات ، يتبع في تركيبها الطريقة المستعملة في بناء القاعات الخشبية في قصور الملوك ! وتتلخص في صف الألواح متجاورة في وضع رأسي بحيث تعلو أطرافها بعضها فوق بعضها الأخرى وتثبت بأوتاد من خشب توضع في ثقب رأسية ! وهذه الطريقة تمنع الألواح عند انكماشها من ترك ثغرات في الجدران ، وبذلك لا يكون لبرودة الهواء ورطوبته في أثناء الليل ، أو لحرارة الشمس ووهجها في أثناء النهار تأثير محسوس في داخل تلك القاعات *

(١) كان القعد يصنع من كتلة خشبية واحدة ، ريثم ذلك بتقويم ثلاثة أغصان متجاورة في الاتجاهات المناسبة لتكون بمثابة أرجل القعد ، أما القاعدة فكانت تقطع من جزء الشجرة المتصل بالأفرع *

(٢) كانت هياكل الأسرة تتكون من عوارض من الخشب تستدف عند نهايتها ، تحفر فيها فجوات لتثبت فيها الملة من الداخل ، حتى لا تدو الملة وقد التفت حول العوارض .

ويتجلى الابداع الفنى فى طرز قطع الأثاث المصنوعه من الخشب ، فقد كانت الزوايا الخشبية المستخدمة فى ربط أجزائها تؤخذ من فروع أشجار خاصة ، تننى فى أثناء نموها • وكانت ظهور بعض المقاعد تستند على دعائم منحرفة من الخلف ، وتقوى رجل الموائد الطويلة الدقيقة بأزرع منقطة من الخشب ! وكانت الأرائك والكراسى عريضة ومتناسقة الأجزاء ، ولا يعوزها اتقان الصنعة ودقتها !•

أما الفخار فان الكتابه عنه وعن أنواعه الكثيره ، وعن تاريخه لا يكفيها عدة مجلدات • ويحتمل أن يكون بعض اواني فخارية فد جاء بها مصر فى عصر ما قبل الأسرات بعض المهاجرين اليها من الغرب ! ولقد كانت تصنع بعد ورودها باليد ، ثم تشكل دون أن تكور ، كما كان الشأن فى بعض الأقطار الأخرى ! وكانت الخطوه التالية تشكيل جزئها العلوى ، ومنذ عهد الأسرة الأولى استخدمت عجلة الفخار فى صنع الجرار الكبيرة ، ولكن استخدام اليد فى تشكيل الفخار ظلت قائمة عدة قرون بعد ذلك !•

وفى عهد الأسرة الثالثة كانت الأوانى الخشنة تصنع بواسطة لفها داخل حفرة فى الأرض ، بينا تشكلها يد الصانع ! وفى عهد الأسرة الثانية عشرة ، كان الفخارى يدير عجلة الفخار بيده اليسرى ، ويشكل الآنية بيده اليمنى ، ثم ينزعها ، ويصقل قاعدتها وكانت الجرار الكبيرة تصنع انصافا منفصلة ، ثم تلتصق بعد ذلك ! وفى

عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت الجرار الكبيرة تصنع بحيث تكون في وضع معكوس أو مقلوب على عجلة الفخار ، وتستخدم اليد في تشكيلها حتى تضيق ففتحتها العليا ، فيخرج الفخاري يده منها ، ثم تسد القاعدة بقطعة من الصلصال ، ويصقل من الخارج ، ويترك من غير صقل من الداخل ! *

ولقد بدأت صناعة الأواني الفخارية المصقولة في مصر ، في أوائل عصر الحضارة الأولى ! ولكن دهان الأواني الخزفية باللون الأزرق أو باللون الأخضر كان يتطلب مهارة في التسخين ! اذ يحتاج هذا الطلاء الى حرارة عالية معينة ، لا تنقص ، ولا تزيد ، لمدة ساعات معينة ! ولم يك ذلك ممكنا من غير تجارب طويلة سابقة *

ولقد استخدم المصريون في عصر الحضارة الثانية الزجاج الأزرق واللازوردى ، على الرغم من أن استخدامه في ذلك العصر المبكر كان نادراً اذ لم يكن انتاج الزجاج واستخدامه في تنبي الاغراض الا في عهد الأسرة الثامنة عشرة *

ولقد عثرنا على نموذج واحد من الزجاج عليه أشكال من الموزايكو الملون يرجع تاريخه الى الأسرة الثانية عشرة *

وقد نهضت صناعة الموزايكو نهوضاً عظيماً في العهدين اليوناني والروماني ، واتسمت بطابع الدقة المتناهية ! وكانت مدينة الاسكندرية ذات شهرة عظيمة في تلك الصناعة ! *

ولقد عرف المصريون عشرة أنواع من المعادن وثمانين نوعا مختلفاً من الأحجار والصخور ، ولكنهم لم يستغلوا منها الا تسعة أنواع فقط ! *

ولقد استخدم المصريون الذهب فى عصر ما قبل التاريخ غير أنهم كانوا يخلطونه دائما بالفضة فى عهود الأسرات الأولى ، الأمر الذى يوحى بأنهم كانوا يستوردونه من أقطار أخرى ، ومن آسيا الصغرى بخاصة ! *

ومن المعادن التى عرفها المصريون فى عصور ما قبل التاريخ معدن الفضة ، ولكنها كانت نادرة كالذهب ، وظلت كذلك حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولكنها كانت على الرغم من ندرتها قليلة القيمة ! وأصبحت أقل قيمة عندما توثقت صلة الحثيين بمصر (١) . ولم يكن استعمال معدنى الذهب والفضة قاصرا على صنع الحلى ، بل كانا يستعملان فى تجميل الأواني المصنوعة من الحجر ، اذ كانت حواقيها ، وقواعدها ومقابضها تكسى بالذهب ، كما كانت أعطيها تصنع من الفضة ! وكان الذهب يستخدم فى كسوة أطراف القسى ومقابض المدى ، وغيرهما ، وكانت حبات العقود المصنوعة من حجر الجير تكسى بالذهب . وكان كل ذلك يصنع فى عصور ما قبل التاريخ ! *

(١) بعد ابرام مساهدة السلام بين رمسيس الثانى والحثيين ، وزواجه من ابنة ملكهم تحسنت العلاقات بين مصر وبلاد الحثيين ، فتبادلا السلع التجارية ، وكان معدن الفضة كثيرا فى القطر الأخير ، فاستوردته مصر منها ، فكثرت فيها فقل ثمنه .

وفى عهد الأسرة الأولى كان الذهب يلحم بعضه ببعض بدقة عظيمة ، وقد عرف المصريون معدن النحاس بمقادير قليلة منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولكنه لم يصبح ذائع الاستعمال فى صنع الأواني والأدوات الأخرى الا فى أوائل عصر الأسرات ! ولقد كان يخلط ببعض المعادن الأخرى الا فى أوائل عصر الأسرات ! ولقد كان يخلط ببعض المعادن الأخرى لجعله أشد صلابة ، وأخف وزنا ! ومن تلك المعادن التى كان يخلط بها اليزموت والمنجنيز والزرنيخ والقصدير !

ولم يعرف المصريون البلاتين الا فى أواخر عصر الأسرات ، اذ لم يستخدم فى التطعيم الا فى عهد الأسرة الخامسة والعشرين • ولقد صنع المصريون حبات العقود من الحديد فى عصر ما قبل التاريخ ، ولكنه لم يكثر استخدامه فى الصناعة الا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ! اذ كان يعلق بشباك صيد الاسماك ليزيد من ثقلها !

ولقد حصل المصريون على القصدير النقى فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وعلى الاتيمون (١) فى عهد الأسرة الثانية والعشرين ! ولقد صنع المصريون حبات العقود من الحديد فى عصر ما قبل التاريخ وكان لندرته كالذهب قيمة ! ولقد عثر على بقايا حديدية ، يرجع تاريخها الى عهود الأسرات الرابعة والسادسة والثانية عشرة ، وما بعدها ! ولكن قتلها جعلت بعض المؤرخين يظنون أنها من بقايا

(١) حجر شبه كريم أزرق !

شهب سماوية ، وليست خام حديد مستخرج من ماجم ! والدى لا ريب فيه أن الحديد كان معروفا ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة ، ولكن ارتباط ذلك المعدن بالاله ست صرف المصريين عن استعماله والاتفاع به حتى عصر البطالة .

ولم يكن الزئبق معروفا في مصر ، حتى جاء به الرومان ! وكان المصريون يتقبون في الصحراء الشرقية عن المعادن والأحجار القيمة ، وقد عنروا على عدد من الأحجار المتينة الجميلة المنظر ، وقد برز صناعتهم في نحتها والنقش عليها ! ومن أجمل تلك الأحجار التي عثروا عليها حجر البورفير الامبراطورى الأحمر(١) في أوائل عهد الأسرة الأولى ، لظهوره في آثارها ، ثم اختفى ولم يعد للظهور الا في آثار العهد الرومانى .

وفى عهد الأسرة الثانية عشرة استخرج حجر الجمشت(٢) ، ولم يظهر بعد ذلك الا فى أواخر عهد الرومان فى مصر .
وقد استعمل المصريون الامازوينت فى عهد الأسر من السادسة الى الثامنة عشرة على أن مصدره لا يزال مجهولا لنا حتى الآن ! .

(١) حجر أرجوانى اللون ذو خبات دقيقة ، يوجد فى الصحراء الشرقية عند جبل الدخان ، وهناك نوع منه استعمل فى عصر الأسرات الأولى فى صنع الاوانى . ويتكون من بلورات بيضاء فى رقعة سوداء .
(٢) الجمشت أو الاماتيست حجر بنفسجى اللون يركب من الكوارس الشفاف اللون بأكسيد المنجنيز .

وكان المصريون يصهرون المعادن في قوالب مفتوحة ، أو يحيلونها بالطرق الى صفائح رقيقة ! ولقد كانت الطريقة الأخيرة دقيقة جدا اد كان سمك بعض المعادن المطروقة يصل أحيانا الى أقل من ١/٥٠ من البوصة . . . وقد استخدمت هذه الطريقة أى طريقة الطرف فى صناعة الأواني النحاسية الرفيعة ! وكانت رقائق النحاس تستخدم فى كساء التماثيل المصنوعة من الخشب ، بشيئها بمسامير من النحاس أيضا !

ولقد كانت صناعة الأسلاك والسلاسل النحاسية من الصناعات المعروفة فى مصر ، وكان لحام المعادن بنفس مادتها متبعا فى صنع الحلى فى عهد الأسرة الأولى ، وفى صنع الأواني والأدوات النحاسية فى عهد الأسرة التاسعة عشرة ! أما استخدام سبائك الرصاص والتصدير فى لحام المعادن ، فلم يعرف الا فى المهدين اليونانى والرومانى ! •

ولقد ظهرت صناعة اللبن فى أواخر عصر ما قبل التاريخ ، ثم عمت صناعته فى العصور اللاحقة (١) وتوجد فى ابيدوس قلعة

(١) كان المصريون يستخدمون الاسرى فى ضرب اللبن ، ويعتقد المؤرخون ان الفراعنة سخروا بنى اسرائيل فى هذا العمل ! وكان حجم اللبنة الواحدة حوالى ١٢×١٨×٣٨ سم . ويلاحظ ان مصر الفرعونيه لم تعرف الطوب الاحمر المحروق ، واحسن وصف لصناعة اللبن فى مضر ورد منقوشا على حائط من حيطان مقبرة الوزير وخمارع . وكانت الطريقة المتبعة فى صناعته لا تختلف كثيرا عن الطريقة المستخدمة الان ! ويتلخص فى عمل حفرة فى الارض على مقربة من

مشيدة بالطوب اللبن يبلغ ارتفاعها ٣٥ قدما ، ويرجع تاريخ بنائها الى عهد الأسرة الثانية ، وهي لا تزال قائمة لم تتأثر بالعوامل الجوية الا قليلا ! ولقد بلغ سمك أسوار بعض المابد ثمانين قدما فى تانيس عاصمة مصر فى عهد الأسرة الواحدة والعشرين . وفى تل العمارة كانت أسوار القصر مزدوجة بينها ممر كانت طوائف الحرس تجوس خلاله !*

وكان المصريون يعرفون الغزل والنسج منذ أوائل عصر ما قبل التاريخ ، وفى عهد الأسرة الأولى كان نسج الكتان قد بلغ درجة من الاتقان يضارع أجود الأنواع المصنوعة فى كامبرى فى فرانساً من حيث جمال المظهر ومائة الصنع !*

ومما لا ريب فيه أن الغزل كان يؤدي باليد ! وكان نوع المغزل اليدوى يختلف من عصر الى عصر . وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت الرسوم الملونة على الأقمشة تتم فى أثناء نسيجها فى أشكال دقيقة بديعة يزينها حروف هيروغلوفية .*

= بركة ماء أو جدول ، يوضع فيها الطين ويضاف عليه بعض الرمل لوقايته من التشقق عندما يجف ، وقد يخلط بالطين لجعله متماسكا ، ثم تؤخذ كتلة كبيرة من المزيج وتوضع على حصر مفروشة فوق أرض مستوية ، وبعد ذلك يبدأ العمال فى تعبئته فى قوالب من خشب ذات مقابض ، وتسوية سطحه باليد ! ثم يخرج منها ويوضع فى الشمس لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ثم يقلب أعلى لأسفل ! أما الملاط الذى كان يستعمل فى البناء باللبن ، فكان يتكون من طمى الغيل المخلوط بقطع صغيرة من الفخار (١) ارجع لكتاب مصر والحياة المصرية للمؤلف ، وكتاب مصر واسرائيل للمؤلف نفسه صص ٣٢ - ٣٣ .

وقد عرفت الصباغة في عهد الأسرة الثانية عشرة ، وربما قبل ذلك ! وقد وجدت مصبغة كاملة في عهد الرومان بها أحواض تحتوى على أصباغ مختلفة في بلدة اتريب بالقرب من مدينة سوهاج (١) وقد استعملت آنذاك مواد لتثبيت الألوان وفقا لما ذكره بليني ! وقد استطاع المصريون تثبيت ألوان الزخارف على المنسوجات بغمسها في محلول الشب •

وكانت المواد المستعملة في تثبيت الألوان هي كما يأتي :

١ - اللون الأحمر : وكان يركب من مخلوط الهماتيت (٢) والمغرة الصفراء المحروقة •

٢ - اللون الأصفر : وكان يصنع من عدة أنواع من المغرة ، وللحصول على نوع جيد منه كان الرهيج الأصفر أو أصفر الملك يستخدم لذلك •

٣ - اللون الأخضر : وكان يصنع من الملائخيت (٣) حتى عصر

(١) المعروف أن اتريب هي بنها الحالية عاصمه القليوبية !
(٢) الهماتيت أو حجر الدم نوع من أكاسيد الحديد ، يوجد طبيعيا بألوان مختلفة - اسود ، أحمر اسمر •
(٣) الملائخيت أو حجر الوهيج أو التوتية هو النحاس الغفل ، لونه أخضر ، وكان المصريون يستعملونه كحلا للعيون ، ويستخدمون في طحنه ألواحا من الوردواز بيضاوية الشكل ، وأشهر مثال لهذه الأنواع لوح الملك مينا أو نارمر الموجود بالمتحف المصرى بالقاهرة !

الأسرة السادسة ، ثم استعملت سلسلات الجير الخضراء والنتحاس في ذلك .:

٤ - اللون الأزرق : كان يصنع في عهد الأسرة الرابعة من كربونات النتحاس الزرقاء .

٥ - اللون البنى : كان يصنع من أنواع عدة مختلفه من المغرة ، بعضها يحرق خصيصا لذلك !

٦ - اللون الاسود : كان يصنع من أنواع السناج .

٧ - اللون الرمادى : كان يصنع بخلط اللونين الأبيض

والأسود .

٨ - اللون الأبيض : كان يصنع من سلفات الجير .

وفي العصر الرومانى استخدم أكسيد الرصاص الأحمر لاتاج اللون الأحمر الفاتح . ولقد كانت الرسوم الملونة تدهن بزلال البيض لوقايته من تأثير الماء حين يصيبها ! وكانت هذه الطريقة مستخدمة في ذلك منذ أقدم عصور التاريخ المصرى حتى عهد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث !

صناعة نحت الاحجار

بدأ استخدام الأحجار في البناء في منتصف عهد الأسرة الأولى ، عندما استخدم حجر الجرانيت في تبييط أرضية مقبرة مبنية باللبن خاصة بملك من ملوك هذه الأسرة !

وقد استبدل الحجر باللبن فى بناء المعابد الملحقه بالاهرامات
فى أواخر عهد الأسرة الثالثة ! ومع ذلك فقد استمر استخدام اللبن
فى بناء معابد الآلهة فى أيدوس الى أن ظهرت الأبواب المصنوعة من
الحجر فى عهد الأسرة السادسة ! ولم تلبث أن ظهرت مباني شيدت
كها بالحجر فى عهد الاسرة الحادية عشرة !*

وان طريقة نحت الحجر التى كان المصريون القدماء يتبعونها
تشبه الى حد كبير الطريقة التى يتبعها النحاتون فى العصر الحديث!
فقد كانت تستخدم المناشير المرصعة بالأحجار الكريمة وتسويته*
والمثاقب المصنوعة من أنابيب النحاس (١) فى قطع الجرانيت وتسويته*
وكانت طريقة صنع التماثيل هى أن تحدد على قطع الصخر ، ثم
تستعمل المناشير فى تشكيلها ، يلي ذلك استعمال المثاقب فى عمل
التجاويف العميقة ، وازالة التواءات بالمطارق(٢) !*

وكانت المثاقب تستخدم أيضا فى صنع الأواني الحجرية بعمل
فجوة فى حجم فوهة الآنية ، ثم يوسع التجويف بمثاقب من الحجر
الصلد ، ويرش بمسحوق الصنفرة بين وقت وآخر ، وتتحرك فى
التجويف فى اتجاه مائل ! وبهذه الطريقة كانت سمك جدار الاناء

(١) كانت المثاقب تدار اما بالأيدين ، أو بمقض متحرك !

(٢) تتربل المطارق من كرات من حجر الدولريت (Dolerite) الشديد
الصلابة بها تجاويف تركب فيها عصى أو قضبان ! وكان المصريون يحصلون عليها
بحالة طبيعية من الصحراء الشرقية .

Engelbach : Problems of the Obelisks, p. 42.

ارجع الى

المنحوت من البورفير الامبراطورى ، والذي يبلغ قطره قدمين و ١/٤ بوصة ! وكان سطحه الخارجى يصقل بالصنفرة (١) .

ولم يستعمل المخارط فى صنع الأوانى حتى العهد الرومانى !
ولقد كانت الحلقات المحفورة على أرجل المقاعد تنحت باليد . .

ولقد كان الترقيع يسود صناعة الأوانى فى عهود التدهور الفنى الذى منيت به الصناعة فى مصر بوجه عام ! فقد كانت الأوانى المصنوعة من الحجر آنذاك لا تنحت من قطعة واحدة من الحجر ، ولكن كانت تنحت قطعا ، ثم تلتصق كل قطعتين منها بعضها ببعض ، كما كانت تتجوف الأوانى من ناحيتين ، ثم يركب لها قواعد ! أو تخلط شظايا الحجر الجبرى بالطين لتبدو وكأنها من حجر البورفير الامبراطورى ! .

ولقد كانت مظاهر الترف واضحة فى العصور التى اتسمت بالثراء والغنى مثل عصور الأسرات الأولى والخامسة والثانية عشرة والسادسة والعشرين . وكذلك فى عصر البطالة ، ولقد صحب ذلك انتشار التهلك والفساد ! .

(١) لقد استخدم المصريون الرمل والماء لصنفرة الأوانى فى عهد النوبة القديمة ، يدلنا على ذلك نقش على أحد جدران مقبرة « وب أم نفرت » فى الحيزة (ارجع الى مصر القديمة جزء ٢ س ١٦٧ للاستاذ الكبير سليم حسن) .
ويبدو أنهم عرفوا حجر الصنفرة بعد ذلك (ارجع الى كتاب **Problems of the Obelisks**, p. 81). (Engelbach الاستاذ

ولقد ادهش الاغريق وفرة الأزهار في مصر في جميع فصول السنة ، وكثرة منتجات البساتين ، والأكثر من استعمال العطور ، ومظاهر البذخ الأخرى ! •

وأكبر دليل على كثرة استعمال الزهور للزينة في الاعياد والحفلات تلك الوثيقة المدونة على ورق البردى الجنائزى ، والتي تشيد بأعمال ومسييس الثالث الخيرية وتعدد هباته للمستحقين (١) •

المقايضة :

لقد كانت المنتجات على اختلاف أنواعها تتداول باديء ذى بدء عن طريق المقايضة ! ولقد عثرنا على مناظر عدة لأحد الأسواق على جدران مقبرة من المقابر التي يرجع عهدها الى الأسرة الخامسة ، ومنها يتبين أن المقايضة كانت القاعدة المتبعة آنذاك • وليس هناك ما يشير الى وجود معايير ثابتة لتقييم السلع !•

ولقد كان مبدأ مقايضة الخبز بالجمعة ، يستند على تساوى مقدار الخنطة الذى فى كل منهما !•

ولقد عاد الرومان فى أواخر عهدهم الى طريقة المقايضة بسبب

(١) بردية تعرف باسم ورق هاريس ، يبلغ طولها أربعين مترا ، وبها مائة وسبعة عشر سطرا من الكتابة ، وهى لذلك تمد اطول بردية وصلت الينا حتى الآن ! وقد قام بتدوينها الملك رمسيس الرابع ، ورسد فيها أعمال ابيه رمسيس الثالث الخيرية ، وهباته للمعابد ، ومنها مرفنا مقدار ما كانت تملكه هذه المعابد من الأراضى ذات المساحات الكبيرة !

انتشار العملة الزائفة حينئذ ! ولقد كانت حكومتهم آنذاك تتقاضى
عينا لا نقدا ! *

الموازين والمقاييس :

ويبدأ وجود معيار مشترك في عصر الدولة الوسطى ، حين
كانت السلع التموينية والماشية تقدر بقدر معين من النحاس ! ولقد
عثر على خلاخيل من النحاس ترجع الى عهد الأسرة الثامنة ، تكاد
تكون متساوية في الوزن ، الأمر الذي يوحي بأنها كانت أثقلا توزن
بها بعض الأشياء ! وكان المصريون آنذاك يتداولون الذهب في
هيئه حلقات ، وربما كانوا يتداولون الفضة في هيئه حلقات
أيضا ! *

ويظهر من فوائم الضرائب التي نرجع الى عهد الأسرة الثامنة
أن كل واحدة من تلك الحلقات الذهبية كانت تساوى في وزنها
دبنا واحدا (١) (١٤٠٠ حبة) وفي عهد الأسرة العشرين كانت
المسروقات من المقابر لا تذكر أنواعها ، ولكنها كانت تذكر مقادير
قيمتها بالنحاس ! *

وأول عملة استعملت في مصر كانت العملة الفضية الاغريقية
الواردة من منطقته بحر ايجه ، ولم يكن هناك أية محاولة لاصدار
عملة مصرية مستقلة قبل العهد الفارسي ! ففي أثنائه سكّت عملة
فضية تحمل على أحد وجهيها صورة البومة المصرية ، وعلى وجهها
الآخر مدقة الخنطة .

وفى عهد البطالمة أصبحت العملة المصنوعة من الذهب والفضة والنحاس أساساً ثابتاً للنقد فى مصر ! غير أنها لم تسلم من التزييف ، وفى أواخر العهد البطلمى بخاصة ! •

ولم تلبث أن هبطت قيمتها فى العهد الرومانى بسبب سوء الحكم وتفشى الفساد آنذاك ، فارتفعت أسعار السلع والبضائع ارتفاعاً كبيراً ! •

ولعل أهدم وحدة للمقاييس كانت عرض الاصبع ، وكان طول عشرين أصبعا يساوى ما كان يطلق عليه لفظ رمن (Remen) أى ما يساوى ١٤ر٦ بوصة ! وهو أساس المقاييس العقارية ! وقد ذاع استعمال الزراع فى المباني ، وكان يساوى ٢٠ر٦ بوصة ! وكانت وحدة مقاييس المساحة هى الأستاد أو الأورورة الاغريقية ، وتساوى ١٠ر٠٠٠ ذراع مربع ، وهذه المساحة تساوى ضعف عشرة آلاف رمن مربع ! •

وكانت وحدة مقاييس الطرق هى الرحلة الملاحية النيلية ، وكان طولها ٢٠ر٠٠٠ ذراع ووحدة الطرق البريه هى المسخيتوس ؛ وطولها ١٢ر٠٠٠ ذراع • وكانت هذه الوحدات تقسم الى وحدات أقل ، طولها ١٠٠٠ ذراع !

أما وحدة الوزن فقد كانت فى الحقبه الأولى لما قبل التاريخ هى النوب (Nub) أو الوحدة الذهبية ، وكانت زنتها ٢١٠ حبة أو قممحة ، وفى الحقبه الثانية لما قبل التاريخ كانت الشيكل

(Shekel) وزنتها ١٢٨ حبة ، أما في عصور الأسرات فقد كانت القدت (Quedet) وزنتها ١٤٥ حبة ، وكانت الدين يساوي عشر قدات •

وكان المصريون القدماء يقسمون السنة الى أشهر عدتها اثنا عشر شهرا ، والأشهر الى أيام ، وعدد أيام الشهر ثلاثون ، وكانوا يصيفون خمسة أيام في آخر كل عام ! كما قسموا السنة الى ثلاثة فصول عدة كل منها أربعة أشهر ، وكانوا بسمونها ، فصل النماء ، وفصل الركود ، وفصل الفضان ! وكانوا يقسمون كلا من النهار والليل الى ساعات عدتها لكل منهما ١٢ ساعة • ولقد أدى نقص ٤/١ يوم كل عام الى تراجع الشهور ، بحيث تتم دورتها مرة كل ١٤٦٠ عاما ! فطابقت دورة نجم الشعرى اليمانية ! فقد كان هذا النجم يرصده المصريون عندما تشرق الشمس كل يوم لتحديد بدء السنة (١) •

(١) يظهر نجم الشعرى اليمانية في الامى الشرقى في مستوى طلوع الشمس فوق الأفق على خط عرض مدينة منف فى صباح ١٩ يوليه حسب التقويم اليولياني (الافرنجى) وقد ربط المصريون بين شروق الشعرى اليمانية وبداية فيضان النيل ، واعتبروا هذا التاريخ أول السنة ، وقسموا الفصول على اساسه !

ولكن اتفاق شروق الشعرى مع الشمس لا يحدث كل سنة في يوم ١٩ يولية ، لأن السنة $365\frac{1}{4}$ يوم لا ٣٦٥ يوما فقط • وبذلك تتأخر السنة المصرية المدية التى هى المدة ما بين شرقتين شمسيين لنجم الشعرى عن السنة الحقيقية كل عام بمقدار ربع يوم أو بمقدار يوم كامل كل أربع سنوات ، وتكون النتحة الحتمية لذلك تأخر الفصول •

ولقد كان في مصر القديمة وزانون عامون تخصصهم الحكومة
 للتحقق من أن الباعة لا يطففون في الميزان •

وكانت السلع والبضائع التي تصدر الى خارج مصر ترسل
 الى بلاد النوبة والشام والمغرب ! وعبر البحر الأحمر الى البلاد
 المطلة عليه ! والى بلاد بونت (الصومال) •

ولقد كثرت البعثات الى بلاد النوبة لكشف ما وراءها من
 أقطار تمهيدا لتبادل السلع والمنتجات ! ولقد كان من أهم عوامل
 تسهيل الوصول اليها القناة التي تم حفرها في عهد الملك سنوسرت
 الثالث عبر شلال أسوان ! وقد بلغ اتساعها ٣٤ قدما وعمقها ٢٤
 قدما وكان اتساعها وعمقها بسمطحان للسفن المحملة بالبضائع
 بالمرور فيها ! •

= ولم يكن ذلك محسوسا للمصريين في مدة قصيرة ! ولكنه أصبح واضحا
 على مر القرون ! فوصح لهم أن فصول التقويم غير مطابقة للفصول الحقيقية !
 ولدنيا شاهد على ذلك الا وهو تمرين انشائي ورد في كراسه تلميذ مصرى عاش
 في عهد الأسرة التاسعة عشرة ، بحمله فيما يلي :

تعالى الى يا أمون خلصى من السنه المصطربه ، لم تعد الشمس
 تسطح ، ويحل الشتاء محل الصيف والشهور تسير القهقرى •

وتلى الرغم من أن هذا التباين كان مريكا ومضايقا للناس لحلول الأعياد
 الدينية والمدنية في غير مواعيتها التي كانت تأتي في ابان طفولتهم وصباهم الا أنه
 لم يؤثر على مواعيت الزرع والحصاد ! اد كانت متعة للطواهر الطبيعية •

ولقد تمكن علماء التاريخ والفلك من تحديد معرفة المصريين لهذا التقويم
 بدراستهم للدورة الشمسية ! وقد توصلوا الى أنه تم لهم معرفته في سنة
 ٤٢٤١ ق م •

ولقد كان الاتصال ببلاد النوبة وثيقا في عهد الأسرة الثانية عشرة بخاصة ، ولم تلبث مصر أن سيطرت عليها سيطرة تامة في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وامتد سلطانها جنوبا حتى بلدة ناباتا الواقعة على خط عرض ٣٠° ١٨' .

وكانت الجزية التي فرضتها مصر على كل من بلاد النوبة والسودان تشتمل على معدن الذهب والرقيق من الذكور والاناث والجوز والصمغ والحلطة والعاج والابنوس وجلود الفهد والماشية! وكان الجانب الأكبر من تجارة منطقة البحر الأحمر يتبع طريق الصحراء الشرقية التي كانت تبتدىء من قفط ! ولقد اختيرت هذه الطريق تجنبيا للشعاب المرجانية التي كانت تكثر في شمالي البحر الأحمر ! وفي عصر الدولة الوسطى أصحح هذا الطريق ، وسمى وادي الحمامات ، وذلك بحفر الأبار ، واعداد صهاريج الماء وانشاء مراكز حراسة لها على جانبيه ! وفي عهد سيتي الأول زادت مرافق المياه في هذا الطريق وفويت وسائل الأمن فيه !

ولقد كان البحر الأحمر الطريق الطبيعي من مصر إلى بنت (١) ، ففي عهد الملك أسيسى أحد فراعنة الأسرة الخامسة ، أرسلت بعثة تجارية الى تلك البلاد ! كما أرسلت بعثة تجارية أخرى في عهد سفنح كارع (متوحتب الخامس) أحد ملوك

(١) هي بلاد الصومال ، كما يرى ذلك معظم المؤرخين

الاسرة الحادية عشرة ، وأرسلت معه ثاله فى عهد أمنمحات الثانى
احد فراعنة الأسرة الثانية عشرة ، ولكن أهم هذه البعثات جميعا
هى البعثة العظيمة التى أرسلتها الملكة حتشبسوت (١) .

ولم تقتصر تجارة مصر عبر البحر الأحمر فيما تلا ذلك من
العهود على بلاد بنت ، بل شملت سواحل شبه الجزيرة العربية
والهند !

ويقول استرابون - المؤرخ المشهور - لقد كانت الأساطيل
المصرية العظيمة تبعث الى الهند ، والى ما وراء أثيوبيا قاصدا بعض
الأقطار الافريقية المطلة على المحيط الهندى جنوبى بنت وزنبار
بخاصة *

(١) كان العرض الأساسى من ارسال هذه البعثات هو احصار البخور
اللائم للشعائر الدينية والحائرية وقد نلع حرص المصريين على الحصول عليه
أن الملكة حتشبسوت أوصت باحضار أشجاره فى اصص ، وزرعها فى
حديقه معدها بالدير الحرى .. وهذا ولم تكن منتجات بنت فاصرة على
البحر ، ولكنها كانت تشمل التمر والعاح والابوس وجلود الحيوانات . ولقد
أطلق المصريون على بنت « الرى الاله » وكانوا يعدون أنفسهم محدرين من
احدى سلالات سكانها ! فقد رسموا سكانها على الآثار المصرية بلهى كلهى آلهة
المصريين ، كما لو نوا أحسامهم باللون الاحمر الذى كانوا يلونون به اجسامهم
والذى كانوا يعيزون به أنفسهم من بين أفراد الشعوب الأخرى الذين كانوا
يرسمونهم على آثارهم ! كما كانوا يرسمون شعورهم مرمله على الطريقة التى
كانوا يرسمون بها أنفسهم ! كما كانوا يضعون على اجسامهم القميص الحرى !
والى جانب هذه السلالة مثل المصريون فى رسوماتهم سلالتى أخريين ينتميان
الى الجنس الزنحى الاسود .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن هناك أدلة علمية على حدوث هجرات من
بلادنا الى مصر فى عصر ما قبل التاريخ !

ولقد كان التبادل التجارى بين مصر والشام مستمرا منذ
عصور التاريخ الأولى ! وكانت أهم سلعة تحرص مصر على استيرادها
من الشام حجر اللازورد ! •

ولقد هبط مصر فى الحقبة الثانية لما قبل التاريخ اقوام ،
ويرجع المؤرخون أنهم جاءوا من الشام ، وقد أحضروا معهم أقدم
قطعة من الزجاج عرفها المصريون ، ومنذ ذلك العصر استمر
استيراد مصر للزجاج من الشام ! ولقد استقدمت مصر نفرا من
المهريين فى صنعه من الشام فى عهد الأسرة الثامنة عشرة لتعليم
المصريين صناعته ! وبذلك نشأت صناعة الزجاج فى مصر ! •

ويبدو أن احتلال الهكسوس لمصر قد ساعد على انساع
مجال التجارة المصرية فى الأقطار المجاورة ! ولا أدل على ذلك من
العثور على بعض المنتجات المصرية فى عهد الملك خيان (١) فى كل
من كريت والعراق ! ولقد كان ملوك الأسرة الهكسوسية الثانية
يلقبون أنفسهم « سادة الشمال وملوك البحر » كما هو منقوش
على الجعارين الخاصة بهم ! وعلى الرغم من أن الهكسوس قد طردوا
من مصر ، فإن تجارة مصر مع الشام لم تتأثر ولم يمتورها نقص
بل زادت ! ولعل سبب تلك الزيادة كان استيلاء مصر على بلاد
الشام حتى نهر الفرات ! وكانت لذلك البضائع والسلع الشامية

(١) أشهر ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر .

ترد الى مصر عن طريق البحر وعن طريق البر ! ولقد كان الجانب الأكبر من الأخشاب المستعملة فى كافة أنواع الأثاث الجيد الذى كان يصنع فى مصر كان يؤخذ من أشجار الأرز والصنوبر المستوردة من بلاد الشام • ومن البضائع المصرية التى كانت تصدر الى بابل والشام المنسوجات الكتانية والأشربة المزرکشة بخاصة ، التى اشتهرت وتميزت بها السفن والزوارق المصرية (سفر الملوك الأول ، اصحاح ١٠ آيات ٢٨ ، ٢٩ ، وسفر حزقيال اصحاح ٢٧ آية ٧) . وفى عهد الأسرة السادسة والعشرين كان الفينيقيون يسطعون بدور الوساطة فى تصريف المنتجات المصرية ، واستيراد السلع التى تحتاجها مصر من الأقطار المجاورة ! وكانت الحكومة تتقاضى منهم ضرائب كانت من أهم موارد الإيرادات العامة للدولة ! •

ولقد أدى تأسيس الاسكندرية واضطلاع بعض سكانها بتصريف المنتجات المصرية ، واستيراد ما تحتاجه مصر من سلع أجنبية ، واضمحلال صور أهم موانئ الفينيقيين الى القضاء على دور الفينيقيين فى التجارة المصرية ! •

ولقد كانت مصر فى أوج عظمتها واتساع رقعة سيطرتها فى ابان عهد تحوتمس الثالث قائدها العظيم تستورد الحنطة من الخارج على الرغم من زراعتها فى مساحات كبيرة فى مصر ، وهذا يدل على كثرة عدد سكان مصر ! وكانت مصر لذلك تعتمد على الجزية التى كانت تفرضها على الأقطار التى انضوت تحت لوائها ، وعلى تجارتها

الخارجية لسد ضرورات حياة سكانها الذين كانوا يتزايدون باستمرار !*

وان هذه الزيادة فى عدد سكان مصر لا ترجع الى جلب الرقيق لأن تجارة الرقيق فيها لم تبلغ قط ما بلغت فى بلاد الاغريق ! ولهذا لا يعزى الى وجود الرقيق فى مصر الاخلال بميزان الاحوال الاقتصادية فيها كما هو الحال فى بلاد الاغريق فى بعض عصور تاريخها ! ولهذا فان المؤرخين يعزون استيراد مصر للمواد الغذائية الى الزيادة الطبيعية السريعة فى عدد سكانها ! *

ولقد كانت منطقة البحر المتوسط آخر المناطق التى كانت تتبادل منتجاتها مع مصر ! ولقد كانت مصر فى الحقبة الأولى لما قبل التاريخ ذات علاقة تجارية مع بلاد الاغريق ، وكانت تستورد منها الصنفرة لاستخدامها فى صقل رءوس الصولجانات المصنوعة من الأحجار الرملية ! كما كانت تستورد فى الحقبة الثانية من هذا العصر العتيق الأنسديان (١) من ساموس (٢) ، ومخلوط الذهب والفضة من باكتولس (٣) ! كما يبدو وأنها كانت تستورد الذهب

(١) هو الحجر الزجاجى الاسود ، وهو زجاج طبيعى بركانى الاصل ، وعندما يكسر الى قطع يكون شفافا ، وكان يستخدم فى مصر لصناعة الآلات وروءوس الحراب ، وعيون التماثيل ، والجدارين وبعض الآوانى الصغير الحجم .

(٢) ساموس احدى جزائر بحر ايجه .

(٣) منطقة تركية يمر بها نهر باكتولس (Pactulos) جنوب غرب مدينه

في عهد الأسرة الثانية من ترانسلفانا (١) •

وكانت هذه أهم السلع التي كانت تنقل إلى مصر عبر البحر

المتوسط •

ومن الأدلة على وجود تبادل تجارى بين مصر وكريت في عهد الأسرة الأولى تلك الأقداح الفخارية السوداء ، التي كان يستخدمها المصريون في تعبئة الأصباغ الحمراء لتصديرها ، وكذلك أواني الأمفورا السوداء (٢) التي تشبه تمام الشبه ميسلاتها في كتوسوس (٣) •

ولقد استدل الاثريون والمؤرخون على أوصاف السفن التي كانت تحمل البضائع والسلع من أقطار البحر المتوسط الى مصر ، ومنها اليها من الرسوم المنقوشة على الأواني التي عثر عليها ، ويرجع

(١) اعتمد المؤلف في ذلك على أن الذهب الذي كان يجلب الى مصر في ذلك العصر كان يحتوى على مقدار من الاند ، ولما كانت ترانسلفانيا هي موطن الاند ، فرجع استيراده منها (انظر

Petrie : Descriptive Sociology of Egypt, p. 57.

ولكن الدكتور سليم حسن يعارض ذلك ، ويقول ان الوثائق المصرية تدل على أن الذهب كان يجلب الى مصر من الأقاليم الجنوبية ، ولا توجد لدينا وثائق تاريخية تشير الى أنه كان يستورد من الشمال قبل عصر الأسرة التاسعة عشرة (انظر : سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٢ صص ١٩٠ - ١٩١) •

(٢) أواني افريقية الطراز ذات عرويين ، كانت تستخدم في حفظ النبيذ والبرت وبعض الأطعمة والعسل . ولها فتحات تسمح بادخال مفرقة ، وكثيرا ماكانت تحلى برسوم ملونة !

(٣) العاصمة القديمة لجزيرة كريت •

تاريخها الى عهود ما قبل التاريخ ! فقد كانت مختلفة الأحجام يصل طول أكبرها حجماً الى نحو مائة قدم ، وتسير بمجازيف ! وكان على ظهر كل سفينة منها غرفتان صغيرتان تتصلان بمعبر (كوبرى) يمتد بين سطحها ، كما كان يوجد على سطحها مظلات لتقى البحارة والمسافرين عليها حرارة الشمس ! وكانت تحمل شعار القطر التابعة له فوق ساريه مثبتة فى أعلى الغرفة الخلفية ! وكان يوجد فى مؤخرتها مجداف طويل يستخدم لتوجيهها بمثابة الدفة ! أما المرشد الذى كان يجلس فى مقدم السفينة فكان يحتمى من وهج أشعة الشمس بغصن مورق من أغصان بعض الأشجار •

ولقد استدل الاثريون والمؤرخون من تقاليد أهل كريت لطرز الأواني المصرية ، فى عهد الدولة القديمة ، على قدم الصلص بين البلدين فى ذلك العصر !٥

أما فى عهد الدولة الوسطى فقد كانت مصر تستورد الأواني الكريتية المصنوعة من الفخار ذات الرسوم الملونة ، والتي كان يطلق عليها سلع كاماريس (١) •

ولقد استنبط المؤرخون من انشاء الميناء الكبير شمال

(١) أواني كبيرة على هيئة نصف كرة عليها رخارف هندسية حمراء وصفراء وبيضاء على أرضية سوداء •

الإسكندرية (١) ، والمغمور تحت مياه البحر الآن أن التجارة بين مصر وكريت كانت نشيطة .

ولقد اتسع نطاق التجارة الخارجية لمصر في عهد الملك أمنمحتب الثالث ، ولا أدل على ذلك من وجود أواني فخارية مصقولة ، وجعارين خاصة به ويزوجته الملك تى فى ميكيئا (٢) . ولقد أتقن الاغريق تقليد المصنوعات المعدنية المطعمة التي كانت تصنع فى عهد أحمس الأول اتقاناً يصعب معه التفريق بين المقلدة والأصيلة ! ولقد وجد ضمن مخلفات قصر أخناتون بقايا لما يقرب من ٨٠٠ آنية من صنع اقليم بحر ايجة ! غير أن تلك التجارة النشيطة بين مصر واليونان وجزائر البحر الأبيض لم تلبث أن اضمحلت نتيجة لغزو الدوريين لبلاد الاغريق ، وانهاء دولة الرعامسة ، ولكنها عادت

(١) كان يقع هذا المينا شمال غرب جزيره فاروس القديمة (راس التين الحالية) وكان مدخله فى الفجوة المحصورة بين الرأس التي يتوم عليها الآن فنار رأس التين وبداية حاجز الامواج ، وينتشر الآن فى هذه الفجوة صخور تعرف بالرملة البيضاء . ولقد ذكر هذا الميناء هرميوس فى الياذته ، اذ يقول : «وهناك جزيرة فى البحر الخضم يسمونها فاروس ، خارج حدود مصر لها ميناء ذو مراس جيدة» .

ويقول جونديه الذى كشف عنه : ان بحارة تربت بنوه فى العصر المنواتى ، ولكن يرحح بعض العلماء انه من عمل رمسيس الثانى على حين يقول آخرون ان هذه الاطلال ليست الا ابنية الفرس منها حماية جزيرة فاروس من طعيان البحر انظر : (Jondet : Mémoires de l'Institut Français, tome IX).

(٢) منطلقه اثرية شرقى اليونان قامت بها حصاره مزدهرة بين الفريين السادس عشر والثانى عشر قبل الميلاد . وقد قضى الدوريون عليها عند هروم لبلاد اليونان عام ١١٠٤ ق م .

فنشطت مرة أخرى ، اذ جاء التجار الاغريق فى القرن السابع قبل الميلاد الى مصر ، وأنشأوا صلات تجارية مع المصريين ومع سكان الدلتا بخاصة !

ولما اعتلى ايسماتيك عرش مصر بمساعدة جنود مرتزقة من الاغريق فى عام ٦٤٤ ق.م أسكنهم على جانبى الدلتا فى حصون نقراطيس فى غربها ، ودفنى فى شرقها !

وبعد غزو الاسكندر الاكبر لمصر وبنائه مدينة الاسكندرية أصبحت مصر من الناحية العلمية جزءاً من العالم التجارى الاغريقى آنذاك ! وما جاء عام ٢٥٠ ق.م حتى أصبحت الاسكندرية أغنى مدن العالم بفضل تجارتها الواسعة .

وكان النيل هو الطريق الرئيسى للنقل الداخلى ، ولم تكن هناك حاجة الى وسائل أخرى للمسافات الطويلة ! وقد أنشأ المصريون طرقاً طويلة ممهدة كلما دعت الحاجة الى نقل الأحمال الثقيلة الى النيل والترع ، ومنهما الى جهات مصر المختلفة وكان ينتهى الى كل هرم من أهرامات مصر طريق تنقل عليها قطع الأحجار اللازمة لبنائه . ولقد بلغ طول الطريق الذى انشأه خوفو عندما بدأ فى بناء هرمه الأكبر (١) أعجوبة الدهر ومعجزة الأيام ألف ياردة ، وعرضه ستين قدماً !

(١) ذكر هيرودوت أن هذا الطريق استلزم اتمامه عشر سنوات ، وأنه بنى بحجارة مصفولة ، منقوش عليها صور بعض الحيوانات .

ولقد بالغ هيرودوت فرعم أنه يضارع الهرم الأكبر في
عظمته .

ولقد كان نقل التماثيل الضخمة بعد نحتها ، الى الأماكن
المخصصة لاقامتها فيها ، يتطلب طرفا ممهدة تمهيدا جيدا ، وكانت
الطريقة التي اتبعها المصريون في نصب التماثيل الضخمة هي سحبها
فوق منحدر طويل ، وبعد وصولها الى قمة المنحدر يهبط بها في
الجانب الآخر في اتجاه قواعدها التي تقام عليها ! .

وكانت المسلات تنقل في النيل بعد نحتها في سفن عدة مربوطة
بعضها ببعضها الآخر بحبال ! ولقد أثارَت السفينة المصرية التي
استخدمت في نقل المسلة المقامة حتى الآن في روما دهشة الرومان
واعتبروها أعجوبة من أعاجيب الزمان ! (١) .

(١) في عهد الملك تحوتمس الاول كانت تستخدم سفينة واحدة لنقل المسلات ،
طولها ١٢٠ دراما (حوالي ٦٠ مترا) وعرضها ٤٠ ذراعا (حوالي ٢٠ مترا) وكذلك
الحال في عهد الملكة حتشمسوت ، وكان يجرها ٢٧ قارب من دراب المجاديب مرتبه
في ثلاثة صفوف .

الفصل السادس

التشييد والدفاع

التشييد والدفاع

لقد كانت المساكن البدائية للقبائل المصرية في الصحراء (١) تكون في بدء نشأتها من أكوام من الأحجار الحسنة غير المصقولة تقيهم حر الصيف وبرد الشتاء ، ومن العثير التي تذروه الرياح ! ولم يلبثوا أن استبدلوا بهذه الأكواخ البدائية خياما لها فتحات في الجهة المضادة لاتجاه هبوب الرياح السائدة آنذاك ! ثم زوردت تلك الخيام بعد ذلك بسياج من الغاب في الجهة المواجهة لهبوب الرياح ليضعف من حدتها ويمنع بعضا من الرمال التي تحملها ، ثم لم يلبث السياج أن أحاط بالخيمة من جميع جهاتها لمنع أطفال الأسرة وما كانت تملك من معزى وأغنام من التسرب الى الخارج فتضل ،

(١) كان سكان مصر الافندمون يبثون اكواخهم في الصحراوين الشرقية والقرية انعام لميضان النيل الذي كان ينمر جميع اراضى الوادى مده تعرب من ثلاثة شهور دل سنة .

الأطفال الطريق عندما تمهم بالرجوع ، وتضع المعزى والأغنام !
وعلى مر السنين وتقدم حضارة المصريين استبدلوا بسياج
الغاب حائطاً من اللبن حول الحيمة التي كانت تشد حبالها الى أوتاد
تدف في الحائط ! ولم يلبثوا أن استبدلوا بسقف الحيمة الذي كان
من القماش سقفاً من الغاب أو عيدان الذرة ، يركز على أعمده
ويضعون فوقه قليلاً من أوراق الأشجار وأغصانها !

ويستطع الذي يجوب أنحاء مصر المختلفة أن يرى أكواخاً
تتمثل المراحل المختلفة التي مرت بها على كر الدهور ومر العصور .
ولا يزال الغاب وعيدان الذرة « البوص » يلعبان دوراً هاماً في حياة
سكان وادي النيل في مصر الى الآن ! ولا تزال نرى أنواعاً من
أكواخ الغاب أو من عيدان الذرة وسط المراعى والحقول يقيمها
فلاحو مصر في زمن الربيع يقضى فيها رعاة الماشية وحراس الحقول
الليل ! *

ويقول ديودورس : لقد كان الرعاة المصريون القدماء يصنعون
أكواخهم التي كانوا يأوون إليها آناً الليل من الغاب والبوص (١)
كما يفعل أحفادهم في الوقت الحاضر (٢) .
ولقد كانوا عند إقامة أكواخهم من سيقان الغاب يسدون

(١) تطلق هذه الكلمة على عيدان الذرة .

(٢) يقصد بالوقت الحاضر الزمن الذي عاش فيه ديودورس .

فى كثير من الأحيان الثغرات بينها بعيدان الذرة ! ولقد ظل طراز
مبانى الأضرحة والمعابد باعتبارها مخلفات دينية لها قداستها ، محتفظاً
بطابعه البدائى حتى عصر الدولة القديمة • ثم لم تلبث هندسة
المبانى على اختلاف أنواعها أن تطورت ، فأصبحت الأكواخ مربعة
الشكل مثبتاً أمام كل كوخ منها عمودان يرتكز عليهما سقفه المكون
من سيقان الغاب ، والممتد أمام باب الكوخ للاستئلال به ، وهذا
الطراز لا تزال تراه اليوم فى حقول صعيد مصر ، يستخدمه بعض
سكانه فى اتقاء حرارة الشمس •

وان الاكواخ المصنوعة من سيقان الغاب يطليها أصحابها بالطين
لسد منافذها ، ومن سيقان الغاب يصنع الزراع أعمدة يطلونها بالطين ،
ويضعون على كل عمودين منها عارضة قوية من الحشَب يعلقون بها
شادوقاً تتراوح زنته بين قنطارين وثلاثة قنطير ، يستخدمونه فى
رى أراضيهم !

ويرى بعض المؤرخين أن طلاء سيقان الغاب بالطين بداية لبناء
الحيطان ، وعلى أحد جدران أثر من الآثار المصرية القديمة نموذج
لحائط يطل منه عدد من الرجال ، ويرجع تاريخه الى العصر الأول
من عصور ما قبل التاريخ ! كما يوجد نموذج آخر لمنزل مثبت
بحائط واجهته ألواح من الحشَب فوق بابه ، وأخرى مثبتة فى أعلى
نافذته وأسفلها •

ولقد أوحى طبيعة أرض مصر لسكانها بفكرة صناعة اللبن ،

اذ أن تشقق تربة أرضها بعد انسلاح ماء فيضان النيل عنها ، أتاحت لهم أخذ كتل منها بعد جفافها ونقلها الى حيث يريدون إقامة مساكنهم ، ويضعون بعضها فوق بعضها الآخر ليصنعوا منها حيطاناً غير منتظمة الشكل لحظائر الماشية ، كما كانوا يستخدمون الطين للصلق الكتل بعضها ببعض كما يستخدم البناءون المونة في ذلك ! وقد بدأوا صنع قوالب اللبن المنتظمة الشكل خلال الفترة الأخيرة من عصر ما قبل الأسرات ! وأستخدموها في رصف أرض المقابر ، وفي عهد الأسرة الأولى استخدموها في إقامة المنازل والمباني الكبيرة الأخرى !

ولقد كان سرات المصريين يسكنون في بيوت من الخشب ، وكانوا يصنعونها من ألواح يتراوح عرض كل لوح منها بين ١٢ و ١٤ بوصة ، وطوله يتراوح بين ٦ و ٧ أقدام وكانوا يقيمون تلك الألواح بعضها الى جوار بعضها الآخر بحيث تكون جوانبها متداخله في بعضها بعضاً ، ثم تربط بطريقة تجعل أطرافها لا يصددها صاد ، حتى اذا تمددت أو انكمشت بسبب رطوبة الهواء ليلاً أو جفافه نهاراً ، لا تتحرك ثغرات بينها مفتوحة ، وقد كانت لتلك البيوت الخشبية أبواب كثيرة لكي تسمح عند فتحها بمرور هواء كافٍ الى داخلها عندما تكون الريح ساكنة والطقس حاراً !

وكان لكل بيت من تلك البيوت مدخل ينتهى بالبواب الذى يؤدى الى بهوه ! وكان فى ذلك المدخل ينام أتباع صاحب البيت وخدمه لحراسته !

وكانت تلك البيوت تنقل من أماكنها اذا كانت فى مستوى ماء الفيضان وتقام على حافة الصحراء المطلة على الوادى فى وقت قصير قد لا يبدو يوماً واحداً ! كما كان ينقلها أصحابها الى جوار أكواخ الرعاة المصنوعة من التراب أو عيدان الذرة والمقامة فى الحقول أو المروج الخضراء عندما يريدون !

هذا وفد حفظت لنا أشكال بيوت الفلاحين فى مصر الفرعونية فى حال تدعو الى الدهشة والاعجاب على بعض الأواني الفخارية التى كانت توضع فى الصبور أو الى جوارها لتأوى إليها أرواح الأموات كما كانوا يعتقدون ! وهى عقيدة لاتزال راسخة فى اذهان بعض القبائل الأفريقية الى اليوم •

وتدلنا هذه النماذج على أن أبسط أنواع تلك البيوت المصرية القديمة كان مجرد مأوى مفتوح من أحد جوانبه ، وأن بعضها الآخر ملحقاً به غرفة من الخلف ! ويبدو أنها كانت الأصل فى نشأة البهو كما كان بها سلم يوصل الى أعلى المنزل ، وكانت تقام حواجز حول أسطح بعضها ! كما كان فى بعضها أدوار علوية كاملة يعلوها صوامع للغلال يوصل إليها بسلم ! ولم تلبث أسقف الطوابق العليا

للمنارل أن بقوست فاصبح ققيات ! ثم نفس الباعون فأقاموا أعمده على هيئة أشجار النخيل ، وسرفات ملنة الشكل نبرر من الطوابق العليا نزينها وتجلها ! كما فتحوا فى السقف فحات ليدخل منها الهواء عليلاً ! وهذه وغيرها من التفاصيل الدففة اللى ابتدعها الباعون المصربون لانزال محسوطة بفضل ملك المماح المخارية !

ولقد عثرنا على نمادج لأثاث مسارل المصربين القدماء ، منها كرسى عال وأربكه وحامل لمدور الماء وجراره ورحاً لطحن الغلال من تكزة على قاعدة موضوعة نحت سلم اليب وبعوارها امرأة تديرها !

وكان المصربون القدماء اذا أرادوا انشاء مدينة جديدة ، وضع لها المهندسون رسومات نين شوارعها ومارلها المختلفة ! وكانت الشوارع مسقمة لا عوج فيها ومتوازية ! كما براها فى مديه اللاهون ، التى يرحع نارح انشائها الى عصر الأسره الثانيه عشرة ، وكانت منازل المديه بختلف فى عدد حجراتها وسعة كل حجرة ، اذ كانت تتراوح بين أربع حجرات وستين حجرة ! كما كانت المنازل التى تحيط بكل شارع بختلف باختلاف الشوارع ، اذ كانت منازل كل شارع ذات حجم واحد ، كما كانت الشوارع بختلف فى طولها ، فكان فى مديه اللاهون شارع طوله ٦٢ قدماً يشرف عله منزلان من كل جانب ، وآخر طوله ٢٣٠ قدماً يشرف عليه ثمانه منازل من جانب وتسعة من الجانب الآخر ، وكان طول الشارع الرئيسى الذى

تشرف عليه القصور الكبيرة ٩٠٠ قدماً ، وكان يشرف على كل جانب من جوانبه ثمانية قصور فخمة ! وكان يتراوح عرض الشوارع بين ١١ و ١٢ قدماً ! وكان في وسط كل شارع قناة أشبه بالقناة التي كانت تشق في الشوارع الانجليزية ، وكان مبني بالاحجار ومخصصة لتصريف المياه • ولم يكن في الشوارع أفاريز مخصصة للمشاة ، اذ لم يكن آنذاك عربات تسير في الشوارع !

ولقد كان أبسط المنازل يتكون من فناء مكشوف مواجهها لدخله ، وحجرة عامة واحدة في جانب ، وفي الجانب الآخر المواجه حجرتان للتخزين ، وسلم موصل الى السطح •

ولقد كانت البيوت المخصصة للفنيين من الصنائع والمشهورين منهم بخاصة ، أكثر اتساعاً ، ويشتمل كل بيت منها على فناء مكشوف وأربع حجرات مفتحة أبوابها عليه ، وتتصل بخمس حجرات أخرى ! وكانت الحجرات جميعها مسقوفة بقوائم (عروق) من الخشب من فوقها عيدان الذرة وسيقان الغاب ، وكان لبعض تلك الحجرات سقوف مقيمة من اللبن ! وكانت مداخل جميع الأبواب معقودة ! أما سلمها فكان يتكون من مجموعتين من الدرجات عدد كل مجموعة منها اثنتا عشرة درجة ، وبينهما بسطة ، وكان عرض كل درجة ٢٧ بوصة • وكانت إحدى حجرات البيت تخصص لطهي الطعام • وكانت الأبواب وعتباتها تصنع من الخشب •

وكانت فى البيوت الكبيرة صوامع مخروطية الشكل لحفظ الغلال يبلغ قطرها نحو ستة أقدام وسك حائطها سمك قالب من اللبن ! وكانت تبنى تلك الصوامع بحيث تكون قريبة من بعضها بعضا قريبا لا يسمح لأى انسان أن ينفذ من بين اثنتين منها الا بشق النفس !

ولقد كانت الدور الكبيرة تختلف اختلافاً بيناً عن البيوت الصغيرة التى وصفناها ، وكان يتبع فى بنائها طراز خاص ، يشبه الى حد كبير طراز القصور التى أنشئت بعد ذلك بنحو ثلاثة آلاف سنة . ففى كل منها كانت حجرة للدواب تواجه الباب الخارج للدار ، فإذا ما اجتزت الباب وجدت ثلاثة ممرات ، أحدها الى يسارك يوصل الى المطبخ والى الجناح المخصص للرجال ، وتتفتح عليه أفخم حجرات الدار ، ترى بعد ذلك أمامك ممرين متوازيين ، أحدهما يوصل الى الحجرات المفضلة عند الأسرة (١) ، والآخر يوصل الى جناح الحريم . وكانت المطابخ والمخازن تتألف من نحو أربع عشرة غرفة ، وقاعة كبيرة للخدم ! أما عدد غرف الأسرة فكانت ست عشرة تتفتح على ثلاث أبهاء متسعة ذات أعمدة ، وكان جناح السيدات يحتوى على ثلاث عشرة حجرة وعلى بهو ذى أعمدة ! وكان خلف القصر أو الدار فناء متسع مكشوف أى غير ذى سقف تحيط به

(١) لعل المقصود بحجرات الأسرة هى تلك التى يجتمع فيها جميع أفراد الأسرة من رجال ونساء واطفال فى المناسبات المختلفة !

بواكى مسقوفة ، وملحق به ستة مخازن أخرى ! وهذه الغرف
والقاعات والأبها ، التى يزيد عددها على ستين كان يوصل إليها
بمدخل واحد ضيق ! *

وكان بكل قاعه من قاعات الحريم والحدم حوض يملأ بالماء !
وكان يخصص بهو للشقاء ذو أربعة أعمدة ، وكان مسقوفاً ، كما
كان يخصص بهو للصيف وكان غير مسقوف وبه اثنا عشرة عموداً
تحيط بحوض للماء مصنوع من الحجر !

وعلى آثار تل العمارنه يوجد نموذج لمساكن الطبقة الوسطى
من الموظفين الذين كثر عددهم فى عصر الأسرة الثامنة عشرة !
وكانت المسافة التى تفصل بين كل مسكنين متجاورين تتراوح بين
أربعين وخمسين قدماً ، وكان يحيط بكل مسكن سور يشبه سور
الحدائق ! وعندما كان يجيء الأسرة المصرية زائر ويرقى درجات
منزلها الأماميه ، يجد حجرة مخصصة للبواب ، وممرًا ينتهى الى
حجرة مخصصة لاستقبال الزائرين والضيوف ، ومن الممر يتفرع
ممر آخر ينتهى الى بهو بأحد جوانبه أريكة قليلة الارتفاع أمامها
مدفأة ، وفى جانبه الغربى محراب للعبادة أحمر اللون ! كما كان
يحيط به أربع مجموعات من الغرف ، تتألف المجموعة الأولى من
حجرة مخصصة لرب البيت ، بها سرير له يوضع فى جنوبها
حيث تضيق بعض الضيق ، ومن بضع غرف للسيدات ، ومن المطبخ *

وتحتوى المجموعة الثانية على عدة غرف مخصصة لرجال الأسرة (١)،
وبهذه المجموعة بهو صغير ! ويقلب أن يكون بها باب خلفى !
وتحتوى المجموعة الثالثة على حجرات صغيرة تستعمل مخازن !
وتحتوى المجموعة الرابعة على حجرات بها صواريين عدة ، ومن بينها
سلم يرقى الى سطح المنزل ! •

ولقد كانت تلك القصور والدور الكبيرة أنواعا مختلفة ، وكان
يضاف عليها على مر السنين مبانى يختلف طابعها ونظامها باختلاف
الغرض الذى كانت تخصص له ! وضرب المؤلف لذلك مثلا بقصر
تل العمارنة • ولم يكن لهذه القصور والدور الكبيرة نمط واحد
يمكن أن يتخذ نموذجا لها ، ولكن يمكن القول بأنه كان كل منها -
برجه عام - يشتمل على حديقة مسورة وعلى عدة أجنحة ، بعضها
لاستقبال الضيوف والوافدين ، وبعضها لأفراد الأسرة ، وبعضها
للخدم والمطابخ والمخازن ! وكانت كلها متصلة بعضها ببعض لا يفصلها
فاصل • وكان بها طبقات عليا ، تعلوها حجر مكشوفة حيطانها غير
سميكة ، أو ستائر جميلة من القماش ! •

أما بيوت الطبقة الفقيرة فكانت تتكون من دور واحد صغير
وقال ، أن يعلوه دور آخر ! •

(١) لعل المقصود بالرجال أبناء رب البيت واخوته •

ولقد كانت تبني الدور المصرية في العهد الروماني باللبن ! وقد أدى استخدام الآجر (١) والحصص الى رفع مستوى البناء في مصر في ذلك العهد بحيث أصبحت الدور في مدنها المختلفة لا يقل عنه في مدن الامبراطورية الرومانية ، ويبدو أن المصريين في هذا العصر لم ينسوا نصيبهم من الدنيا ، ومتع الحياة وترفها ! على أن كثرة نشوء كثير من الضواحي في المدن ، ومن المساكن التي عمرت بها بعض المناطق الصحراوية ، وانتشار الفخار المتين الجميل ، والزجاج الملون ليدل على أن سكان مصر في هذا العصر كانوا أكثر عدداً وأوسع ثمراً من أي عهد مضى ! وهكذا كان شأن سكان أقطار شمالي أفريقيا وحوارن حيث بلغت مظاهر الحضارة أوجها في العصر الروماني !

وان الحركة الجديدة للنسك التي نشأت في هذا العهد عن اضطهاد والحكام الرومانيين في بادئ الأمر ، ثم استمرائهم لها ورغبتهم في الرهبانية آخر الأمر ، والتي حدث بهم الى سكنى كهوف الجبال في حافة الصحراوين الشرقية والغربية ، لم تكن مظهراً من مظاهر الرغبة الخالصة في التقشف والزهد والرجوع الى الحياة البدائية الأولى التي كان بجهاها أجدادهم الأولون ! ولا أدل على ذلك من أن نساك العمارة والعرابة المدفونة قد شيّدوا أديرة فاخرة ، وصفت بالبلاط رصفاً جميلاً منسقا ! وطلبت جدرانها بطلاء أبيض ناصع جميل ، وزودت بأنواع الأثاث والرياش والفرش ، كما زينت جدرانها

(١) الآجر هو الطوب الأحمر .

يتصور الجميلة ، وأوصلوها الى الطرق العامة بمسالك مرصوفة
والحقت بها مرافق جيدة لطهي الطعام ولتخزين المئون والماء .
وان في تفصيل فن العمارة في مصر القديمة أشياء كثيرة تثير
أعجابك ! منها أن وصول ضوء الشمس الى داخل المنازل في مصر
يختلف جد الاختلاف عنه في الأقطار التي يقل ضوء الشمس فيها !
اذ يكفي لوصول الضوء الى حجرات المنازل في مصر وجود كوة
صغيرة في سقوفها أو نافذة أو أكثر في جدرانها الخارجية ، وكثيرا
ما يكتفى بوصوله متسللا من الأبواب الخارجية ! أما في المعابد فكان
يكتفى بوجود كوة في سقوفها لا تزيد مساحتها على تسع بوصات
مربعة ليدخل منها الضوء الى داخلها ! ولهذا كانت جدران المنازل
في القرى المصرية في العصور القديمة والحديثة لا يوجد بها الا نوافذ
صغيرة يسميها الفلاحون المعاصرون طاقات في أجزائها العليا ! منها
يدخل الضوء الى حجراته فوق الضوء الذي يأتيها من أفئيتها
المكشوفة !

ولقد كانت نوافذ الأدوار العليا تغلق بشبابيك ذات أشكال
مختلفة ، وفي متحف اللوفر بفرانسا نموذج من العاج لشباك منها
مكون من قضبان صغيرة أطرافها العليا على هيئة أزهار نبات اللوتس !
وفي المباني الحجرية كانت الشبابيك تصنع من الحجر أيضا ،
وأحسن ما عرف منها حتى الآن يوجد في البهو الكبير في معبد
الكريتك ، وفي معبد مدينة هابو . وقد وجد منها فيم فقط أشكال
مختلفة ، بعضها مكون من قضبان رأسية تعلوها كوة مستطيلة مقوسة،

ومنها ما هو على هيئة شبكه مكونة من قضبان متقاطعه ، بعضها مصمت ، وبعضها مفراع ، ومنها ما كان على هيئة وردة ذات ست ورقات ، وقد استخدمت أنواع متعددة من الأعمدة فى بناء المنازل ، منها الأعمدة المتعددة الأضلاع ، وكانت تصنع اما من الحجر أو من الخشب ، ومنها الأعمدة المخططة ، ومنها أعمدة على هيئة ساريات الحيام ! وهذا النوع الأخير ، يرمز فى الكتابة الهيروغليفية الى المباني الصغيرة ! ولقد كانت تيجان الأعمدة التى تحاكى سعف النخل تصنع من الخشب بعد نقشه ! وكانت تيجان بعضها تنحت على هيئة براعم زهرات اللوتس ، أو على هيئة الجزء العلوى من نبات البردى • ولقد وجدت نقوش على مصراع أحد الأبواب تمثل أعمدة على هيئة قاعدة الصباح •

ولقد كان المصريون يعنون برصف أرض الحجرات ، فكانوا يغطونها بأسطوانات من الفخار ، ذات أطراف مسنوية السطح ، ثم يغطونها باللبن ! وكان الغرض من وضع اسطوانات الفخار تحت طبقة اللبن صرف المياه التى قد تنفذ الى باطن أرض الحجرات ! كما كانوا يغطونها باللبن ! وكان الغرض من وضع اسطوانات الفخار تحق طبقة يضعون أنابيب من الفخار ملتصقة بأحد الجدران ، ومتدلية من سطح فوقه •

وكان فى حدائق القصور والدور الكبيرة أكشاك من الخشب سقوفها من الخصر ، ولقد استخدم المصريون الخصر منذ العصور

الاولى لعمل الستائر ، وكساء الجدران الداخلية ، وفرش أرض
الغرف !•

وكانوا ينتشون مخازن للمحاصيل المختلفة بجوار المنازل
والدور ، ذات سقوف مقيمة كما كانوا ينتشون فى حدائق الدور
أحواضا لتربية الأسماك فيها لاعتمادهم أنها تفضى على البعوض (١)
الذى يتسبب فى مرض الملاريا •

وان أقدم ما عرف من الطرق فى الصحراء الغربية طريفان
أحدهما يصل الوادى بالفيوم ، والآخر يصله بالواحات (٢) • وكان
عرض كل منهما خمسين ذراعا (١٥ قدما) •

أما الطرق التى كانت تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر
الأحمر عبر شمالى الصحراء الشرقية فكانت كما وصفها بليني ،
تمتد من الفرما ، ومن منطقة شرقى جيرون (٣) وعلى مقربة منها :
ومن جبل كاسيوس (٤) الى السويس (٥) ، وكانت تلتقى جميعاً
فى منتصف الطريق •

(١) من المعروف ان هناك أنواعا من السمك تتغذى على يرقات البعوض •

(٢) لانعلم علم اليقين أى واحة يقصدها المؤلف •

(٣) بلدة صغيرة مكانها الآن قرية الحمديّة ، وتقع عند الطرف الغربى لبحيرة

البردويل •

(٤) يقع جبل كاسيوس شرقى جيرون •

(٥) كانت تسمى برنيس آنذاك •

أما الطرق التي كانت تخترق الأراضي الزراعية ، فقد كانت دروبا بين الحقول تكفى لسير السابلة والحمير ، ثم فيما بعد لسير الجمال عند ما جىء بها من بلاد العرب ! وكانت تمتد على جسوانب الترع دروب أكثر اتساعا ، وكانت أهم الطرق التي تعبر الأراضي الزراعية هي التي كانت تمتد فوق الجسور التي كانت تقسم الأراضي الى أحواض تمتلئ في زمن الفيضان بماء النيل الذي كان يحمل الغرين المخصب ، والذي كان ينصرف الى النيل عندما ينخفض ماؤه !

ولقد قام الملك أمنمحات الثالث ببناء السد القائم عند بياهو ، وقد كان على وشك الانهيار (١) ! وبهذا السد تكون خزان عظيم لحزن الفائض من ماء النيل عند ارتفاع منسوبه في زمن الفيضان ، وتصريفه عند انخفاضه .

(١) ويرى بعض المؤرخين أن أمنمحات الثالث لم ين هذا السد ، وإنما قام بتجديده ، وأن الذي قام ببنائه هو أمنمحات الاول ا على حين يرى سري أنه كان قائما منذ عهد الاسرة الثالثة ، وأن أمنمحات لم يعم الا بتجديده كما أشرنا . والذي لا ريب فيه أن الملك أمنمحات الثالث بنى سدين في اليوم أحدهما عند نحة اللاهون ، بحجز المياه المتجمعه في البحيرة ، ومنعها من انصرافها الى النيل عندما تبدأ مياهه في الانخفاض ، وتصريفها عند الحاجة اليها في فصل التحاريق ، أما السد الآخر فقد شيده عند بلدة بياهو الواقعة في منتصف المسافة بين سنورس ومدينة الفيوم . . ولقد كان هذا السد على هيئة نصف دائرة ، وكان يقصد ببنائه تجفيف الأراضي الواقعة بينه وبين سد اللاهون وبذلك أمكن استرداد مساحة قدرها عشرون ألف فدان ، ومن بينها الارض القائمة عليها مدينة الفيوم التي يشر اسمها القديم وهو شدت ومعناه بالهروغلوفية «المستردة» الى هذا المشروع واقصد من القيام به !

وقد بلغت مساحة هذا الخزان (البحيرة) آنذاك نحو ٧٠٠ ميل مربع ، ولقد ظل هذا الخزان يستخدم فى الغرض الذى أنشئ له الى عهد بطليموس الأول الذى كان جل جيشه من الاغريق ، وقد رأى ان يهبهم أرضا زراعية يسنقرون فيها ، فعمل على تصغير حجم الخزان أو البحيرة تدريجيا بالحد من مقدار مياه الفيضان التى كانت تساب فيها ، فلما انحصر الماء عن حافاتهما أقطعهم إياها ! •

ويرى معظم المؤرخين أن نظام الري توطد فى مصر بحيث شمل القطر كله منذ عهد الأسرة الأولى مستدلين على ذلك بالقوش التى وجدت على رأس صولجان للملك العقرب (١) يمثله حاملا فأسا ويهم بالحفر ، بينما كان العمال وهم خائضون فى الماء يعملون لاقامة سد •

ولقد عرف المصريون منذ ذلك العهد البعيد فائدة المصارف فى التخلص من المياه الزائدة عن حاجة الأرض الزراعية والمحملة برواسب الأملاح ، التى من شأنها أن تضر بالزرع اذا بقيت عليها ! أما نظام الري والصرف الذى اتبع فى مصر الحديثة فانه يعتمد على وجود قنوات يختلف مستواها ، فما كان منها ذا مستو مرتفع يستعمل للري ، وما كان ذا مستو منخفض يستخدم للصرف •

(١) هو الملك السابق لينا مباشرة ، ولا يعرف نطق اسمه بالهروغليفية الذى كتب على هيئة عقرب •

ولقد كانت أولى الخطوات التي اتخذها ولاة الأمور المصريون الذين عنوا بتنظيم ماء الفيضان تقسيم الأراضي الصالحة للزراعة الى أقسام واسعة (أطلق عليها لفظ أحواض) تفصل بينها جسور يبعد كل منها عن الآخر مسافة بضعة أميال ! ويفصل هذه الأحواض عن النيل جسر عظيم يسير محاذيا لمجرأه وبذلك تمكنوا من التحكم فى ماء الفيضان وفقا للحاجة اليه ! ولقد كانت مياه الفيضان تغمر أرض الحياض لفترة معينة يرسب فى اثائها معظم الطمي التي تحمله فيجدد خصوبتها ، ثم تصرف عندما ينخفض منسوب ماء النيل محملة ببعض أملاح تربة الأرض والتي اذا لم يتخلص منها أضرت بالزرع !

ولقد استمرت طريقة رى الحياض حتى العصر الحديث (١) .

ولم يبطل اتباعها الا بعد أن استبدل بها نظام الرى الدائم أن الصيفى ! (٢) .

وعلى الرغم من فائدة طريقة الرى الدائم فانها حرمت الأرض

(١) لقد كان من مزايا رى الحياض تجديد خصوبة الأرض بما يرسب عليها من الطمي كل عام ، وترك الأرض بدون زراعة فترة تستريح فى اثائها ، وتتساقق فتعرض شقوقها لأشعة الشمس التي كانت تقتل ماقد يوجد بها من ديدان وحشرات تضر بالنبات ، وكان من مساوئها زراعة الأرض مره واحدة فى السنة .

(٢) من مزاياه زراعة الأرض مرتين أو ثلاث مرات فى السنة ، وقد تطلب استخدام هذه الطريقة انشاء عدد من المنابر على النيل ، وحفر كثير من الترع والمصارف ، واقامة السدود !

ومن عيوب الرى الدائم اضعاف الأرض لزراعتها مرات فى السنة وحرمانها من الطمي ، وعدم تعرضها للشمس والهواء فترة طويلة كما كان الشأن فى نظام رى الحياض ، الأمر الذى تكثرت به الآفات الزراعية .

من الطمي المخضب لها الذى كانت تحمله مياه الفيضان اليها ! الأمر الذى اضطر المزارعون الى استبدال المخضبات الحيوانية والكيمياوية به ولقد كان منسوب ماء النيل يسجله المصريون على مدار السنة منذ عهد الأسرة الأولى ، وقد استخدموا لذلك مقاييس أقاموها فى أماكن عدة ، ولقد كانوا يحجزون مياه النيل بسدود من تراب تزال عند عدم الحاجة اليها !

ويروى ديودورس أن فتح سد الفيوم واغلاقه كان يتكلف خمسين وزنة من الذهب فى المرة الواحدة *

ولقد كان المصريون حتى عهد قريب يحتفلون بفتح سد الخليج الذى كان يخترق مدينة القاهرة احتفالا كبيرا يبلغ مرتبة الأعياد *

ولقد كانت المحافظة على سلامة السدود وقت الفيضان من شئون الدولة الهامة ! فقد كان الحفراء يسهرون على حراستها ، وفلكانوا يرون صفوفًا متراسة ، وقد وقف كل منهم على مدى سمع الآخر ، كما كانوا يتناوبون الحراسة ليلا نهارا ، وكانوا يزودون بقدر كاف من العروق الخشبية والحبال لسد أية ثغرة تحدثها المياه فى السدود *

ولقد كان فى العصر الرومانى يعاقب الذى يتسبب فى احدث تلف فى سد من السدود بالاشغال الشاقة أو النفى الى الواحات !

ولقد حدث فى السدود ثغرات عدة فى العصور السابقة
ولما كان من الضرورى ترميمها من أمام السد لوقايتها وتقويته ، أصبح
من اليسير تمييز مواضع تلك الثغرات المرممة بوجود انحناء فى جدار
السد ! ولهذا السبب نجد عددا كبيرا من السدود تنحني جدرانها
حتى لتكاد تشبه الأفقى فى تلويها ! وذلك لأن الذين قاموا بالترميم
لم يراعوا المحافظة على استقامتها عند قيامهم بترميمها *

لا نعلم علم اليقين تاريخ حفر القناة التى كانت تصل بين النيل
والبحر الأحمر ، اذ لايزال المؤرخون غير واثقين من أن أسطول
الملكة حتشبسوت الذى زاد بلاد بنت وعاد منها سلكها * ولكن الذى
يعلمونه علم اليقين أنه كانت هناك قناة تخرج من النيل ، وتمتد
مسافة كبيرة جهة الشرق ! ولقد عثروا على آثار تمثل الملك
سيتى الأول ، وهو يعبر قناة تموج بالتماسيح وتعلوها قنطرة ذات أبراج
حصينة فى طريقه الى الشام ! فاذا فرضنا وجود قناة تمتد بين النيل
وهيروبوليس (١) غربى بحيرة التماسيح الحالية ، عند تل المسخوطة،
لم بعد ما يدعو الى وجود قناة ملاحية تمتد الى أبعد من ذلك لأن
خليج السويس كان - حتى العصر الرومانى - يمتد شمالا حتى

(١) هيروبوليس Heropolis ومعناها بئف الاغريق مدينة الابطال ومكانها الآن
تل المسخوطة التى سميت كذلك لوجود تماثيل كثيرة بها .

تلك المدينة (١) ! *

ويقول استرابو : ان سيزوستريس ، ويقصد رمسيس الثاني (٢) هو أول من حفر تلك القناة ! ولقد حاول دارا اكمالها ولكن أثناذ عن ذلك اعتقاده أن مستوى ماء البحر الأحمر أعلى من مستوى أرض مصر ، وهو نفس الخطأ الحسابي في تقدير مستوى ماء البحرين الأبيض والأحمر الذي وقع فيه مهنوسو الحملة الفرنسية *

أما هيرودوت فيزعم أن نخاو هو الذي بدأ بحفرها (٣) ، أو على الأقل زاد في امتدادها ، وأن دارا هو الذي أتمها ، وجعلها من السعة بحيث تسمح بمرور سفينتين فيها في وقت واحد وذلك في جزئها الواقع بين بوسطة والبحر الأحمر *

ويقول ديودورس أن القناة كانت تصل الفرع البلوزي

(١) كان خليج السويس يصل إليها آنذاك !

(٢) كان مؤرخو انيونان يطلقون اسم سيزوستريس على سنوسرت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ولكن المؤلف يرى أن استرابون يقصد بسيزوستريس الملك رمسيس الثاني لسنوسرت الثالث . والواقع أن أسماء فراعنة مصر اختلطت على هؤلاء المؤرخين ، ففسحوا كثيرا من أعمال بعضهم الى بعضهم الآخر .

(٣) يكاد يجمع المؤرخون على أن أول من قام بحفر قناة وصلت البحر الأحمر بأحد فراع النيل وهو الثاني هو الملك سنوسرت الثالث (١٨٨٧ ق م . - ١٨٤٩ ق م) وكان البحر الاحمر ممتدا آنذاك الى البحيرات المرة : مصر الخالدة للمترجم ص ٦٨ .

بالخليج العربي والبحر الأحمر ، وان المحاولة الأخيرة بعد محاولة نخاو ودارا هي التي قام بها بطليموس الثاني الذي قام بحفر قناة عبر برزخ السويس واقامة هويس عليها في أصلح موضع يفتحه كلما أراد عبورها ، ثم يغلغه مباشرة ! وكان يسمى فرع النهر الذي كان ينساب في تلك القناة باسم بطليموس !

وعند ملتقى القناة بالبحر أسست مدينة « ارسينو » ومكانها شمال مدينة السويس الحالية بقليل ! ولقد عثر على بعض آثار دارا على مقربة من تل المسخوطة ، وفي « أرسينو » •

ويرى بعض المؤرخين أنه كان هناك اتصال مائي بين النيل والبحر الأحمر في عهد الأسرة التاسعة عشرة •

ومصدر الماء في الصحراء الغربية منخفضة في بعض جهاتها تغطي سطحها طبقتان ، احدهما وهي السفلى مسامية من الحجر الرملي مشبعة بالماء ، والثانية طفلية وغير مسامية ، وهي العليا ، ولا ينفذ اليها الماء خلالها الا اذا حفر بئر ارتوازي عبرها ! فاذا ما حفر انبتق الماء وملاً المنخفض وأصبح معين ماء يمكن استخدامه للشرب وري الأراضي المجاورة ! •

ولقد نجح الرومان في الجصول على مقادير وفيرة من الماء الباطني في الواحات ، وذلك بحفر أنفاق يتراوح طولها بين ميلين وثلاثة أميال تتصل بالانكسارات والشقوق الطبيعية في القشرة الأرضية ! •

ولقد عفا الزمن على كثير من تلك الأبار الرومانية بسبب
اهمالها ، على أن هناك عددا قليلا منها لا يزال يتفجر منه الماء بصورة
مستمر وبمعدل يبلغ مئاة من الجالونات فى الدقيقة ! *

* * *

وان افامه ذلك العدد الكبير من المباني والمنشأ الأخرى بالحجر
فى عهد الأسرة الرابعة ، وفى العهود التى تلتها فذ تطلب استغلال
المحاجر على نطاق واسع ، وبخاصة تلك التى كان يستخرج منها
الأحجار المتينة *

ولقد كانت الطريقة التى كان المصريون القدماء يتبعونها
للحصول على الأحجار اللازمة للبناء هى حفر فجوات حول كتل
الصخر يسمح اتساعها بمرور ذراع الحجر ويده معول (أزميل)
الى عمق يتراوح بين قدمين وثلاثة أقدام فى داخل الصخر *
وكان قطع الكتل الكبيرة يتم عن طريق اعداد خنادق تسع لنزول
الحجارين فيها ! وكان الخندق يحدد برسمه على الصخر ، ثم ينحت
الى أسفل *

ولقد عثر فى تلك المحاجر على نقوش وكتابات قام بنقشها
وكتابتها العمال الذين كانوا يشتغلون فيها أو أولئك الذين لجأوا
اليها فيما بعد هربا من الاضطهاد الدينى !

ولقد سار المصريون بعد ذلك على نهج هذه الطريقة فى قطع

الأحجار من المحاجر ، كما ساروا على هديها في نحت الأبهاء العظيمة
في جوف الجبال المطلة على الوادى لعمل المقابر •

ويقلب على الظن أن الأحجار التي كانت تنزع لعمل المقابر
كان يستخدمها النبلاء في بناء منازلهم التي يقيمونها في أرض الوادى
المجاورة !



ولم يكن التعدين في مصر يجرى على نطاق واسع ، لأن
مناجم المعادن ، ومناجم الذهب بخاصة كانت في جهات الصحراء
الشرقية النائية •

ولقد كانت الصخور التي كانت تحتوى على الذهب تتكون من
الكوارتز الأبيض ، الذى كان يكسر قطعاً ثم يسحق حتى يصير
وفي شبه جزيرة سيناء كان الفيروز وكذلك الملائخيت والنحاس
والمواد اللازمة لصنع الزجاج تستخرج كلها من بين طبقات الحجر
الرملى ! ولم تكن المناجم في سيناء عميقة ، وكان الضوء لذلك يصل
من الخارج ، وكان المنقبون يتبعون الطبقات التي تحتوى على
المعادن ! •

وفي الواحات الخارجة مناجم كبيرة لاستخراج الشب ! •
أما الملح فكان يستخرج من الواحات ومن برزخ السويس ! •

ولقد كان المصريون القدماء يقيمون القلاع والاستحكامات اتقاء غارات الأعداء ! ففي عهد الأسرة الأولى كانت الأسوار ممتدة على الحدود ، وكان أول واجب يقوم به كل ملك جديد بعد اعتلائه عرش مصر الذهاب إليها والطواف بها للتأكد من سلامتها (١) ويشير سنوحى الى تلك الأسوار فيقول : وصلت الى أسوار الملك (٢) الكائنة على مقربة من بليس ، والتي شيدت لصد غارات قبائل « الساتي » (٣)

ويزعم المؤلف أنه لا يزال أحد الأسوار في منطقة الشلال في حال لا بأس بها ، ولكننا لا نعلم علم اليقين تاريخ بنائه ! ويغلب أنه بنى لصد القبائل الضاربة في الصحراء الشرقية .

على أن أقدم الحصون الباقية الى الآن هو حصن ابيدوس الذي يرجع تاريخه الى عهد الأسرة الثانية ، ويعرف الآن بالشونة - أو شونة الزيب - ويبلغ سمك جداره الرئيسي سبعة عشر قدما ، وارتفاعه أربعة وثلاثون قدما ! ويبدو أنه شيد بادية ذى يده الى ارتفاع واحد وعشرين قدما ! ثم زيد ست مرات ! وكل زيادة كانت تتم في خلال عام ! ويبلغ طول الحصن اربعمائة قدم وسبعة أقدام وعرضه

(١) ان ماوصل اليه الاثريون من الكشوف الحديثة لايتفق مع هذا الراى .
(٢) سور أنشاء المصريون القدماء على الحدود الشرقية لمر لصد ابدو ، يرجع في الغالب الى زمن الملك سنخرو .
(٣) الاسم المصرى الذى كان يطلق على القبائل البدوية الذين كانوا يقيمون في الصحراء الشرقية .

مائتا قدم وعشرة أقدام ، ويحيط به ممر عرضه عشرة أقدام ونصف القدم ، يليه حائط مرتفع سمكه تسعة أقدام ونصف القدم ! ولذلك كان الجدار الرئيسى للحصن فى مأمن من الاصابه بقذائف المتغيرين بطريقة مباشرة ، وعلى أن العدو المهاجم كان اذا تمكن من الوصول الى الممر بعد افتتاحه للسور الخارجى ، يتعدر عليه التقهقر فى سهوله ويسر ، لتعرضه لانهار الأحجار الثقيلة عليه من أعلى السور الرئيسى . وفى الحصن أبواب أشبه بالحجرات . . . ومن الغريب حقا أننا لم نجد أثرا لسلم يوصل الى أعلى الحصن ، أو حتى لمكان لتثبيت سلم خشبى يؤدى اليه ، مع أن الوصول اليه أى الى أعلى الحصن - كان أمرا ضروريا للدفاع اذا ما هاجمه الأعداء المتغيرون ! ويوجد بالقرب من هذا الحصن قلعتان من طرازه . احدهما لم يبق منها الا أساسها ، والأخرى مستخدمة كدير للأقباط !

ولقد شيد المصريون فى عهد الأسرة الخامسة بعض الحصون فى جنوبى بلاد الشام . (١) وفى عهد الأسرة الثانية عشرة كان المصريون يبنون الحصون متبعين طرازا جديدا ، وأبرز مثل له حصن سمنه (٢) العظيم ، تلخص فى بناء مجموعة من الابراج المنبعا حول أسوار

(١) بعد عثر الاثريون على رسم لحدى القلاع المصرية فى جنوبى بلاد الشام يحاصرها الإعداء الذين يبدون وقد تسلقوا سورها الخارجى بسلاسل من خشب ! بينما يقوم بعضهم بهدم بعض أجزائه !

(٢) بلدة صغيرة على شاطئ النيل الغربى جنوب وادى حلفا .

الحصن ، وبذلك يمكن للمدافعين صد هجوم المغيرين عليه قبل الوصول الى أسواره المنيعة !

ولقد كانت أسوار الحصن ترتفع اثنتين وثمانين قدما ويحيط بها خندق يحميه جدار متين من الحجر منحدر الى الخارج ! وكان العدو المهاجم يتعرض لرماح المدافعين التي يرمونه بها وهو يحاول اجتياز منحدرين عسيرين وهما منحدر الجدار الخارجى ومنحدر الخندق قبل وصوله الى أسوار الحصن نفسه !

وكانت عروق الخشب تستخدم فى تدعيم جدران الحصن المبنية باللبن ، لتزيدها متانة وقوة حتى اذا استطاع العدو المهاجم احداث ثغرة واسعة فى الجزء الأسفل من الجدار لا تتعرض أجزاءه العليا للانهار ، ويرجع استعمال عروق الخشب لتقوية الجدران المبنية باللبن الى عهد الملك سنفرو .

وقد استبدل بهذا الطراز طراز آخر فى العصر الرومانى ، فقد كانت الحصون فى هذا العصر تنسب من الآجر ، يتخلل جدرانها أبراج قوية مجوفة على هيئة أنصاف دوائر كما هو الحال فى حصن بابليون فى القاهرة ، الذى يشبه الحصون الرمانية فى بعض أقطار أوروبا !

أما وقد عرفنا وسائل الدفاع المادية ، فقد حق علينا أن نستعرض طريقة تكوين القوات المدافعة عنها !

لقد تعرضت مصر لغزوات الشعوب المحيطة بها ، لا بل والبعيدة عنها ، فقد تعرضت لغزو الليبيين من الغرب ، ولغزو بعض الشعوب الآسيوية من الشرق (١) ! وكان المصريون يصدونهم لا بل ويهاجمون بعضهم في بلادهم ! ومن ذلك أن مينا (نارمر) استولى بعد انتصاره على بعض أولئك الغزاة على ١٢٠٠.٠٠٠ أسير وعلى ٤٠٠.٠٠٠ ثور ، وعلى ١٤٢٢.٠٠٠ من المعزى ! ولا ريب في أن ذلك كان يتطلب جيشاً كبيراً منظماً ! كما هزم أحد ملوك الأسرة الثانية بعض أولئك الغزاة وقتل ٤٧٢.٠٩ من جنودهم !

ومن ذلك يتبين شغف المصريين بالاحصاءات الدقيقة .

وفي أواخر عهد الأسرة الثالثة قام سنفرؤ بمحاربة النوبيين ، وعاد بعد انتصاره عليهم ومعه ٧٠٠٠ من الأسرى و ٢٠٠.٠٠٠ من الماشية !

ولقد انتهت الحرب ضد الليبيين في عهد أحد ملوك الأسرة الخامسة باستيلاء جيشه على ٨٣٢.٩٤١ رأساً من الماشية .

وكانت بعض تلك الحروب تستغرق وقتاً طويلاً ، يرسل المصريون في اثنتائه البعثات المختلفة للكشف والاستطلاع ! كما كان يتطلب تقديم الغذاء لعشرات الألوف من الجنود في أوقاته ! وكل ذلك يدل على تنظيم دقيق محكم .

ويبدو أن تلك الحروب قد استدعت فرض الخدمة العسكرية على ثلث عدد البالغين من الرجال ، ممن هم في سن التجنيد !

وفي عصر الدولة الوسطى كانت أسماء الذكور ممن هم في سن الخدمة العسكرية تسجل ، لاما كان دعوتهم للانضواء تحت لواء الجيش متى احتاج الأمر الى ذلك ! كما كانت هناك كنيه تابعه للملك ، منظمة تنظيميا دقيقا ، تقوم بما يقوم به الحرس الملكي أو الجمهورى الآن ! ولقد كان الجانب الأكبر من القوات المصرية يدرب محليا في الأقاليم المختلفة ! فكان في عهد الأسرة التاسعة عشرة فيلق آمون من مصر العليا ، وفيلق بتاح من مصر الوسطى ، وفيلق رع من هليوبوليس وجنوبى الدلتا ، وفيلق سوتخ (١) من تانيس . . . وكان حكام الأقاليم والمقاطعات هم المسئولون عن تجنيد تلك الفيالق وتدريبها !

ولقد سبق أن ذكرنا أن المجتمع المصرى كان يتألف من ثلاث طبقات وهم المزارعون والكهنة والجنود . على أن تاريخ هذا التقسيم غير معروف .

(١) هو الاله ست وكانت عبادته سائدة في شمالى شرق الدلتا منذ مصر ما قبل الاسرات ، وعندما قرأ الهكسوس مصر واستفروا في هذه المنطقة عبده وكانوا يطلقون عليه ذلك الاسم (سوتخ) وظلت عبادته قائمة بعد طردهم من مصر وفي عهد الاسره التاسعة عشرة بخاصة التى كان ملوكها ينحتون أسماءهم من اسمه مثل سبتى !

ولقد كان الجيش النظامى فى عهد الملك سبتى مزودا أحسن تزويد بكل ما يحتاج اليه من زاد وعتاد ، وكان يصرف لكل جندى ما يكفيه من لحم وسمك وخضر وخبز (١) ، كما كان يصرف له رداءان من الكتان كل شهر ! أما تابع الملك أى احد أفراد حرسه الخاص فقد كان يصرف له عدا ذلك مقادير من التيد والزيت وعسل النحل والتين •

وكان الجيش اذا ما سار يسير فى صفوف منتظمة ، وكان لكل فرقة من فرقه علم خاص بها !

واقدم كانت الجيوش المصريه منذ العصور الاولى نضم بعض الفرق الأجنبيه ! وآية ذلك أن حملة الاعلام فى جيش ميناء أونارمر كانوا ينتمون الى جنسين مختلفين ! فقد كان أحدهما حليق الذقن ، وكان آخر طويلها ! كما نجد فى عهد الأسرة الخامسة أفواما من البدو يجاربون فى صفوف الجيش المصرى ! وكان فى عهد الأسرة الثانية عشرة فى صفوف الجيش المصرى جنود لبيون يحملون أقواساً وسهاماً ! ولقد كان لرمسيس الثانى حرس من سكان جزيرة سردينيا ! أما فى عهد الأسرة السادسة والعشرين فقد حدث تغير عظيم ! اذ لم يقتصر الأمر على ضم فرقة من الاغريق الى الجيش المصرى ، بل كان فى سلكه عدد قليل من الكاريين (٢)

(١) كان يصرف لكل جندى أربعة أرطال من الخبز •

(٢) الكاديون نسبة الى كاريا ، وتقع فى الجنوب الغربى من شبه جزيرة

الاناضول ، ولقد ازدهرت حضارتها فى العصر الاقربى •

وغيرهم من الشعوب الآسيوية ! •

ولقد كانت القوات الحربية المصرية آنذاك تتألف من قسمين كبيرين أحدهما خاص بمصر العليا وشرقي الدلتا ، ويسمى أفراده الكلاسيقي ، والقسم الآخر خاص بغربي الدلتا ، ويعرف أفراده بالهرموتيبيز (١) (Hermotybies) ، وكان عدد جنود القسم الأول ٢٥٠٠٠٠ ، وعدد جنود الثاني ١٦٠٠٠٠ ، وكان أولئك الجنود مقصورين على الخدمة العسكرية لا يسمح لهم بمزاوله عمل سواها ! ، وكان يصرف لكل منهم بالإضافة الى محاصيل ما يملك من أرض مقرر بومي مقداره خمسة أرتال من الخبز ورتلان من اللحم ، وأربعة أكواب من النبيذ •

وفي عهد البطالمة كان ينخرط في الجيش عدد كبير من الاغريق ومن أهل مقدونيا بخاصة ؟ وفي عهد بطليموس الثاني كان الجيش يضم بين فرقة فرقة من الكلت يبلغ عددها أربعة آلاف • وفي سنة ٢١٣ ق م كان يضم فرقة من تراقيا وغلطية (٢) عددها أربعة آلاف جندي ! ذلك غير ألفى جندي جاء بهم من خارج مصر • وفي العصر الروماني أبعد أحد البراطرة (٣) بعض الجنود المصريين

(١) القسم الاول كان يطلق على المجندين الجدد ، والقسم الثاني كان يطلق على الفرسان •

(٢) منطقة حول مدينة أنقرة •

(٣) اسمه هالنتس وهو أحد براطرة روما ، وقد حكم من ٣٦٤ م الى

لأمر لا نعلم عنه علم اليقين شيئاً ، واستبدل بهم جنوداً من القوطيين ،
جاء بهم من بلادهم التي كانت جزءاً من إمبراطوريته .
وفي القرن الثالث جند العرب في الفرق الاحتياطية ، كما
جند بعض رماة السهام التدمريين (١) .

ولقد كان من أهم أسلحة الجند في فجر التاريخ هو المضرب
الذي كان على هيئة القرص ، ثم لم يلبث أن تغير شكله فأصبح في
هيئة الكمثرى ! .. ثم استعمل الخنجر والحربة المصنوعان من
الصوان كسلاحين بعد ذلك ! وكان في أثناء ذلك العصر البعيد
يستخدم أهل صعيد مصر الحربة ذات الحديد كسلاح من الأسلحة
التي كانوا يعتمدون عليها في الحروب ! .

وكان أقدم سلاح مصنوع من المعدن عرف في مصر ذلك
النصل العريض المثلث الشكل ، ثم ظهر بعد ذلك نصل رفيع
في وسطه خط غائر ! وقد استعمل هذا النوعان قبيل انتهاء
العصر الثاني لما قبل التاريخ ! ثم ظهرت الحربة المصنوعة من
النحاس ، ثم الدبوس المدبب الطرفين والقوس والسهم وعصا
الرماية (٢) في مستهل عهد الأسرة الأولى ! وفي عهد الأسرة
الرابعة ظهرت الفأس ، واستخدمها الجنود كسلاح في حروبهم

(١) أي سكان مدينة تدمر .

(٢) عصا مسطحة ومقوسة من أحد طرفيها كانت تستخدم لصيد الطيور ،

ونسى البومرايح ولا يزال سكان استراليا الاصليون يستعملونها الى اليوم !

ولكنها كانت أخف وزنا من الفأس التي كان يستعملها الفلاحون
في شئون الزراعة ! •

وكانت العصا الغليظة التي تسمى الآن البوت سلاح الأهالي
العادي ! ما لبث أن أضيف إليه نصل مديب حاد من معدن •

ولقد كان المقلاع من الأسلحة التي استوردها المصريون من
الأفطار المجاورة (١) •

وكان الجنود المصريون يتقون أسلحة الأعداء بدروع مصنوعة
من الجلود السميكه !

ولم تكن الخيول تستخدم في الركوب الا نادرا ، وانما
كانت تستخدم في جر العربات الحربية ! التي كانت تعد بالآلاف ،
فقد روى أنه كان في مدينة طيبة وحدها عشرون ألف عربية حربية •
ولقد كانت العربات الحربية التي كان يستخدمها الجيش المصرى في
المعارك الحربية في بلاد الشام بجر كل منها فرسان ، ولعل السبب
في ذلك وعورة الارض التي كانت مسرحا لتلك المعارك !

ولقد كان الطبل يستخدم ايذاناً للجيش بالمتقدم ، كما كان
يستخدم قادة الجيش النفير (البوق) لاصدار الأوامر ، وتوجيه
سبر القتال !

ولقد ابتدع المصريون أنواعا وشارات من الذهب لتمسح

(١) لقد كان لبيى الأصل •

للضباط أو الجنود الذين يقومون بأعمال بطولية • كما كانت توهب للأبطال بلط صغيرة من الذهب ، وهى تقابل سيف الشرف فى العصر الحديث !

والآن وقد اسعرنا فى ايجاز حصائص الحضارة المصريه ومفوماتها العامة ، ومنها يتضح أنها وليدة الظروف الطبيعه الخاصه بتلك البلاد الفريده • فيض عظيم من الحصب والنماء والوفرة وسط صحراء قاحله جرداء ، وحرارة لافحه تلتطفها رياح عليه منعشة فى الصيف ، وحرارة معتدله تميل الى البرودة أحيانا فى الشتاء ، وشعب نشيط زكى مجد فوى ، يعتوره الضعف كل بضع مئات من السنين سنة الله فى خلقه ، فتعرض بلاده الى غزاة من الجنوب ومن الغرب ومن الشرق ، فيتعرض لمؤثرات مختلفه ، ولكنه على الرغم منها ظل يحتفظ بطابعه وصفانه القومية ، وشخصيته الواضحة المعالم !

وخلاصة القول أن المناقب العالیه والصفات الحميدة التى وهبها الله لهذا الشعب المجيد ، وكذلك ثبات دعائم حياته ، واستمرارها ، ووفرة الكنوز التى تدل على أمجاده التاريخيه كل ذلك حليق بان يجعل منه أهم وأعظم مجتمع انسانى جدير بالبحث والدراسة سواء أكان ذلك من الناحية الاجتماعيه أو السياسيه أو من ناحية الاختراعات والابتداعات التى قام بها ، فاقبستها العالم المعاصر ، وعسرت اشراقاتها البحار والمحطات الى العالم الجديد !

فهرس

الموضوع	صفحة
تقديم	٣
تمهيد	٧
مقدمة المؤلف	١٩
مراجع الكتاب	٢١
الفصل الاول (نشأة المجتمع المصرى)	٢٣
الفصل الثانى (ادارة البلاد)	٨١
الفصل الثالث (الحسنات والسبئات)	١٤١
الفصل الرابع (الحياة الخاصة)	١٨٧
الفصل الخامس (وارد البلاد المحلقة وبجانها الخارجة)	٢٣٧
الفصل السادس (التشبيد والدفاع)	٢٨٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٢٠٧٢



مطابع الهيئة المصرية العامة

الشمس ٩٠ قرشنا